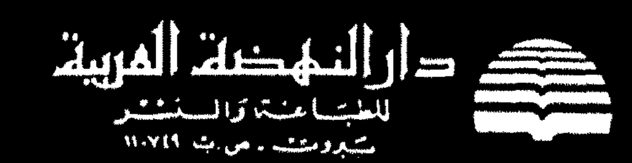
الدكتور سعدون عباس نصر الله

دولة المرابطين في المغرب والأندلس

عهد يوسف بن تاشفين

أمير المرابطين



دولة المرابطين

في

المغرب والأندلس

عهد

يوسف بن تاشفين

أمير المرابطين

تأليف

الدكتور سعدون عباس نصر الله

دار النهضة العربية

للطباعة والنشر

بيروت - ص ب ٧٤٩-١١

الطبعة الأولى

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م



دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت - لبنان - ص ب ١١٠٧٤٩

الادارة بيروت شارع مدحت باشا - بناية كريدية - ت ٢١٢٢١٢
التوزيع شارع البستاني - بناية اسكندراني رقم (٣) غربي جامعة بيروت العربية
تلفون ٢٠٢٨١٦ - ٢١٦٢٠٢ برقيا دانهضة تلكس NAHDA 40290 LE

المقـــدّمَة

الأندلس الفردوس الذي دخلناه بالإيمان وخرجنا منه بعد أن تناولنا أكثر من تفاحة له قدسية في النفوس قلما يرقى إليها قطر من الأقطار التي دخلها العرب المسلمون فاتحين. فالعربي الذي انطلق من قلب الصحراء قادة إيمانه بعظمة الشهادة إلى قلب أوروبا. وبعد حين من الدهر انقلب المد العربي جزراً كاد يلقي بالمسلمين على شطآن الأندلس غرباء. لكن تياراً قيض الله رياحه من الصحراء أنقذهم وأعاد إليهم عزتهم أكثر من أربعة قرون مفجراً الطاقات الجديدة انطلقت مع أول صيحة استغاثة انبعثت، ذلك هو الأمير التقي وليد الصحراء وزعيم العالم الإسلامي - في وقت عز فيه الزعيم والقائد - يوسف بن تاشفين بطل الفتح الثاني وصانع معركة الزلاقة الذي تلقى الإسلام الصحيح على يد عبد الله بن ياسين واستمد من ذلك قوة هائلة مغلفة بإيمان صلب لا يتزعزع، لم يبطره الملك فظل خبز الشعير غذاءه الوحيد في حين كان انداده من الحكام المسلمين يقبلون على ملاذ الدنيا وينغمسون في مفاسدها.

لقد هيأت العناية الآلهية يوسف لينقذ مؤمني الأندلس من الفناء، وكم نحن بحاجة إلى يوسف جديد يصنع زلاقة ثانية ترفع الرايات العربية فوق جبل الزيتون ترفرف مع نسيمات نخيل زنجبار وفوق ربى أسمرة وتعيد إلى الأوغدين طهارة الصحراء التي دنسها الفسقة والفجار ولعل الآتي قريب.

هذه هي الدوافع التي حدت بي إلى اختيار شخصية يوسف بن تاشفين

ليعرف الشباب العربي اليوم أن لا مستحيل مع الإيمان (وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله.) وإن الأمل بالغد ـ بنعمة الإيمان ـ ما زال يحرك ما تبقى من استعداد للتضحية والفداء دفاعاً عن العروبة والإسلام.

وقد قسمت موضوع الدراسة إلى تمهيد وستة فصول. فالتمهيد حديث شيق عن قبيلة يوسف بن تاشفين وحياتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية واعتناقها مبادىء ابن ياسين، وتأسيس (الرباط) النواة الجهادية الأولى لأحياء الإسلام في المغرب، وفصلت المعارك التي خاضها المرابطون بعد أن استكملوا قوتهم حتى استشهاد الإمام ابن ياسين.

والفصل الأول أرخ حياة الأمير يوسف بن تاشفين الاجتماعية وتدرجه في المسؤولية بدءاً من قيادة الجيش المرابطي إلى النيابة على المغرب وارتقائه سدة الإمارة حتى فتح المغرب. وخصصت الفصل الثاني لدوافع عبور الأمير يوسف إلى الأندلس وبينت أوضاعها في ظل ملوك الطوائف. وكان الفصل الثالث مثيراً كشف عن معركة الزلاقة معركة الفتح الثاني وقد رسمت حكم الأندلس مدة أربعة قرون وصارت حداً فاصلاً في التاريخ الإسلامي وهي تكاد تكون مجهولة عندنا في المشرق ولا نعرف عنها إلى القليل بينما هي غنية بالتضحيات الجسام والفكر العسكري الخلاق الذي امتاز به يوسف. ووصف الفصل الرابع حال الأندلس بعد الزلاقة وتآمر حكامها وخيانتهم خصوصاً في أثناء حملة لييط وهي عوامل دفعت بالأمير يوسف إلى اتخاذ قرار بضم الأندلس إلى الدولة المرابطية إنقاذاً لها من الضياع المحتم وقد لعب الفقهاء دوراً بارزاً في تحريض يوسف على إسقاط حكامهم المتآمرين المتخاذلين وهذا هو موضوع الفصل الرابع.

أما الفصل الخامس فتضمن العمليات العسكرية التي انتهت بضم الأندلس إلى الدولة المرابطية وخاض المرابطون معارك تعتبر ثانية الزلاقة مثل معركة (حصن المدور) قرب إشبيلية. وقد أضحت الأندلس جزءاً من دولة الأمير يوسف فاهتم بتنظيمها وبرعاية شؤونها حتى إنه أخذ البيعة لخليفته علي

في قرطبة ليظهر للأندلسيين مكانة بلادهم في نفسه. وانتهى هذا الفصل مع غروب شمس الأمير عن الحياة بعد أن عمر قرناً من الزمن.

والصحراء منبع الإيمان والرجولة طموحة إلى الحضارات والفصل السادس والأخير يكشف أعمال يوسف الحضارية تخطيطاً وتنظيماً وبناءً في الحقول العسكرية والاقتصادية والمالية مرتكزة إلى أحكام الشرع الإسلامي.

مستلهماً صفحات الماضي المجيدة أقدم إلى شباب العرب اليوم أبطالاً منسيين غيروا مجرى التاريخ للانطلاق نحومستقبل زاهر.

والله ولي التوفيق

بعلبك في ٢/ تشرين الأول ١٩٧٩

٩ ذو القعدة ١٣٩٩

تمهيد

الملثمون قبل يوسف بن تاشفين

موطن البربر ـ اسمهم ـ نسبهم ـ قبيلة صنهاجة ـ الملثمون ـ حياتهم الاقتصادية والاجتماعية ـ إسلامهم ـ الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي ـ لقاؤه مع الشيخ أبي عمران الفاسي ـ الأمير يحيى في مدينة نفيس.

عبد الله بن ياسين الجزولي ـ نشأته ـ علومه ـ دخوله إلى الصحراء ـ الصعوبات التي اعترضته ـ المؤامرة ـ المرابطة في نهر السنغال ـ تعريف الرباط ـ رباط ابن ياسين ـ مذهب ابن ياسين ـ بدء الجهاد ـ توحيد صنهاجة ـ الإمارة في لمتونة.

المغرب العربي تعبير جغرافي يطلق على المنطقة الواقعة غرب مصر من طرابلس شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، ومن شواطىء البحر المتوسط شمالاً إلى أواسط الصحراء الكبرى جنوباً ويشمل تونس والجزائر ومراكش وموريتانيا[1].

عرف العرب سكان هذه المنطقة باسم البربر ولم يعرفوهم بغير هذا الاسم، وكانت الصلة معدومة بين الشعبين، إذ أن علاقات العرب التجارية في تلك المرحلة[2] وقفت عند حدود مصر ـ ليبيا. والمعتقد أنهم اقتبسوا هذه التسمية بمعناها العام من الرومان، فقد أطلقت روما كلمة Barbari على الشعوب الخارجة عن نطاق حضارتها. وقد فسر العرب هذه التسمية تفسيراً لغوياً، فلهجه البربر أعجمية تختلط فيها الأصوات[3]، حتى قيل لهم ما أكثر بربرتكم. وبعضهم فسرها حسب عاداتهم في تقسيم الشعوب، فقالوا أنهم

(١) ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ١٠١.

(٢) مرحلة ما قبل الإسلام.

(٣) «ولغتهم من الرطانة الأعجمية متميزة بنوعها، وهي التي اختصوا بها من أجلها بهذا الاسم يقال أن أفريقش بن قيس بن صيفي من ملوك التبابعة لما غزا المغرب وقتل الملك جرجيس وبنى المدن والأمصار، لما رأى هذا الجيل من الأعاجم وسمع رطانتهم ووعى اختلافها وتنوعها تعجب من ذلك وقال: ما أكثر بربرتكم. والبربرة بلسان العرب هي اختلاط الأصوات غير المفهومة ومنه يقال بربر الأسد إذا زأر بأصوات غير مفهومة». ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ٨٩.

ينتسبون إلى جدهم البعيدبر[1] كما ينتسب العرب إلى جـدهم يعرب بن قحطان[2].

وفي القرن الرابع الهجري كانت أنساب البربر قد دونت بالعربية، واشتهر عدد من النسابة البربر[3]، واتخذوا شجرة الأنساب العربية أنموذجاً، فقسموا قبائل البربر إلى بتروبرنس ومن الأخيرة تفرعت قبيلة صنهاجة أقوى قبائل البربر وأمنعها[4]، فرجالها يمـلأون بطاح المغـرب وسهولـه وجبالـه، واعتبرهم بعض المؤرخين شعباً تنضوي تحت لوائه قبائل بلغت السبعين[5]، وأهم هذه القبائل وأشهرها لمتونة وجدالة ولمطة ومسوفة. . .

وقد اختلف المؤرخون على نسب صنهاجة، فبينما يقول النسابة البربر أن صنهاج بن عاميل. . . بن حام[6]، تذكر كتب التاريخ شجرة نسب مغايرة، فصنهاج من ولد عبد شمس بن وائل بن حمير[7].

---

(1) برنس ومادغيس (الملقب بالابتر) ابنا بر. وذكر ابن حزم عن أيوب بن أبي يزيد صاحب الحمار انهما لأب واحد. وقال سالم بن سليم المطاطي وهانىء بن مسدور الكومي وكهلان بن أبي لو (أن برنس من نسل مازيغ بن كنعان) ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ٨٩.

(2) دائرة المعارف الإسلامية: مادة صنهاج ص ٣٥٩.

(3) أشهر النسابة البربر: سالم بن سليم المطاطي وهانىء بن مسدور الكومي وأيوب بن أبي يزيد وكهلان بن أبي لو. ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ٨٩.

(4) ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ١٥٢ ـ السلاوي: الاستقصا ج ١ ص ٩٨.

(5) ابن الخطيب: أعمال الأعلام: تحقيق عبادي ص ٢٢٥.

(6) ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ١٥٢ (وقد جاء «وقال أبو محمد بن حزم أن صنهاج ولمط إنما هما ابنا إمرأة يقال لها بصكى ولا يعرف لها أب» ابن خلدون العبر ج ٦ ص ٩٠).

(7) ابن الخطيب: أعمال الأعلام تحقيق د. عبادي ص ٢٢٥ ـ ابن الخطيب: الحلل ص ٦ و ٧ ـ ابن أبي زرع روض القرطاس ص ٧٥ و ٨٧ ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٧ ص ١٢٨ ـ أبو الفدا: المختصر ص ١٧٤ وقد جاء في روض القرطاس ص ٧٥ و ٨٧ ما يلي: ذكر محمد بن الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمذاني صاحب كتاب «الإكليل في الدولة الحميرية» وقد ضاع الكتاب ـ أن لمتونة فحذ من صنهاجة وصنهاجة فخذ من ولد عبد شمس بن وائل بن حمير. وروى أبو عبيدة عن ابن الكلبي أن أفريقش لما نقل البربر من الشام ومصر إلى المغرب ترك منهم قبيلتين هما صنهاجة وكتامه. وقال الزبير بن بكان أن صنهاج أبو صنهاجـة هو =

وأطلق على القبائل الصنهاجية اسم الملثمين، وأصبح اللثام شعاراً عرفوا به حتى سموا بالمرابطين.

أما عن سبب تلثمهم، فقد وردت أقوال كثيرة، منها أن أسلافهم من حمير كانوا يتلثمون لشدة الحر[1]. وثانيها كما ورد في الحلل الموشية[٢] إنهم آمنوا بالرسول وكانوا قلة فاضطروا للهرب لما غلبهم أهل الكفر فتلثموا بقصد التمويه. وأخيراً إن طائفة منهم أغارت على عدو لها، فخالفهم إلى مضاربها وهي خالية إلا من النساء والأطفال والشيوخ فأمر الشيوخ النساء بأن يرتدين لباس الرجال ويتلثمن، ففر الأعداء. وهكذا اتخذوا اللثام سنة يلازمونه[٣] وارتقى عندهم إلى مستوى العقيدة، وقد قيل فيه فخراً[٤]:

لما حووا إحراز كل فضيلة غلب عليهم الحياء فتلثموا

استوطن الملثمون المنطقة الصحراوية الممتدة من غدامس شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً ومن جبال درن شمالاً إلى أواسط الصحراء الكبرى جنوباً. وقد حرمت هذه المنطقة من الأنهار الدائمة الجريان ومن الغطاء النباتي الأخضر، والأمطار وإن هطلت عليها فهي قليلة وأحياناً كثيرة تنحبس سنوات

= صنهاج بن حمير بن سبأ. وقال أبو فراس عبد العزيز الملزوزي الشاعر في أرجوزته في التاريخ المسمى بنظم السلوك في الأنبياء والخلفاء والملوك:

مرابطون أصلهم من حمير قد بعدت أنسابهم عن مضر
وأن صنهاج أبو حمير وهو ابنه لصلبه لا العنصر

وقيل صنهاجة فخذ من هواره وهواره فخذ من حمير يمانيون) وقال الكلبي أن كتامة وصنهاجة ليستا من قبائل البربر، إنما هما من شعوب اليمانية. ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ٩٠.

(١) دائرة معارف القرن العشرين: مادة لثم ص ٣١٩.

(٢) ابن الخطيب: الحلل ص ٨.

(٣) وفيات الأعيان ج ٧ ص ١٢٩ ـ الاستقصا ج ١ ص ٩٨. المختصر ص ١٧٥ ـ حتى وجبور: تاريخ العرب ص ٦٤٤ ـ حسن محمود: قيام دولة المرابطين ص ٤٩ ـ مرآة الجنان جـ ٣ ص ١٦٧.

(٤) وفيات الأعيان ج ٧ ص ١٣٠ ـ دوزى: نخب تاريخيه ص ٣١ وقائل هذا البيت هو الكاتب أبو محمد بن حامد.

عدة، فلم تعد تعرف للنبات شكلاً ويتعرض سكانها للمجاعـة. إلا أن المرتفعات تتلقى في السنـوات العاديـة كميات من الأمـطار مكونـة بعض الواحات القليلة التي تغير من رتابة منظر الصحراء، وقد توزع الملثمون حول هذه الواحات فنشأت مع الزمن قرى صغيرة، استفاد سكانها من توفر بعض المياه وعملوا في الزراعة[1] وخاصة زراعة الشعير فهو ينبت في الأرض الفقيرة ويكتفي بالقليل من الماء وقد ازدهرت زراعته في منطقة أزكى حيث تقطن قبيلة لمتونة والدليل على ذلك أن خبز الشعير كان طعام يوسف بن تاشفين طوال حياته حتى بعد أن استولى على المغرب والأندلس. أما القمح فكان نادراً جداً لعدم توفر العناصر الطبيعية لنموه. وكان النخيل أهم أشجارهم المثمرة ومنظره في الصحراء يوحي لقاطني البوادي بوجود المياه، وكانت مدينة سجلماسة من أهم واحات الصحراء عمراناً بشجـر النخيل حتى أن ابن بطوطة شبهها بمدينة البصرة[2] وكذلك مدينة أزكى فقد كانت تحيط بها حوالي عشرين ألف نخلة، وأجود أنواع التمور الصحراوية وأطيبها إيرار. وقد استفاد الملثمون من ظل أشجار النخيل فزرعوا البطيخ والقرع والكوسـى والقثاء وشهدت بعض الواحات زراعة الذرة وكذلك الينسون.

وازدهرت زراعة القطن في واحة سجلماسة لتوفر العناصر لانباته من حرارة وماء، وكان قصير التيلة، وكذلك قصب السكر لتوفر العناصر ذاتها. وعرفت الصحراء نوعاً من الثمر يسمى بالفرتي وهو شبيه بالإجاص شديد الحلاوة. وقد تصدف أن يهطل المطر غزيراً في بعض السنين فيؤدي ذلك إلى نمو ثمرة في باطن الأرض تشبه البطاطا تسمى الكماة.

أما وسيلة الزراعة فكانت المحراث الخشبي تجره الجمال.

---

(١) يذكر البكري في كتابه المغرب ص ١٦٤ أن الملثمين «ليس يعرفون حرثاً ولا زرعاً ولا خبزاً...» وكذلك ابن أبي زرع في روض القرطاس ص ٧٦ «قوم لا يعرفون حرثاً ولا ثماراً وإنما أموالهم الأنعام وعيشهم من اللحم واللبن». ١٢٨.

(٢) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار) ص ٦٥٨ و ٦٥٩.

واهتم الملثمون بتربية الحيوانات للحصول على قوتهم ولاستعمالها في تنقلاتهم، فكان الجمل الحيوان الذي استخدموه في كافة مجالات حياتهم اليومية يأكلون لبنه ولحمه ويستفيدون من وبره وجلده لصناعة العباءات والألبسة والأنعال وسقف البيوت الصغيرة. وإلى جانب الجمل كان البغل والحمار ولكن بأعداد قليلة وتستخدم للنقل المحلي لأن حوافرها لا تساعدها على عبور الصحراء، وكانت البغال مما يهدى في تلك المرحلة[1]. وعرفوا تربية المواشي من بقر وغنم وماعز لاستعمال ألبانها ولحومها في غذائهم وجلودها وأصوافها في لباسهم. كان الماعز بأعداد كبيرة نسبياً خاصة وإنه يتحمل القحط أكثر من غيره ولديه القدرة على تسلق المرتفعات. واهتموا بتربية النحل للحصول على العسل والشمع، وقد مارسوا الصيد وخاصة صيد البقر الوحشي.

ولانقطاعهم في صحرائهم عمد الملثمون في مرحلة من المراحل إلى صناعة ما يحتاجونه بأيديهم وأدّى ذلك إلى ازدهار صناعة محلية للاكتفاء الذاتي ما لبثت أن تطورت في الكم والنوع، وأصبحت في بعض أصنافها مضرب المثل بالجودة. كانت صناعتهم يدوية لا تضم عمالاً كثيرين بل تقتصر على سكان المنزل. وأهم صناعاتهم: الصناعات الحربية وخاصة صناعة قتب الجمال وتعرف أهميتها للحاجة الماسة إليها وتصنع من الخشب المستورد من بلاد السودان وتحشى بالقش والحلفا المقطوعة من الواحات وتوضع فوق سنام الجمال، وقد اشتهرت بهذه الصناعة مدينة نول ـ وقامت مقامها مدينة تندوف الحالية ـ إلى جانب صناعة القتب ازدهرت صناعة درق اللمط والمزاريق والآلات الحربية كالأطاس والخنجر. ويعود ازدهارها إلى الحروب المستمرة بين الملثمين وجيرانهم الوثنيين من السودان وغانة. وقد ذاع صيت درق اللمط حتى في الأندلس نفسها. وقد هدد المعتمد بها الفونس السادس بقوله:

---

(١) أهدى الأمير يوسف بن تاشفين إلى ابن عمه الأمير أبي بكر بن عمر ١٥٠ بغلاً وبغلة. ابن الخطيب الحلل ص ١٧ ـ ابن عذاري: البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦:

بالدرق اللمطية في أيدي الجيوش المرابطية. واهتموا بصناعة السروج ولجم الخيل. بالإضافة إلى الصناعة الحربية اهتموا بالصناعات الغذائية، فقد استخرجوا الزيت من ثمر الفرتي وذلك بعصر قشره، استعملوه في طهي الطعام وأنارة السرج ليلاً وكانوا يمزجونه بالرمل ويطلون به سطوح المنازل فيخفف من شدة الحر ويمنع تسرب الماء. وصنعوا السكر من القصب وقد اشتهرت مدينة تارودانت بذلك. وعرف الملثمون صناعة المنسوجات والألبسة من الصوف والقطن والوبر، كانوا يغزلونها باليد وينسجوْن منها ملابس خاصة في مدينة تارودانت. وقد صنعوا شراباً من جريش الذرة مع سائل من العسل واللبن يسمى عصيدة. كان الشراب المفضل عندهم يقدمونه للضيوف، وصنعوا شراباً آخر من الينسون والعسل يستعمل كدواء. وصنعوا أواني من القرع يضعون بها الأطعمة كانوا يقطعون ثمرة القرع إلى قسمين ويجففونها بالشمس ولا تزال هذه الطريقة مستعملة حتى الآن في الأرياف إذ يحول الفلاحون بعض ثمار القرع إلى أواني يضعون فيها الملح والبهارات.

ومن معادن بلاد الملثمين الملح ويكثر في أوليل وتغارى والأخيرة تضم معظم مناجمه وهي على شكل ألواح يقطعها العبيد وتحملها الجمال إلى بلاد السودان وغانة، وكان الحمل الواحد يباع في أيوالاتن بعشرة مثاقيل من الذهب أما في مالي فكان يباع بعشرين مثقالاً وربما ارتفع إلى ثلاثين. كان للملح أهمية في حياتهم الاقتصادية إذا كانوا يقطعونه قطعاً صغيرة يقايضون بها كالذهب والفضة، وكان الفائض من إنتاجهم الزراعي والصناعي يصدر إلى الخارج مما أوجد نشاطاً تجارياً، وكونت بلادهم الممر الوحيد بين الأندلس وأواسط أفريقية كانت تسلكه القوافل على ثلاث طرق، فالطريق الأول وهو الطريق الساحلي على المحيط الأطلسي ينطلق من أغادير مارا بنواكشوط حتى مصب نهر السنغال يقابله طريق داخلي غير بعيد عنه لجهة الشرق هو طريق تارودانت ـ أوليل. أما الطريق الثاني وهو الأوسط يمتد من أواسط المغرب إلى قلب الصحراء حيث بلدان مالي والنيجر يبدأ هذا الطريق من سجلماسة ويمر

بأزكي حتى أودغشت في بلاد النيجر. والطريق الثالث والأخير وهو طريق الصحراء، يمتد من السودان الغربي إلى أواسط الصحراء شرقاً ولا تخلو هذه الطرق من صعوبات طبيعية فتحرك الرمال يقضي على معالمها وتصبح القوافل العابرة لها في وضع سيء وربما أدى بها ذلك إلى الهلاك ومن هنا تولدت الحاجة إلى من يرشد هذه القوافل إلى الطريق الصحيح، فكان الكشاف الملثم يكتريه التجار بمبلغ من المال يتلاءم مع حجم القافلة قد يبلغ مئة مثقال من الذهب، كان يرافق القافلة ويسلك بها الطريق الأمين. ومن مهمته كذلك حمل الرسائل من التجار إلى أصدقائهم في المدن ليعلمهم بوصول القافلة التجارية، فيستعد هؤلاء لاستقبالهم ويوقدون النار ويقومون بتقديم الضيافات للتجار القادمين. وتتألف القافلة عادة من عشرين إلى ثلاثين جملاً وربما ارتفع العدد إلى أكثر من ذلك، وكان مسيرها بعد صلاة العصر وأثناء الليل وترتاح في النهار وعندما تصل إلى إحدى الواحات كانت تستريح مدة ثلاثة أيام ثم تتزود بالمياه وتتابع سيرها، وكان أفرادها يرتدون الطلاليس. كانت القوافل تحمل إلى ديار الملثمين مصنوعات الأندلس من الألبسة والمصنوعات الحديدية والنحاسية والأواني الزجاجية، ومن الشرق الأقصى وفدت موقرة بالقرنفل والبخور المسمى عندهم تاسرغنت، ومن بلاد السودان الذهب حتى أن هذه القوافل حملت إليهم الخبز. وكثير من التجار لم يحملوا معهم نقوداً بل حلت محلها قطع الملح والزجاج المحلى والقرنفل والمصطكى (البخور) فكانت العمليات التجارية تتم في بعض النواحي الصحراوية بالمقايضة. وكانت تقام أسواق للتبادل التجاري تتركز في بعض المدن منها أسواق أودغشت حيث كان يجتمع فيها خلق كثير فلا يكاد يسمع فيها المرء صاحبه لكثرة اللغط[1]، وكانت أسواق أغمات يوم الأحد يتمون فيها أهل البلد من كافة البضائع، وسوق أسيلا يوم الجمعة وتقام فيها ثلاث أسواق موسمية أحدها طيلة شهر رمضان والثانية يوم عيد الأضحى والثالثة يوم عاشوراء، فيردها التجار من

---

(١) أشباخ: الأندلس في عهد المرابطين ص ١٢٨.

كافة البلدان ولا سيما من الأندلس[1].

وأدى ازدهار التجارة في ديار الملثمين إلى خلق طبقة من الأثرياء تكدست لديهم الأموال نتيجة ممارسة الأعمال التجارية، وعلى رأس هذه الطبقة الأمراء، وقد استأثرت بالحكم وحافظت على مصالحها، وكانت مستعدة لمقاومة من يهددها بها أو يحاول انتزاعها منها، يساندها في ذلك الفقهاء الملحليون الذين ينالهم من ثرائها.

وقد امتلكت هذه الطبقة الأراضي الزراعية في الواحات وكذلك مناجم الملح وقطعان الماشية، أي جميع مصادر الثروة. وكانت تبني بيوتها بطريقة تدل على ترفعها عن سائر الناس منها ارتفاع الأبواب الخارجية. وإلى جانب هذه الطبقة الثرية، كانت طبقة الفقراء وعامة الناس الذين اشتغلوا برعي المواشي وبالعمل في الأراضي الزراعية، ويؤدون الضرائب للأمراء والأعيان، وقد برع أفرادها في عملية التكشيف بالنسبة للقوافل، كانت هذه الطبقة من الملثمين أكثر تأثراً بالأوضاع الاقتصادية، إذ تصيبها المجاعة في سنوات الجفاف، أما منازلها فكان أكثرها من أغصان الأشجار مغطاة بالجلود كالأكواخ.

وقد أدت الحروب مع الوثنيين إلى كثرة العبيد الذين استخدموا وسخروا للعمل في مناجم الملح، وقد ارتفع شأنهم فيما بعد فكانوا فرقة خاصة في الجيش المرابطي.

واشتهرت المرأة الملثمة بالجمال وهي سمراء اللون وبعض نساء الطبقة العليا كانت لهن منزلة رفيعة قد تفوق منزلة الرجل.

وسادت المجتمع الملثم عادات تتنافى مع الإسلام كالزواج بأربع حرائر وأكثر وعادات الزنا ومصادقة الرجل للمرأة المتزوجة بعلم زوجها وحضوره[2]

---

(١) المرجع السابق، ص ١٢٨.

(٢) رحلة ابن بطوطة: المرأة في وسط مسوفة ص ٦٦٢.

وهي عادات عانى منها الإمام ابن ياسين كثيراً حتى تمكن أخيراً من أن يضع حداً لها.

اعتنق الملثمون الإسلام بعد فتح الأندلس[1]، وكان دينهم قبل ذلك المجوسية [2] وكانت رئاستهم في تلك المرحلة في قبيلة لمتونة التي اتخذت النظام الملكي، وكان ملكهم أيام عبد الرحمن الداخل الأموي تيولوثان بن تيكلان اللمتوني[3]. وقد حارب هذا الملك القبائل الوثنية ونشر بينها الإسلام. وبعد وفاته عام ٢٢٢ هـ/ ٨٣٧ م خلفه حفيده الأثر الذي دام حكمه حتى وفاته عام ٢٨٧ هـ/ ٨٩٩ م. فخلفه ابنه تميم الذي قتل عام ٣٠٦ هـ/ ٩٢٠ م على يد مشايخ صنهاجة.

وافترقت كلمة الملثمين مدة مئة وعشرين عاماً إلى أن قام بالأمر الأمير محمد بن تيفاوت اللمتوني[4] الذي وحدهم. وقد استشهد هذا الأمير بعد ثلاث سنوات من حكمه على يد الوثنيين، فقام بالأمر بعده صهره الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي[5].

كان الأمير يحيى بن إبراهيم رجلاً مستنيراً، خرج من ديار الملثمين

---

(١) ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ١٨١ و ١١٠ وقد جاء في الصفحة ١١٠ ما يلي «ولم يستقر إسلامهم حتى أجاز طارق وموسى بن نصير إلى الأندلس بعد أن دوخ المغرب وأجازا معهما كثيراً من رجالات البربر وأمرهم برسم الجهاد فحينئذٍ استقر الإسلام بالمغرب وأذعن البربر لحكمه ورسخت فيهم كلمة الإسلام وتناسوا الردة». دائرة معارف القرن العشرين: مادة لثم ص ٣١٩.

(٢) ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ١٨١. السلاوي: الاستقصا ج ١ ص ٩٩. دوزي: نخب ص ٢٨.

(٣) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ٧٦ «تيولوثان أيام عبد الرحمن القائم بالأندلس ودامت أيامه وطال عمره نحواً من ثمانين سنة إلى أن توفي سنة ٢٢٢ هـ».

(٤) دائرة معارف القرن العشرين: مادة لثم ص ٣١٩ ـ ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ٧٦.

(٥) السلاوي: الاستقصا ج ١ ص ٩٩ ـ ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ٧٦ ـ البكري: المغرب ص ١٦٤.

لإداء فريضة الحج تاركاً الحكم لابنه ابراهيم عام ٤٢٧ هـ/ ١٠٣٥ م(١). وكانت العادة أن يقترن الحج بطلب العلم، وبعد إداء الفريضة، انطلق الأمير يحيى يبحث عن المعرفة ويرتاد مدارس المغرب الفقهية طلباً للعلم لإرواء روحه الظمأى إلى نور المعرفة الدينية.

كان الأمير يحيى إنموذجاً طيباً من نماذج كثيرة تتبلور في حكام المسلمين القدماء فقد يمم وجهه شطر القيروان وارتاد مجلس الفقيه أبي عمران الفاسي(٢). وكم تبين له جهله في أمور دينه، وكان جوابه على سوال الشيخ أبي عمران عن عدم معرفته أمور الدين أنهم قوم منقطعون في الصحراء لا يصل إلى بلادهم إلا التجار الذين حرفتهم البيع والشراء(٣). وأظهر للشيخ الرغبة في العلم وسأله أن يرسل معه فقيهاً يعود به إلى قومه الملثمين مبشراً ونذيراً يخرجهم من الظلمات إلى النور(٤). تبين للشيخ أبي عمران أن الأمير يحيى حريص على التعلم سليم النيّة صحيح العقيدة، فوعده خيراً. وكان رأيه أنه لا بدّ لتحقيق هذه المهمة من فقيه صحراوي يعرف بيئة الملثمين وعاداتهم وتقاليدهم معرفة تامة، ويلم بلسانهم حتى يستطيع تأدية واجبه وهداية أولئك القوم إلى سواء السبيل(٥).

---

(١) السلاوي: الاستقصا ج ١ ص ٩٩.

(٢) أبو عمران الفاسي من بني غفجوم. ولد في مدينة فاس فنسب إليها، ثم رحل إلى القيروان ودرس علي أبي الحسن القابسي، وقصد بغداد حيث حضر مجلس الفقيه أبي بكر بن الطيب، ثم رجع إلى القيروان وبقي فيها إلى أن وافته المنيّة عام ٤٣٠ هـ ١٠٣٨ م. كان مالكي الذهب. أعمال الأعلام تحقيق د. عبادي ص ٢٢٦. وقد ورد في مجلة البينة العدد ٣ سنة ١٩٦٢ أنه أول من فكر في تأسيس دولة المرابطين.

(٣) ابن الخطيب: الحلل ص ٨.

(٤) ابن الخطيب: الحلل ص ٩ ـ ابن عذاري: البيان المغرب ج ٤ ص ٧.

Hamet His. du Maghreb p. 79

(٥) يشير بعض المؤرخين أن تلامذة الشيخ أبي عمران امتنعوا عن مرافقة الأمير يحيى بن إبراهيم إلى الصحراء، فذكر السلاوي في الاستقصا ج ١ ص ٩٩: «وندب الشيخ أبو عمران تلامذته إلى ذلك فاستصعبوا دخول الصحراء». وقد جاء عند ابن الخطيب في الحلل ص ٩: «فعرض =

خاطب الشيخ أبو عمران[1] أحد أصحابه بمدينة نفيس من أعمال السوس يدعى وجاج بن زلوا اللمطي الصنهاجي[2] وطلب منه مساعدة الأمير يحيى بن إبراهيم ورغب منه ابتغاء الحسبة والمثوبة، فانتدب الشيخ وجاج رجلاً فاضلاً من تلاميذه يدعى عبد الله بن ياسين الجزولي[3].

عبد الله بن ياسين

ولد عبد الله بن ياسين بن مكوك بن سير بن علي الجزولي في قرية تماماناوت في طرف صحراء غانة[4] وأمه تدعى تينايزامارن من بني جزولة[5].

درس على فقيه السوس وجاج بن زلوا، ثم رحل إلى الأندلس في عهد

= الفقيه الأمر على الطلبة فلم يوافقه أحد لبعد المشقة والانقطاع في الصحراء». وكذلك ابن أبي زرع في روض القرطاس ص ٧٧.

(١) نص كتاب الشيخ أبي عمران إلى وجاج بن زلوا اللمطي: «أما بعد إذا وصلك حامل كتابي هذا وهو يحيى بن إبراهيم الجدالي فأبعث معه من طلبتك من تثق بعلمه ودينه وورعه وحسن سياسته ليقرئهم القرآن ويعلمهم شرائع الإسلام ويفقههم في دين الله ولك وله الثواب والأجر العظيم والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً».
ابن.أبي زرع / روض القرطاس ص ٧٨ ـ السلاوي: الاستقصا ج ١ ص ٩٩.
Histoire du maghreb p. 79.

(٢) وجاج بن زلوا اللمطي (ويسميه ابن خلدون بمحمد وكاك ـ ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ١٨٢) من أهل السوس الأقصى رحل إلى القيروان وأخذ العلم عن الشيخ أبي عمران الفاسي، وعاد إلى السوس حيث بنى داراً في مدينة نفيس للعلم ودراسة القرآن (سماها دار المرابطين كما جاء في الاستقصا: الاستقصا ج ١ ص ٩٩ ابن عذاري: البيان المغرب ج ٤ ص ٨ ـ البكري: المغرب ص ١٦٥.
Hist. du maghreb p. 79 — ency uni. t i 782

(٣) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ٧٨ و ٧٩ ـ ابن الخطيب: الحلل ص ١٠ ـ ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ١٨٢ و١٨٣ ـ السلاوي: الاستقصا ج ١ ص ١٠٠ ـ ابن الخطيب: أعمال الأعلام تحقيق د. عبادي ص ٢٢٧ ـ أشباح الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ص ٦٣ ـ دوزى: نخب تاريخيه ص ٢٨ ـ بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٣١٨ ـ دائرة معارف القرن العشرين: مادة لثم ص ٣١٩.

(٤) البكري: المغرب ص ١٦٥. ولم تذكر كتب التاريخ تاريخ ولادته.

(٥) البكري: المغرب ص ١٦٥.

ملوك الطوائف وأقام بها سبع سنوات[1] وحصل علماً كثيراً، دخل المغرب الأقصى مع الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي عام ٤٣٠ هـ/ ١٠٣٨ م إلى ديار جدالة[2] فسر به أهلها وسموه إمام الحق وأخذ يعلمهم، كان تعليمه باللغة العربية لطلبة العلم، والإرشاد الديني للعامة بلهجة أهل الصحراء.

كان شهماًقوي النفس حاذقاً ذا رأي وتدبير حسن، ذكياً نبيلاً من أهل الفضل والدين والورع، جريئاً أديباً تقياً وتقواه لا تخلو من سياسة، شخصيته مهيبة[3].

لاقى عبد الله بن ياسين كثيراً من الصعوبات، فقد وجد أكثر الملثمين لا يصلون وليس عندهم من الإسلام إلا الشهادتين، وقد غلب عليهم الجهل[4]، كانوا يعملون ببعض العادات السيئة التي ورثوها من آبائهم وقد حرمها الإسلام، فقد وجد رجالهم يتزوجون بأكثر من أربع حرائر وبعضهم يرتكب أفعال الزنا... راح ابن ياسين يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويطبق علمه على أعماله وأعمال الناس، فتعلق به الفقراء وعامة الناس، وبذلك أضحى يشكل خطراً حقيقياً على الأمراء والأشراف، فثقلت عليهم وطأته. فكان لا بدّ من إخراجه من بينهم حفاظاً على امتيازاتهم. وانتهت التجربة الإصلاحية بمؤامرة كادت تودي بحياة ابن ياسين مؤآمرة مدعومة من الأمراء والأعيان تزعمها فقيه محلي دعى الجوهر بن سكن يؤازره اثنان من الأعيان هما أيار وإينتكوا[5] فعزلوه وهدموا داره[6].

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ج ٤ ص ١٠ - ابن الخطيب: الحلل ص ٩.
(٢) السلاوي: الاستقصا ج ١ ص ١٠٠.
(٣) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ٧٨.
(٤) البكري: المغرب ص ١٦٥ ويسمي الجوهر بن سكم بالميم - ولا بدّ من الإشارة إلى أن هذه المؤآمرة تمت في حياة الأمير يحيى بن إبراهيم، ذكر ذلك البكري وكذلك السلاوي في الاستقصا ج ١ ص ٩٩ وابن الخطيب في أعمال الأعلام تحقيق د. عبادي ص ٢٢٧. بينما يذكر ابن خلدون وابن عذاري رأياً مغايراً فيذكر أن المؤامرة تمت بعد وفاة الأمير يحيى. ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ١٨٢ - ابن عذاري البيان المغرب ج ٤ ص ٨.
(٥) ابن عذاري: البيان المغرب ج ٤ ص ١٠ - ابن الخطيب: الحلل ص ٩.

أصيبت الحركة الإصلاحية بنكسة وفكر ابن ياسين بالعودة من حيث أتى[1]، فثناه الأمير يحيى عن عزمه قائلاً: «إنما أحضرتك لتعلمني، وليس علي أن أجبر الناس على ترك ما هم فيه»[2]. واقترح عليه الذهاب معه للمرابطة في جزيرة في حوض نهر السنغال، وقال له: «ولكن يا سيدي هل لك في رأي أشير به عليك إن كنت تريد الآخرة؟ قال: ما هو؟ قال: إن ها هنا في بلدنا جزيرة في البحر إذا حسر دخلنا إليها على أقدامنا وإذا ملا دخلنا في الزوارق، وفيها الحلال المحض الذي لا تشك فيه من الشجر البرية وصيد البر والبحر من أصناف الطير والوحش والحوت، فندخل إليها، فنعيش فيها بالحلال ونعبد الله حتى نموت. فقال له ابن ياسين: هذا حسن، هلم بنا ندخلها على اسم الله»[3] وهكذا غادر ابن ياسين ديار الملثمين مع الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي إلى حوض نهر السنغال للمرابطة في الجزيرة التي اختارها الأمير يحيى، وهناك أسس فيها رباطاً للعبادة ولمعالجة الأوضاع الناجمة عن مؤامرة أعيان الملثمين.

وقبل الحديث عن رباط ابن ياسين الجديد لا بدّ من تعريف عام للرباط وتاريخ المرابطة في المغرب قبل ابن ياسين وعن مهمات هذه الربط وما أدت من خدمات للإسلام وللمسلمين.

الرباط[4]

الرباط حصن حربي يقام في الثغور المواجهة للعدو للذود عنها، ولعل هذه التسمية مقتبسة من القرآن الكريم: «واعدوا لهم ما استطعتم من قوة

---

(١) يذكر البكري ان عبد الله بن ياسين عاد إلى وجاج بن زلوا الذي طلب منه العودة ثانية إلى ديار الملثمين لتأدية مهمته. البكري: المغرب ص ١٦٦.

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ٧٨ ـ السلاوي: الاستقصا ج ١ ص ١٠٠ ـ دائرة معارف القرن العشرين: مادة لثم ص ٣١٩.

(٣) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ٧٩.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية: مادة رباط ص ١٩.

ومن رباط الخيل»[1] ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطو واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾[2]. ويحتوي الرباط على برج مراقبة وحصن صغير. وقد أقام ولاة الثغور كثيراً من هذه الربط لحماية حدود الدولة الإسلامية، فكان في بلاد ما وراء النهر عشرة آلاف رباط[3] وكذلك في ثغور الجزيرة الفراتية. وكانت سواحل المغرب المطلة على البحر المتوسط عرضة لغارات البيزنطيين أكثر من غيرها فأقيمت فيها الربط وشحنت بالمجاهدين للدفاع عنها، حتى إن القائد عقبة بن نافع الفهري[4] عندما أراد بناء مدينة القيروان بلغت الحماسة برجاله فاقترحوا عليه إقامتها على الساحل للمرابطة فيها، وقالوا له: «قربها من البحر ليكون أهلها مرابطين»[5].

وقد توسعت الربط في عهد العباسيين، وبنى الوالي العباسي هرثمة بن أعين أول رباط في أفريقية عام ١٧٩ هـ/٧٩٥ م[6] وبلغ التوسع ذروته في عهد الأغالبة، وأقام الوالي زيادة الله الأغلبي رباط سوسة عام ٢٠٦ هـ/٨٢٢ م وكان الأغالبة يسمون هذه الربط بالقصور والمحاريس وقد انتشرت من الاسكندرية إلى المحيط الأطلسي[7]. وكان السكان يلجأون إليها إذا دهمهم الغزاة، وقد صمدت هذه الربط أمام أساطيل البيزنطيين الذين عجزوا ـ رغم تفوقهم البحري ـ عن احتلال الساحل الأفريقي، وقد التزم المقيمون في هذه الربط بالتدريب على الفروسية خاصة بالإضافة إلى كافة التدريبات العسكرية الأخرى التي تؤهلهم للقيام بمهماتهم على أكمل وجه من الذود عن حياض المسلمين والجهاد في سبيل الله.

---

(١) القرآن الكريم: سورة الأنفال: الآية ٦٢.

(٢) القرآن الكريم: سورة آل عمران: الآية ١٩٩.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية: مادة رباط ص ١٩.

(٤) عقبة بن نافع الفهري أحد قادة الفتح العربي في المغرب وباني مدينة القيروان استشهد عام ٦٢ هـ/٦٨١ م.

(٥) المالكي: رياض النفوس ص ٦.

(٦) دائرة المعارف الإسلامية: مادة رباط ص ١٩ و ٢٠.

(٧) دائرة المعارف الإسلامية: مادة رباط ص ٢٠.

وإلى جانب المهمة العسكرية، فقد اهتمت الربط بالناحية العلمية، فمع انتشارها أخذت الثقافة العربية تنتشر مع انتشار الإسلام، وقد شهد المغرب التيارات الفكرية والمذهبية التي عصفت بالمشرق، مما دفع بالمقيمين في تلك الربط إلى التفقه في الدين لمواجهة تلك التيارات، خاصة وقد شرع فقهاء المالكية يثبتون أقدامهم في أفريقيا[1]، وغدت الربط مدارس علمية تدرس الفقه والحديث.

أما حياة الجماعة الإسلامية في الربط فكانت تقوم على أساس التعاون بين أفرادها لتحقيق حياة إسلامية مثالية، كان الأفراد يجمعون المؤن بأنفسهم عن طريق الصيد البري والبحري حسب موقع الرباط، وكذلك كانوا يقومون بإعداد الطعام وكل ما تتطلبه عمليات التموين من زراعة وصناعة آلاتها بالإضافة إلى صناعة الأسلحة.

أما من ناحية العبادة، فالجماعة التي التزمت بالرباط مؤمنة بربها وبرسالة الإسلام فكانت العبادة تقتصر على الصلوات الخمس جماعة، وقد وضعت عقوبات لمن يتأخر عنها.

وفي أوقات السلم كانوا يحفظون القرآن وتفسيره وكل ما يمت إلى الدين بصلة للقيام بالمهمات التي تلي حياة الرباط، إذ أن التبشير كان من أهم

---

(١) حمل مذهب الإمام مالك بن أنس إلى المغرب أكثر من ثلاثين رحلاً من أتباعه. ولكن لم تكن لهم الفتية حتى جاء أسد بن فرات حوالي ١٤٦ هـ/٧٦٤ م، وقد أسند إليه زيادة الله الأغلبي قضاء أفريقية، ورحل إلى المشرق ولقي مالك.
المالكي: رياض النفوس ص ١٧٢ وما بعدها.
ثم قدم إلى القيروان عام ١٩١ هـ/٨٠٧ م سحنون بن سعيد صاحب المدونة، واستطاعت المالكية أن تصيب مذهب أبي حنيفة بالصميم: «لا تمر الليالي والأيام حتى تنمحي كتب أبي حنيفة من أفريقية محاها الله بسحنون. المالكي: رياض النفوس ص ١٦٥.
وقد صمدت المالكية أمام اضطهاد الشيعة الفاطميين وحققت انتصارها في المغرب في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي بعد كفاح مرير تعمد بالشهادة وحفظت وحدة المغرب العربي ومهدت لقيام دولة المرابطين.

واجباتهم، فكانوا يخرجون إلى القبائل لهديها وترغيبها في مذهبهم فكانوا يجمعون الزكاة من الراغبين في إدائها باعتبارهم أحق الناس بها.

وقد أدت الربط خدمات جلى للإسلام وللمسلمين فقد عصمت أهل المغرب إلى حد كبير من الفتن التي سادت المشرق، وكانت مثالاً للزهد والتقشف والتفاني في سبيل الله، تعمل على نشر الإسلام، لا يبتغي أهلها من وراء ذلك جزاءً ولا شكوراً.

رباط عبد الله بن ياسين

أقام الإمام ابن ياسين رباطه في الحوض الأدنى لنهر السنغال[1]، وموقعه يدل على المهمة التي أعد لها، فهو يقع بالقرب من مملكة غانة الوثنية، لذلك فهو مهدد دائماً بالأعداء، ولا بدّ للجماعة المقيمة فيه من الجهاد. وهو غير بعيد عن ديار الملثمين، فيستند إليهم في حالات الخطر، وتشكل تلك الديار مورداً بشرياً لا ينضب لمن يريد الانضمام إليه، وهذا يفسر تكاثر عدد رجاله.

بدأت المرابطة في الجزيرة عام ٤٣٣ هـ/ ١٠٤٠ م بسبعة أشخاص[2] منهم الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي ويحيى بن عمر اللمتوني سماهم الإمام ابن ياسين المرابطين[3]، أقاموا في رباطهم ثلاثة أشهر دون أن ينضم إليهم أحد. وبعد ذلك بدأ الانضمام إلى تلك الجماعة المرابطة وتكاثر العدد حتى

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية: مادة سنغال ـ دوزي: نخب تاريخية ص ٢٨ ـ

Hamet hist. du maghreb p. 79.

وذكر ابن خلدون أن موضع الرباط كان في نهر النيل «وهذا خطأ شائع عن الاعتقاد بأن نهر النيل ينبع من تلك الديار» ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ١٨٣.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية مادة رباط ـ السلاوي: الاستقصا ج ١ ص ١٠٠ ـ يذكر ابن أبي زرع في روض القرطاس أن السبعة كانوا من جدالة. ص ٧٩.

Hist. du maghreb p. 79.

(٣) السلاوي: الاستقصا ج ١ ص ١٠٠.

بلغ الألف[1]. ولكثرة المريدين، وضع ابن ياسين شروطاً يجب أن تتوفر في كل جديد كي لا تفسد الرابطة الناشئة بالمخربين، فكان ينتقي أطهر الملثمين نفساً وأوفرهم قوة وأقدرهم على تحمل المشاق، كان يفرض على المريدين الجدد إنكار ما كانوا عليه من قبل وأن يدخلوا الإسلام من جديد، وربما يعود ذلك إلى فشل تجربته معهم، أقام عليهم الحدود[2] ليطهرهم من الذنوب[3]، اقتص منهم وفقاً لأحكام الشريعة الإسلامية، وفرض عليهم قضاء ما فاتهم من صلاة. وقد رفع العلماء إلى مراتب عالية وجمع الزكاة والعشور والحقوق وخمس الغنائم.

يبدو أن فشل تجربته السلمية السابقة قد دفعه إلى اتخاذ هذه الإجراءات الرادعة ليحول دون انضمام المفسدين، فكان يطرد من يفشل في التجربة، ويبقي من يجتازها بنجاح ثم يجمع الفائزين ويتولى تثقيفهم، يعلمهم قراءة القرآن وتفسيره والحديث وأحكام الدين[4].

كان المرابطون يعيشون حياة مثالية في رباطهم، يتعاونون للحصول على قوتهم اليومي معتمدين على ما توفر لهم جزيرتهم من الصيد البحري، يقنعون بالقليل من الطعام، ويرتدون الخشن من الثياب[5].

كان رباط السنغال منارة شع نورها في ظلمة الصحراء[6]، وهذا ما شجع أبناء القبائل على الانضمام إليه، وقد وفر كذلك الأمن والاستقرار في

---

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ٧٩ وقد ورد: اجتمع عليه (أي على ابن ياسين) من تلاميذه نحو ألف رجل من أشراف صنهاجة فسماهم المرابطين للزوم رابطته.

(٢) الحدود هي حد الزنا مئة جلدة والمفتري ثمانون وحد الشارب وغيرها.

(٣) «كان الإمام ابن ياسين يقول للمريد الجديد: «قد أذنبت ذنوباً كثيرة في شبابك فيجب أن تقام عليك حدودها» البكري: المغرب ص ١٧٠ ـ البيان المغرب ج ٤ ص ١٦.

(٤) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ٧٩ ـ البكري: المغرب ص ١٦٥.

(٥) روض القرطاس ص ٧٩.

(٦) المالكي: رياض النفوس ص ١٧٢.

تلك الديار الصحراوية النائية فأصبح بإمكان القوافل عبور تلك الطريق بأمن وسلام دون أن يتعرض لها أحد بسوء، وقد أدى ذلك إلى ازدهار التجارة.

كان الإمام ابن ياسين هو الموجه والمرشد في الرباط ولكنه كان يختار لإدارته أحد الأمراء، وفي الأمور المهمة، كان الأمر شورى بين الجماعة الإسلامية المرابطة[1]، فكانت تجتمع وتبدي رأيها، مثال ذلك المجلس الذي عقده الإمام ابن ياسين لاختيار خلف للأمير المتوفي يحيى بن إبراهيم الجدالي.

وبقي رباط السنغال إلى اليوم أسطورة شعبية يرددها السنغاليون ويتغنون بها، ولا شك إنها تعود إلى رباط ابن ياسين إذ لا تذكر كتب التاريخ رباطاً غيره في بلادهم[2]

مذهب ابن ياسين

أنشأ ابن ياسين مذهباً خاصاً استند في أحكامه إلى الشريعة الإسلامية مروية عن الإمام مالك بن أنس، وأهم أسسه الجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتزام أحكام الدين في جميع الأمور وإقامة الحدود وجباية الأموال.

وقد احتل الجهاد في المغرب الإسلامي مكانة رفيعة بسبب تعرضه لغارات الفرنجة وغزواتهم لذلك كان المسلمون يرحلون إلى الأندلس للمرابطة في الثغور لدفع الأعداء[3].

وقد شرع الإسلام أحكام الجهاد، وأولها إنه فرض كفاية على كل

---

(١) القرآن الكريم: سورة آل عمران الآية ١٥٣: ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر.. ﴾ سورة الشورى: الآية ٣٦: ﴿ والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون ﴾.

(٢) تبلغ نسبة المسلمين الآن في بلاد السنغال حوالي ٨٥٪ من مجموع السكان.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية: مادة جهاد.

مسلم بالغ صحيح العقل والجسم توافرت له أسباب بلوغ الجيش الإسلامي، ويجب أن يستمر الجهاد إلى أن يدخل الناس كافة في حكم الإسلام.

وقد فرض ابن ياسين الجهاد على أنصاره من المرابطين وحضهم على الالتزام به[1] وتجاوز أحكام الجهاد التي تقول بأن شرط الجهاد يتحقق إذا قام الإمام بغزوة مرة كل عام فأبقى أتباعه في حالة استنفار دائم استعداداً لفرض الإسلام الصحيح.

أما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد حض عليه القرآن الكريم: ﴿ ولتكن منكم أمه يدعون إلى الخير يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾[2]. وأمر به النبي (ﷺ) في الحديث الشريف: «من رأى منكم منكراً فليقومه بيده إن استطاع، فبلسانه إن لم يستطع، فبقلبه وهذا أضعف الإيمان».

وقد استلهم فقهاء المالكية في المغرب آراء الإمام مالك في هذا الأمر، فأمروا الناس بالمعروف ونهوهم عن المنكر وحملوا على أصحاب البدع والمفاسد والعقائد الضالة، وأعلنوها حرباً لا هوادة فيها عليهم[3] ولكن بطريقة سلمية.

وقد سار الإمام ابن ياسين على خطى أسلافه، فكان يأمر الملثمين بالمعروف وينهاهم عن المنكر بقلبه ولسانه وحذرهم وأنذرهم[4]. ولما لم يجد

---

(١) خاطب ابن ياسين المرابطين قائلاً: «وجب عليكم أن تجاهدوا في سبيل الله حق جهاده وأن تقاتلوا هؤلاء القوم الذين خالفوا الحق وانكروا دين الإسلام». ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ٧٩.

(٢) القرآن الكريم: سورة آل عمران الآية ١٠٣ ـ وقد أمر ابن ياسين أتباعه قائلاً: ﴿ قد أصلحكم الله تعالى فوجب عليكم أن تأمروا بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾. روض القرطاس ص ٧٩.

(٣) المالكي: رياض النفوس ص ٢٧٦.

(٤) خاطب الإمام ابن ياسين أنصاره قائلاً: أخرجوا على بركة الله تعالى وأنذروا قومكم وخوفوهم عقاب الله وأبلغوهم حجته، فإن تابوا وأنابوا ورجعوا إلى الحق وأقلعوا مما هم عليه فخلوا سبيلهم. وخرج إليهم (أي إلى الملثمين) عبد الله بن ياسين، فجمع أشياخ القبائل ورؤساءهم =

ذلك نفعاً عمد إلى امتشاق الحسام وجند شعباً بأسره لتحقيق هذا المبدأ المهم بالقوة متجاوزاً في عمله هذا رأي إمامه مالك.

وفيما يختص بإقامة الحدود الشرعية، فقد طبق أحكام الدين، وأقام هذه الحدود على كل مريد جديد فتطهر نفسه ويشعر وكأنه دخل الإسلام من جديد.

وبالنسبة للتنظيم المالي، فقد كان سكان المغرب الإسلامي ينؤون بالضرائب الفادحة التي فرضها عليهم حكامهم الجائرون، بل تمادى هؤلاء الحكام في طغيانهم حتى أنهم جبوا الخراج عن الأراضي التي أسلم أهلها إلى غير ذلك من المغارم والمكوس وفرض المعونات[1]. فرفع ابن ياسين جميع هذه المظالم واكتفى بجباية الأموال التي نص عليها القرآن الكريم[2]، فتنفس السكان الصعداء بعد أن انزاح عن صدرهم كابوس ثقيل.

كان لهذه الإصلاحات أثرها في تاريخ المرابطين، فأخذ سكان المغرب يتطلعون إلى هذه القوة الناشئة لإنقاذهم مما هم فيه من جور وعسف. وقد اكسبت هذه السياسة المالية الحكيمة المرابطين عطف الفقراء من الملثمين الذين أخذوا يستقبلونهم بالترحاب ويسارعون للانضمام إلى صفوفهم.

بعد أن كثر أنصار ابن ياسين واستكمل قوته أمرهم بالخروج لتحقيق أهدافه توحيد قبيلة صنهاجة، وبدأ عملياته العسكرية بثلاثة آلاف مرابط[3]، فهاجم قبيلة جدالة التي تآمرت عليه، وبعد قتال عنيف أذعنت للطاعة عام ٤٣٤ هـ/ /١٠٤٢م وأسلمت إسلاماً صحيحاً، ثم اتجه نحو قبيلة لمتونة

= وقرأ عليهم حجة الله تعالى ودعاهم إلى التوبة وخوفهم عقاب الله، فأقام ينذرهم سبعة أيام وهم في كل ذلك لا يلتفتون إلى قوله ولا يزدادون إلى فساداً. ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ٧٩

(١) روض القرطاس ص ٨٧ ـ ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ١٨٧.

(٢) الأموال التي نص القرآن عليها وأوجب تحصيلها: الخمس والزكاة والعشور والحقوق

(٣) روض القرطاس ص ٧٩.

فبايعته على الكتاب والسنّة، وتابع سيره نحو مسوفة وأخضعها.

وهكذا وحد الإمام ابن ياسين فروع قبيلة صنهاجة، واستكملت القوة الجديدة عصبيتها القبلية التي تقف إلى جانبها وتساندها.

في عام ٤٤٠ هـ/١٠٤٨ م توفي الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي، فاختار الإمام ابن ياسين ـ بعد مشاورة المرابطين ـ الأمير يحيى بن عمر اللمتوني ٤٤٠ ـ ٤٤٧ هـ/١٠٤٨ ـ ١٠٥٦ م، وقد أدى الاختيار إلى تمرد قبيلة جدالة لخروج الإمارة منها فجرد ابن ياسين جيشاً ضد المتمردين وردهم إلى الطاعة[1].

كان الأمير يحيى بن عمر مطيعاً إطاعة عمياء لإمامه[2]، فقد أقام عليه ابن ياسين الحد فتقبل ذلك بكل سرور. وقد استشهد الأمير يحيى بن عمر عام ٤٤٧ هـ/١٠٥٦ م في قتال ضد قبيلة برغواطة، فقدّم الإمام ابن ياسين مكانه أخاه الأمير أبي بكر بن عمر اللمتوني ٤٤٨ ـ ٤٥٣ هـ ـ ١٠٥٦ ـ ١٠٦١ م وأمره بمتابعة الفتح باتجاه الشمال، فغزا بلاد المصامدة والسوس وهاجم منطقة الواحات الواقعة في جنوب بلاد المغرب عام ٤٤٨ هـ ـ ١٠٥٦ م وجعل على مقدمة جيشه ابن عمه يوسف بن تاشفين اللمتوني[3] وهي المرة الأولى التي يرد فيها ذكر عاهل المغرب وزعيم العالم الإسلامي الغربي.

---

(١) البكري: المغرب ص ١٦٧.

(٢) من حسن طاعة الأمير يحيى بن عمر اللمتوني للإمام ابن ياسين أنه خاطبه يوماً: «وجب عليك (أي على الأمير يحيى) أدب. قال فيما ذا يا سيدي؟ قال له لا أعرفك به حتى آخذه منك، فكشف عن بطنه ـ وقيل بشرته ـ فضربه عشرين سوطاً ثم قال له: إنما ضربتك لأنك باشرت القتال وأمضيت الحرب بنفسك وذلك خطأ منك فإن الأمير لا يقاتل وإنما يقف يحرض الناس ويقوي نفوسهم فإن حياة الأمير حياة عسكره وموته فناء جيشه. روض القرطاس ص ٧٩ و ٨٠.

(٣) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ٨٣ ـ السلاوي: الاستقصا ج ١ ص ١٠٢ ـ دائرة معارف القرن العشرين مادة لثم ص ٣٢١ ـ بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٣١٨.
Ency. uni. t. ip. T1 - p 782.

الفصل الأوّل

يوسف بن تاشفين أمير المغرب

نشأته ـ صفاته ـ علومه ـ حياته الاجتماعية ـ قيادته للجيش المرابطي استشهاد الإمام ابن ياسين وأثره عليه ـ نيابته على المغرب ـ تنازل الأمير أبي بكر عن الإمارة في المغرب ـ فتح فاس ـ طنجة ـ الشرق ـ سبتة.

يوسف بن تاشفين ٤٠٠ ـ ٥٠٠ هـ/ ١٠٠٩ ـ ١١٠٦ م[1]

يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن تورفيت بن وارتقطين بن منصور بن مصالة بن أمية بن واتلمي بن تامليت الحميري من قبيلة لمتونة الصنهاجية وامه بنت عم أبيه فاطمة بنت سير بن يحيى بن وجاج بن وارتقطين. كانت قبيلته تسكن المنطقة الممتدة من وادي نون إلى رأس موغادور إلى مدينة ازكي شرقاً، وكانت المناطق الشمالية مقراً لبني وارتنطق حول المدينة المذكورة فلا بد أن يكون يوسف قد ولد في تلك المنطقة. وقد عرفت قبيلته بالسيادة وبسطت سيطرتها على صنهاجة، واستطاعت الاحتفاظ بالرئاسة منذ أن جعلها فيها الإمام ابن ياسين بعد وفاة الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي، لذلك فإن المنزلة الاجتماعية التي ترعرع في ظلها هذا الأمير بدت مظاهرها واضحة في سلوكه وعلى حد قول أشباخ خلق للزعامة[2].

ملك لـه شرف العـلى من حمير   وإن اتهموا صنهاجة فهـم هم[3]

كان يوسف أسمر اللون نقيه معتـدل القامـة نحيف الجسم خفيف

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ج ٤ ص ٤٦ ـ الحلل ص ١٣ ـ روض القرطاس ص ٨٧ ـ نخب تاريخيه ص ٣٠ جذوة الاقتباس جـ ٢ ص ٥٤٥.

(٢) الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ص ٦٥.

(٣) وفيات الأعيان ج ٧ ص ١٣٠ ـ نخب تاريخيه ص ٣١ والبيت للكاتب أبي محمد بن حامد ـ جذوة الاقتباس جـ ٢ ص ٥٤٥.

العارضين رقيق الصوت أكحل العينين أقنا الأنف، له وفرة تبلغ شحمة الأذن، مقرون الحاجبين أجعد الشعر[1].

كان يجمع بين جمال الطلعة وجمال الجسم وبين أبدع المواهب. كان بطلاً شجاعاً نجداً حاذقاً جواداً كريماً زاهداً في زينة الدنيا عادلاً متورعاً متقشفاً ـ لباسه الصوف وطعامه خبز الشعير ولحوم الإبل وألبانها[2]، يأكل من عمل يده عزيز النفس كثير الخوف من الله[3].

كانت تسكن جسده نفس معتدلة وعاطفة وقادة وفكر نافذ، ثم واتته الأحداث فشحذت مواهبه، واحتك بمستويات حضارية تتراوح بين أهل الصحراء وأهل الأندلس، فكان له تقييم صادق لكل منهما، وخاض حروباً لا عهد له ببعضها فبرهن عن حسن تفهم وابتكار، وكانت شهامته وشغفه بالحرب يصبغان عليه خلال الفروسية، واحتقاره لمظاهر الترف تكسبه محبة شعبه وتقوي في نفوسهم عواطف التوقير والشرف[4]. كان حليماً يحب الصفح عن الذنوب مهما كبرت ما عدا الذين يرتكبون الخيانة بحق الدين فلا مجال للعفو عنهم.

يوسف بن تاشفين رجل صحراوي يتصف بعادات الحصراء وتقاليدها، ذو تفكير أصيل يمثل رجولة لا تزال في تقاليدها قائمة في بعض أجيالنا الأصيلة المحافظة.

تلقى يوسف العلوم في طفولته من أفواه المحدثين والوعاظ، إذ أن المدارس كانت نادرة في الصحراء، ولم يتعمق في العلوم الدينية، لأن المسائل

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ٨٧ ـ جذوة الاقتباس جـ٢ ص ٥٤٥ ـ شذرات الذهب ص ٤١٢.
(٢) روض القرطاس ص ٨٧ ـ الحلل ص ٥٩ ـ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ص ٦٦ ـ جذوه الاقتباس جـ٢ ص ٥٤٥.
(٣) الحلل ص ٥٩ ـ الاستقصا ج ١ ص ١٢١.
(٤) روض القرطاس ص ٨٧.

المعقدة كانت من مهام الفقهاء. ففي بلد صحراوي حيث الحياة صعبة لم يكن أفناء السنين في اكتساب القراءة والكتابة أمراً ذا بال ولو تم ذلك ـ وهذا نادر جداً ـ لما كان له مجال واسع في الحياة اليومية، وقد تلقى ثقافة شعبية زاولها حتى أضحت لديه أثراً عادياً عمل على تنقيتها بما كان يسمع من العلماء والفقهاء، ومن البديهي أن يكون يوسف قد نال نصيباً من ثورة ابن ياسين الثقافية ويمكننا القول بأن يوسف قد عاش متعلماً سواء في قلب الصحراء في بداية حياته[1] وإبان دعوة ابن ياسين وكذلك وهو يخوض معارك الجهاد، لقد كان متعلماً في الحدود التي نجدها لدى الساسة ورجال الحرب في ذلك الوقت.

لم تؤثر قساوة الصحراء وخشونتها على إحساس يوسف فقد كان مرهف الشعور يتعشق الجمال أينما وجد ويختار نساءه من الجميلات، وأولى زوجاته زينب بنت إسحاق النفزاوية وهي من أسرة كانت تعمل بالتجارة، اقترن بها يوسف بن علي بن عبد الرحمن بن وطاس شيخ وريكة، وبعده تزوجها لقوط بن يوسف بن علي المغراوي أمير أغمات. وبعد مقتله تزوجها الأمير أبو بكر بن عمر وبقيت عنده ثلاثة أشهر[2]، ولما عزم على السفر إلى الصحراء طلقها وقال لها: أنت إمرأة جميلة بضة لا طاقة لك على حرارة الصحراء، وإني مطلقك فإذا انقضت مدتك فانكحي ابن عمي يوسف بن تاشفين[3]. وقد اقترن بها يوسف بعد تمام مدتها. كانت زينب بنت إسحاق مشهورة بالجمال والرئاسة[4] بارعة الحسن حازمة لبيبة ذات عقل رصين ورأي سديد ومعرفة بإدارة الأمور، فكانت القائمة بملك زوجها الأمير يوسف والمدبرة لأمره حتى

---

(١) لم تخل الصحراء من فقهاء محليين، فالفقيه الصحراوي الجوهر بن سكن قاد المؤامرة ضد الإمام ابن ياسين.»

(٢) روض القرطاس ص ٨٥ ـ الاستقصا ج ١ ص ١٠٣

(٣) روض القرطاس ص ٨٦ ـ العبر ج ٦ ص ١٨٣ الاستقصا ج ١ ص ١٠٥ ـ دائرة معارف القرن العشرين. مادة لثم ص ٣٢١ ـ البستاني. دائرة المعارف: مادة أبو يعقوب ص ٢٣٧ البيان المغرب ج ٤ ص ٢٢١.

(٤) الاستقصا ج ١ ص ١٠٣ ـ العبر ج ٦ ص ١٨٣.

وفاتها عام ٤٦٤ هـ/١٠٧١ م[١] وبعد وفاة زينب تزوج الأمير يوسف من سيدة أندلسية تدعى قمر ولا تذكر كتب التاريخ عنها شيئاً. والظاهر أن سيرة زينب طغت على نساء يوسف، ويقال أنها أنجبت الأمير علي ولي العهد وأمير الأندلس والمغرب بعد والده.

واقترن يوسف بسيدة تدعى عائشة أنجبت الأمير محمد الذي نسب إليها فصار يدعى محمد بن عائشة.

ورزق يوسف عدداً من الأولاد بكرهم تميم الذي توفي غداة معركة الزلاقة وكان والياً على سبتة، وعلي خليفته من بعده، وإبراهيم، ومحمد الذي كان أحد القادة البارزين في جيش والده، ويشير ابن عذاري إلى ولادة ابن له من زينب النفزاوية سماه الفضل.

أما بناته فهما كونة ورقية ـ.

مرحلة قيادة الجيش المرابطي ٤٤٨ ـ ٤٥٢ هـ / ١٠٥٦ ـ ١٠٦٠ م

في هذه المرحلة لم يكن يوسف أميراً بل كان مجرد قائد عسكري يعمل تحت أمرة ابن عمه الأمير أبي بكر بن عمر، لم يكن يوسف يملك السلطة ـ بل ينفذ تعليمات غيره من الأمراء، ولكنها كانت مرحلة غنية بالتجارب شحذت ذهنه وأهلته للمرحلة التالية، فكأنها كانت ممارسة للسلطة والاطلاع على خفاياها دون تحمل المسؤولية، استطاع بعدها تسلم الإمارة والقيام بالأعباء الملقاة عليها بكل همة ونشاط دون تردد وقاد المرابطين إلى النصر في ميادين الكفاح.

تألق نجم يوسف في معركة الواحات ٤٤٨ هـ/١٠٥٦ م التي خاضها، فقد كان قائداً لمقدمة جيش المرابطين المهاجم، وبعد فتح مدينة سجلماسة[٢]

---

(١) روض القرطاس ص ٨٦ ـ العبر ج ٦ ص ١٨٤.

(٢) اختط مدينة سجلماسة يزيد بن الأسود من موالي العرب، وقبل مدرار بن عبد الله وكان من =

عينه الأمير أبو بكر والياً عليها فأظهر مهارة إدارية في تنظيمها. ثم غزا بلاد جزولة وفتح ماسة ثم سار ألى تارودنت قاعدة بلاد السوس وفتحها، وكان بها طائفة من الشيعة البجليين نسبة إلى مؤسسها علي بن عبد الله البجلي، وقتل المرابطون أولئك الشيعة وتحول من بقي منهم على قيد الحياة إلى السنّة.

ثم جاء دور اغمات[1]. كانت مدينة مزدهرة حضارياً إذ كانت إحدى مراكز النصرانية القديمة ومقراً للبربر المتهودين. كان يحكمها الأمير لقوط بن يوسف بن علي المغراوي.

تلقى يوسف التعليمات من الأمير أبي بكر بمهاجمتها. ولما رأى أميرها أن لا جدوى من المقاومة فر منها إلى تادلا والتجأ إلى بني يفرن. ودخل المرابطون المدينة ٤٤٩ هـ/١٠٥٧ م[2] ثم هاجم يوسف تادلا وفتحها وقتل من بها من بني يفرن وظفر بلقوط المغراوي وقتله. وقد تزوج الأمير أبو بكر بزوجته زينب بنت إسحاق. ثم سار المرابطون نحو مدينة تامسنا لجهاد برغواطة. وكانت هذه القبيلة تدين بمذهب ينافي تعاليم الإسلام، أسسه رجل يهودي يدعى صالح بن طريف البرناطي نسبة إلى حصن برناط من أعمال شذونة بالأندلس[3] كان أمير برغواطة أبا حفص بن عبد الله بن أبي غفير بن محمد بن معاذ بن اليسع بن صالح بن طريف[4]. نشبت المعارك بين الفريقين، أصيب خلالها الإمام ابن ياسين بجراح بالغة توفي على أثرها في

= أهل الحديث، القلقشندي: صبح الأعشى ج ٥ ص ١٦٣.

(١) البيان المغرب ج ٤ ص ١٥ ـ المغرب الكبير ص ٦٩٧ ـ تقويم البلدان لأبي الفدا تحت اسم أغمات ص ١٣٥.
أغمات مدينتان سهليتان أغمات إيلان وأغمات وريكة والأولى لا يسكنها غريب. المغرب ص ١٥٣.

(٢) الاستقصا ج ١ ص ١٠٣ ـ دائرة معارف القرن العشرين مادة لثم ص ٣٢١.

(٣) روض القرطاس ص ٨٣.

(٤) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس ـ دول الطوائف ص ٢٩٥.

٢٤ جمادي الأول ٤٥١ هـ/١٠٥٩ م ودفن في مكان يعرف بكريفلة على مقربة من تامسنا، وما زال مزاره قائماً حتى الآن[١].

اختار المرابطون لرئاستهم بعد استشهاد إمامهم ابن ياسين الأمير أبا بكر بن عمر اللمتوني[٢]، فكان أول عمل قام به بعد دفن الإمام متابعة الجهاد ضد برغواطة حتى عادت إلى الإسلام الصحيح[٣].

عاد الأمير أبو بكر إلى أغمات وأقام بها حتى صفر ٤٥٢ هـ/١٠٦٠ م ثم غادرها إلى بلاد فازاز ومكناسة وبعدها إلى مدينة لواتة التي خربها وكانت لبني يفرن وقتل بها خلقاً كثيراً في ربيع الثاني ٤٥٢ هـ/١٠٦٠ م ثم عاد إلى أغمات.

كان استشهاد الإمام عبد الله بن ياسين البداية الأولى في دفع يوسف إلى رئاسة الدولة الناشئة، إذ أن الإمام كان يمسك بالسلطتين الدينية والزمنية - مع وجود الأمير -. وبعد وفاته أخذت وضعية المرابطين تستلزم حلاً لمشكلة ازدواج السلطة، فمع تغلب جانب الإمامة على الإمارة في عهد الإمام ابن ياسين، بدأت الدولة تعرف تحولاً إلى الطابع السياسي، ثم أخذت تجتاز ظروفاً تتطلب رجالاً من طراز يوسف بن تاشفين..

---

(١) روض القرطاس ص ٨٥ - الحلل ص ١٢ - البيان المغرب ج ٤ ص ١٦. أعمال الأعلام تحقيق د. عبادي ص ٢٣٠ - المغرب الكبير ٦٩٧ يشير أن الوفاة كانت ٤٥٠ هـ وقد أوصى ابن ياسين المرابطين وهو على فراش الموت بالوصية التالية: يا معشر المرابطين أنا ميت في يومي هذا وأنتم في بلاد أعدائكم فإياكم أن تجنبوا فتفشلوا وتذهب ريحكم. كونوا إلفة على الحق وإخواناً في الله وإياكم والمخالفة والتحاسد على الدنيا وإني ذاهب عنكم فانظروا من ترضونه لأمركم يقود جيوشكم: أعمال الأعلام ص ٢٣٠

(٢) يذكر ابن خلدون أن المرابطين اختاروا خلفاً لابن ياسين سليمان بن عروا: العبر ج ٦ ص ١٨٢ ويسميه د. سالم سليمان بن عروا الذي توفي في العام نفسه ٤٥٠ ولم يخلفه إمام آخر: المغرب الكبير ٦٩٧.

(٣) روض القرطاس ص ٨٥.

مرحلة نيابة يوسف على المغرب ٤٥٢ ـ ٤٥٤ هـ/ ١٠٦٠ ـ ١٠٦٢ م

بعد أن ابتعد المرابطون عن موطنهم الأول، فرضت الظروف الجديدة عليهم بأن يكون للصحراء جندها وللحضر جنده، إنها فكرة اقتضت العمل بها أخبار ترامت من أرض الأصول لأرومة المرابطين تشير إلى اختلال أمر الصحراء[١]، إلى اختلاف جدالة ولمتونة[٢]، وهما مجمع أجناد الدولة، وهو خلاف كان بإمكانه تشتيت شمل المرابطين والعودة بهم إلى ديارهم، فتنعكس أثاره على البلاد المفتوحة ـ وهذا ما نبه إلى خطورته الإمام ابن ياسين في وصيته ـ وكذلك إلى تحرك السودان ضدهم. فاختار أبو بكر حلاً لهذه المشكلة وخص نفسه بالمجال الحصراوي وترك الشمال لابن عمه يوسف بن تاشفين، فأنابه[٣] عنه وأمره بمتابعة الجهاد بعد أن ترك له ثلث الجيش المرابطي[٤]. وباستلام يوسف الأمر في المغرب، نجد قيادة جديدة لا تختلف عن القديمة إنما هي استمرار لها واستيحاء من مصدر واحد واصل مشترك. كان يوسف افتح أفقاً لجو الحضر من الأمير أبي بكر المتمسك بالصحراء ومع ذلك فقد كان قائداً من نمط صحراوي كامل مالكي شديد التدين والتقشف، كان ملكاً أشبه بالأولياء يتوخى أن يكون زخرفه في عمله لا في مأكله وملبسه.

سار القائد يوسف لتحقيق المهمة التي ندبه إليها الأمير أبو بكر، ولما وصل إلى وادي ملوية استعرض جيشه وقد بلغ أربعين الفاً فقسمه إلى أربعة أقسام[٥] واختار لكل قسم قائداً من أشهر القادة وهم سير بن أبي بكر

---

(١) روض القرطاس ص ٨٥ ـ الحلل ص ١٢ ـ العبر ج ٦ ص ١٨٤ ـ أعمال الأعلام ٢٣٠ ـ أشباخ: الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ص ٦٥ ـ المغرب الكبير ٦٩٧

(٢) يشير ابن خلدون إلى أن الخلاف في الصحراء وقع بين مسوفة ولمتونة. العبر ج ٦ ص ١٨٤.

(٣) الحلل ص ١٣.

(٤) الاستقصا ج ١ ص ١٠٦ ـ الحلل ص ١٣ ـ يعتبر ابن عذاري أن قسمة الجيش كانت مناصفة: البيان المغرب ج ٤ ص ٢١.

(٥) روض القرطاس ص ٨٩ ـ الاستقصا ج ١ ص ١٠٦ ـ أعمال الأعلام ص ٢٣٤.

اللمتوني ومحمد بن تميم الجدالي وعمر بن سليمان المسوفي ومدرك التلكاني[1]، وعقد لكل منهم على خمسة آلاف وبعث بهم إلى أنحاء المغرب، وتولى بنفسه قيادة بقية الجيش.

زحف يوسف نحو المغرب فتغلب على أكثر مناطقه، فقد هزم مغراوة وزناتة وبني يفرن وهرعت سائر القبائل إلى الاستسلام والطاعة. وخلال مدة لا تتجاوز بضعة أشهر بسط يوسف سلطانه على المغرب الأوسط والجنوبي، وعاد إلى أغمات عام ٤٥٤ هـ/١٠٦٢ م واقترن بزينب النفزاوية[2] وبدأ بإنشاء مراكش.

في هذه الأثناء استقام أمر الصحراء وقضى الأمير أبو بكر بن عمر على الخلاف ودفن الفتنة في مهدها وأصلح شؤون السكان، ترامت إليه أخبار ابن عمه يوسف وما فتح الله على يده من البلاد، وعاد ليعزله ويولي غيره[3] ونزل خارج أغمات.

شعر يوسف بدقة الموقف وحرجه، إذ لا يمكنه أن يتمرد على إمامه وأميره الشرعي أبي بكر لأنه شديد التدين، وكذلك لا يمكنه أن يتخلى بسهولة عما في يده من الملك. وهنا برز دور زوجة زينب بنت إسحاق، فقد شاورها في الأمر، وكان رأيها[4] أن يظهر له الغلظة وكأنه مساوٍ له ومقاوم وأن يلاطفه بالهدايا والأموال والخلع والثياب لأن ذلك مستطرف في الصحراء القاحلة ومرغوب فيه. وفي هذه الأثناء تسارع أصحاب الأمير أبي بكر للسلام على يوسف الذي استغل هذه البادرة وأحس بالزعامة، فاستقبلهم بالترحاب واغدق عليهم الأموال والهدايا الفاخرة فكسب ودهم واستمالهم[5]، وبذلك

---

(١) راعى يوسف في توزيع القواد الوضع القبلي فكان القادة من لمتونة وسوفة وجدالة. وقد ورد اسم مزدالي بدل مدرك أعمال الأعلام ص ٢٣٤.

(٢) البيان المغرب ج ٤ ص ٢٢.

(٣) البيان المغرب ج ٤ ص ٢٤ ـ روض القرطاس ص ٨٦.

(٤) البيان المغرب ج ٤ ص ٢٣ ـ روض القرطاس ص ٨٦ ـ دائرة معارف القرن العشرين مادة لثم ص ٣٢١.

(٥) البيان المغرب ج ٤ ص ٢٤.

قوي مركزه بالتقرب من جنود ابن عمه، وأعلن تمرده عند أول مقابلة بينهما، فتلقى يوسف ابن عمه الأمير أبي بكر بمظاهر السلطنة وسلم عليه راكباً ولم يترجل كعادته يحيط به حرسه الخاص[1] وجيشه الجرار مما أدخل الرعب في قلب الأمير أبي بكر خاصة عندما جاءه جواب يوسف بأنه يستعين بهذه القوات على من يخالفه، ومع ذلك لم يشأ يوسف أن يقطع الصلة نهائياً مع ابن عمه الأمير أبي بكر إذ قدم إليه هدية ثمينة جداً[2] قبلها الأمير شاكراً بعد أن أدرك أن يوسف لن يتخلى له عن الأمر بسهولة وإذا حدث صراع بينهما فإن الدولة الناشئة ستنتهي قبل أن تبصر النور، فجمع الأمير أبو بكر أشياخ المرابطين من لمتونة وأعيان الدولة، والكتاب والشهود وأشهدهم على نفسه بالتخلي ليوسف عن الإمارة،[3] وقد علل الأمير أبو بكر هذا التنازل لابن عمه يوسف لدينه وفضله وشجاعته وحزمه ونجدته وعدله وورعه وسداد رأيه ويمن نقيبته[4]، وأوصاه الوصية التالية: يا يوسف إني قد وليتك هذا الأمر وإني مسؤول عنه فاتق الله في المسلمين واعتقني واعتق نفسك من النار ولا يضيع من أمور رعيتك شيئاً فإنك مسؤول عنهم، والله تعالى يصلحك ويمدك ويوفقك للعمل الصالح والعدل في رعيتك وهو خليفتي عليك وعليهم[5]،

---

(١) شكل يوسف حرساً خاصاً اختارهم حسب اللياقة البدنية والكفاءة القتالية. (يبحث موضوع الحرس مع موضوع الجيش فيما بعد).

(٢) الهدية التي قدمها يوسف إلى الأمير أبي بكر مؤلفة من ٢٥ ألف دينار ذهب و ٧٠ فرساً منها ٢٥ مجهزة بمفاخر الجهازات و ٧٠ سيفاً محلاة و ٢٠ من الأستار المذهبة و ١٥٠ من البغال الذكور والإناث و ٢٠ جارية أبكاراً وجملة من الخدم و ٢٠٠ من البقر و ٥٠٠ رأس من الغنم و ١٠٠٠ ربع دقيق درمق و ١٢٠٠٠ خبزة و ٧٠٠ مد شعير عدا عن المسك والعنبر: البيان المغرب ص ٤ ص ٢٦ ـ الحلل ص ١٧.

(٣) روض القرطاس ص ٨٦ ـ الحلل ص ١٣ ـ الاستقصا ج ١ ص ١٠٥. دائرة معارف القرن العشرين مادة لثم ص ٣٢٨ ـ البستاني: دائرة المعارف ص ٢٣٧ مادة: أبو يعقوب.
Ency. uni t. 1 p. 782.

(٤) روض القرطاس ص ٨٦.

(٥) روض القرطاس ص ٨٦ ـ الاستقصا ج ١ ص ١٠٦.

وانصرف الأمير أبو بكر بعد ذلك إلى الصحراء وبقي يجاهد الكفار حتى استشهد عام ٤٨٠ هـ/١٠٨٧ م[١].

مرحلة الإمارة ٤٥٤ ـ ٥٠٠ هـ/ ١٠٦٢ ـ ١١٠٦ م
فتح المغرب الأقصى الشمالي ٤٥٤ ـ ٤٧٧ هـ / ١٠٦٢ ـ ١٠٨٤ م

بعد أن تنازل الأمير أبو بكر بن عمر ليوسف عن الإمارة، واطمأن يوسف أن لا منافس له من الوجهة الشرعية إذ أصبح أمير المرابطين بلا منازع، اتجه نحو المغرب الشمالي لانتزاعه من أيدي الزناتيين مستخدماً أسلوب التقري[٢]

العمليات العسكرية

كان هدف يوسف القضاء على زناتة واستخلاص الحكم منها، وفي هذه الأثناء وصله طلب استنجاد به من صاحب مكناسة مهدي الكزنائي[٣] على عدوه معنصر المغراوي صاحب فاس[٤]. وطلب النجدة هذا من صاحب مكناسة أكسبه وجاهة لأنه وقع على دعوة واستغاثة وأتاح له الخطوة الحاسمة للاستيلاء على المغرب. لبى الأمير يوسف الطلب لأنه يتلاءم مع رغبته ويظهره منقذاً لسكان المغرب من الزناتيين. هاجم قلعة فازاز وكانت لمهدي بن تولي اليحفشي[٥] فقضى عليه، ثم تابع سيره لمساعدة الكزنائي،

---

(١) المغرب ص ١٦٦.

(٢) ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ١٨٤ ـ الاستقصا ج ١ ص ١٠٦ ـ ويعرف الدكتور محمد شعيرة في كتابه: المرابطون تاريخهم السياسي ص ٨٨ التقري: واستخدم يوسف التقري وهو توجيه الجيوش إلى بلاد معينة للقتال مع جيوشها في معارك فاصلة لا لحصار المدن. وبهذه الطريقة لجهد البلاد المعادية، وفي أثناء ذلك قد تصالحها بعض الحصون.

(٣) الاستقصا ج ١ ص ١٠٨.

(٤) عينه على فاس ابن عمه الفتوح بن دوناس بن حمامة وتنازل له عنها. وبايعته قبائل مغراوه بفاس وأحوازها عام ٤٥٥ هـ ـ١٠٦٣ م المغرب الكبير ص ٦٩٩.

(٥) بنو يحفش بطن من زناته.

فاعترضته قبائل زواغة ولماية وصدينة ولوامة ومغيلة ومديونة وبهلولة[1] وغيرهم في عدد كثير، وكانت له معهم حروب شديدة انهزموا فيها وتحصنوا بمدينة صدينة، فحاصرها يوسف ودخلها بالسيف وهدم أسوارها وقتل فيها ما يزيد على أربعة آلاف رجل ثم خربها، وارتحل عنها إلى فاس عاصمة المغرب[2]. وهنا بدأ الصراع بين فرع زناتة الذي يحكم فاس وبين الأمير يوسف، وكان بصورة نجدة لصاحب مكناسة.

كان أمير فاس معنصر بن المعز المغراوي يعتمد على الحاجب سكوت البرغواطي صاحب طنجة وسبتة كما كان يعتمد على فروع مغراوية في تازا ونكور.

جرت حرب فاس بخطة الكر والفر التي اتبعها معنصر بينما استخدم يوسف أسلوب التقري. هزم يوسف جيش فاس الذي فر نحو الشرق، فاستولى على أحوازها وظفر بعاملها بكار بن إبراهيم وقتله[3]. ثم توجه نحو مدينة صفروا ودخلها عنوة وقتل حكامها أولاد مسعود المغراوي، ورجع بعد ذلك إلى حصار مدينة فاس حتى دخلها صلحاً عام ٤٥٥هـ/١٠٦٣م. بعد فرار معنصر منها الذي استبسل في المقاومة. وهذا هو الفتح الأول[4]، وهو فتح ضعيف لأنه مشروط، وهو يختلف عن فتح القوة، ففتح الصلح يتضمن بنوداً لصالح البلد المفتوح تحد من تصرفات الفاتح بينما يخلو فتح العنوة منها.

أقام يوسف في فاس عدة أيام، وعين عليها والياً من لمتونة، إذ أخذ

---

(١) روض القرطاس ص ٨٩

(٢) بنى مدينة فاس الإمام إدريس بن إدريس عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (ع) عام ١٩٢ هـ ـ ٨٠٨ م روض القرطاس ص ١٤ و ١٥.

(٣) روض القرطاس ص ٩٠ ـ العبر ج ٦ ص ١٨٥.

(٤) روض القرطاس ص ٩٠ ـ العبر ج ٦ ص ١٨٥.

يعين في المراكز المهمة أقاربه مما يدل على أن وطنية الصحراوي قبلية. ثم ترك المدينة إلى بلاد غمارة واستولى على حصونها وقلاعها.

اغتنم معنصر فرصة خروج يوسف[1] وكر على فاس ودخلها وقتل عاملها المرابطي ولاقت كرته نجاحاً وهدد فتوحات يوسف في المغرب الشمالي.

على أثر سقوط فاس طلب يوسف من حليفه مهدي الكزنائي أن يتجهز لقتال مغراوة خرج مهدي من مدينة عوسجة[2] واتجه نحو فاس، خاف معنصر من أن يتقوى المرابطون عليه إذا وصل إليهم حليفهم الكزنائي، فاعترض سبيله ودار بينهما قتال شديد قتل فيه الكزنائي وتفرق جيشه[3]، عندئذٍ بعث أهل مكناسة إلى يوسف يستصرخونه ويستغيثون به ضد معنصر وأعطوه بلادهم وبذلوا له الطاعة[4] ولكن فرحة معنصر بالنصر لم تدم طويلاً، إذ تدارك الأمر يوسف وأرسل جيشاً ألى فاس فحاصرها حتى ضاق الأمر بأهلها. وعندما رأى معنصر أن الحروب طالت والأقوات انعدمت جمع جيشاً من مغراوة وبني يفرن[5] وبرز للقتال طالباً إحدى الشهادتين النصر أو الموت، فكانت الدائرة عليه[6] وقتل كذلك ابنه تميم[7]، فالتفت زناتة حول بيت أبي العافية وقام بالأمر محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن موسى بن أبي العافية[8]، الذي جمع قبائل زناتة وخرج لقتال المرابطين وهزمهم في معركة وادي صيفير[9] وقتل عدداً من فرسانهم واستسلم الكثيرون.

(١) روض القرطاس ص ٩٠ ـ الاستقصا ج ١ ص ١٠٨.
(٢) روض القرطاس ٩٠ ـ الاستقصا ص ١٠٨.
(٣) العبر ج ٦ ص ١٨٥.
(٤) العبر ج ٦ ص ١٨٥ ـ روض القرطاس ص ٩٠ ـ الاستقصا ص ١٠٩.
(٥) روض القرطاس ص ٩٠.
(٦) العبر ج ٦ ص ١٨٥.
(٧) روض القرطاس ص ٩٠ ـ الاستقصا ج ١ ص ١٠٩.
(٨) الاستقصا ج ١ ص ١٠٩.
(٩) الاستقصا ج ١ ص ١٠٩ ـ العبر ج ٦ ص ١٨٥ ويسميه ابن خلدون وادي سيمير.

في هذه الأثناء كان يوسف يحاصر قلعة فازاز[1]، فعمل على معالجة الأمور بسرعة خاصة وإنها الهزيمة الثانية التي تصيب المرابطين في مواجهة عسكرية مع زناتة. ترك قسماً من جيشه يحاصر القلعة وبعث بالآخر إلى فاس، وسار هو نحو بني مراس، وقتل أميرهم يعلي بن يوسف[2] ثم سار إلى بلاد قندلاوة وفتح جميع تلك الجهات ثم سار إلى ورغة وفتحها عام ٤٥٨ هـ/١٠٦٥ م وتابع الحرب حتى تم له فتح جميع البلاد من الريف إلى طنجة عام ٤٦٠ هـ/١٠٦٧ [3] م.

بعد أن تم ليوسف فتح البلاد المحيطة بفاس نزل عليها عام ٤٦٢ هـ/١٠٦٩ م بجيش بلغ مئة ألف جندي وضرب عليها الحصار حتى دخلها عنوة بالسيف دون قيد أو شرط[4] محدثاً فيها مجزرة رهيبة، فقد قتل من كان بها من مغراوة وبني يفرن وسائر زناتة حتى امتلأت الأسواق بالقتلى، إذ قتل في جامعي القرويين والأندلس ما يزيد على الثلاثة آلاف رجل دفنوا في الأخاديد والمدافن الجماعية. وكان دخوله المدينة نهار الخميس ٢ جمادي الآخرة ٤٦٢ هـ/١٠٦٩ م.

ثم نظم المدينة من جديد فأمر بهدم الأسوار التي تفصل بين العدوتين[5] وجعلها مصراً واحداً ومن ثم أدار عليها الأسوار، وأمر ببنيان المساجد في أنحائها، ثم اتجه إلى تنظيمها المدني، فأعاد تخطيطها وبنى الحمامات والفنادق وأصلح الأسواق[6] وأقام يوسف فيها حتى صفر

(١) العبر ج ٦ ص ١٨٥

(٢) روض القرطاس ص ٩٠ ـ الاسنقصا ج ١ ص ١٠٩ ـ المعرب الكبير ص ٦٩٩.

(٣) المغرب الكبير ص ٦٩٩ ـ الاستقصا ج ١ ص ١٠٩ ـ العبر ج ٦ ص ١٨٥ ـ روض القرطاس ص ٩٠.

(٤) روض الفرطاس ص ٩١ ـ الاسنقصا ج ١ ص ١٠٩ ـ البيان المغرب ج ٤ ص ٢٨. العبر ج ٦ ص ١٨٥ ـ الحلل ص ١٦ ويذكر أن الفتح كان عام ٤٦٧ هـ ١٠٧٤ م.

(٥) كانت مدينة فاس تتألف من عدوتين: عدوة الأندلسيين تأسست عام ١٩٢ هـ وعدوه القرويين عام ١٩٣ ـ المغرب ص ١١٥.

(٦) روض الفرطاس ص ٩١.

٤٦٣ هـ/١٠٧٠ م خرج إلى بلاد ملوية وفتحها واستولى على حصون وطاط من بلاد طنجة[١].

لقب الإمارة

في هذه الأثناء استدعى يوسف أمراء المغرب وشيوخ القبائل من زناتة ومصمودة وغمارة لمبايعته، فبايعوه بالإمارة[٢]، فكساهم وأغدق عليهم الأموال وأكثر لهم العطاء، ثم خرج يحيطون به للطواف على المغرب وتفقد أحوال الرعية[٣] مصلحاً أمورها راداً الناس عن غواياتهم ناظراً في سيرة ولاته وعماله، وكان يوسف يقصد من وراء ذلك إضفاء صفة الشرعية على فتوحاته وإن زعماء المغرب يؤيدونه ويعترفون بزعامته التي أقامها بعبقريته الفذة وبتخطيطه العسكري الناجح، ويشعر الناس كذلك إنه ليس مجرد فاتح من الصحراء بل منظم لأمور دولة ساهر على مصلحة رعيتها من اضطهاد الولاة، وبالتالي هذا التجول والطواف - بصحبة أمراء المغرب وحكامه السابقين الذين قاوموه طويلاً وبذل جهوداً جبارة حتى أخضعهم - يبعث الرهبة في نفوس الذين لم يخضعوا حتى ذلك الوقت.

بعد تلك الجولة المغربية تابع الأمير يوسف عملياته العسكرية، فغزا الدمنة[٤] عام ٤٦٥ هـ/١٠٧٢ م من بلاد طنجة وفتح جبل علودان، وفي العام ٤٦٧ هـ/١٠٧٤ م استولى على جبال غياثة وبني مكود وبني رهينة من أحواز تازا وجعلها حداً فاصلاً بينه وبين زناتة الهاربة إلى الشرق، وأجلى عن المغرب كل من ظن فيه أنه من أهل العصيان، فأصبح خالصاً له مرتاحاً إلى طاعته[٥] مطمئناً إلى خلوده إلى السكينة والهدوء غير تواق للثورة عليه.

(١) روض القرطاس ص ٩١ - العبر ج ٦ ص ١٨٥.
(٢) روض القرطاس ص ٩١.
(٣) روض القرطاس ص ٩١.
(٤) العبر ج ٦ ص ١٨٥.
(٥) العبر ج ٦ ص ١٨٥ - روض القرطاس ص ٩١.

وهكذا أصبحت منطقة تازا ثغراً منيعاً بينه وبين زناته[1]، ولذلك يعتبر ذلك العام ٤٦٧ هـ/١٠٧٤ م فاصلاً في تاريخ الدولة المرابطية، إذ بسط يوسف نفوذه على سائر المغرب الأقصى والشمالي باستثناء طنجة وسبتة.

كانت سبتة وطنجة من أملاك الحموديين العلويين[2] الذين بسطوا سيطرتهم على جنوب الأندلس أكثر من ثلث قرن محرم ٤٤٦ هـ ٤٠٧ هـ/ تموز ١٠١٦ ـ ١٠٥٥ م، وقد استنابوا عليهما من وثقوا بهم من الصقالبة. وظل الأمر كذلك إلى أن استقل بهما الحاجب سكوت البرغواطي[3] وإطاعته قبائل غمارة، وطالت فترة حكمه حتى قيام دولة المرابطين، وبعد أن أخضع الأمير يوسف سائر المغرب وأصبحت حدوده مجاورة لإمارة الحاجب سكوت طلب منه الأمير يوسف الموالاة والمظاهرة على أعداء المرابطين، وكاد الحاجب يقبل بالعرض لولا أن ثناه ابنه عن عزمه[4]، عند ذلك وجه الأمير يوسف اهتمامه لإسقاط الحاجب والاستيلاء على أملاكه، فجهز جيشاً من اثني عشر ألف فارس مرابطي وعشرين ألفاً من سائر القبائل[5] وأسند قيادته إلى صالح بن عمران عام ٤٧٠ هـ/١٠٧٧ م وأمره بمهاجمة طنجة، وعندما اقترب المرابطون منها برز إليهم الحاجب سكوت على رأس جيشه وهو شيخ يناهز التسعين، وقال «والله لا يسمع أهل سبتة طبول اللمتوني وأنا حيّ أبداً»[6]. وكان معه ابنه ضياء

---

(١) د. محمد عبد الهادي شعيرة: المرابطون تاريخهم السياسي ص ٩٣.

(٢) يرجع نسب الحموديين إلى إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (ع). ولعب علي بن حمود بن ميمون... بن إدريس دوراً في الاستيلاء على قرطبة من يد سليمان الخليفة الأموي وما لبث أن خلعه في محرم ٤٠٧ هـ/ أول تموز ١٠١٦ ودعا إلى نفسه بالبيعة وقتل سليمان وتلقب بالناصر لدين الله.

(٣) اشترى عبد الشيخ حداد وهو من موالي بني حمود سكوت من برغواطة فنسب إليها ثم صار إلى علي بن حمود أول خليفة علوي في الأندلس روض القرطاس ص ٩٢ ويسميه سقره. الاستقصا ج ١ ص ١١١

(٤) الاستقصا ج ١ ص ١١١

(٥) الاستقصا ج ١ ص ١١١ ـ روض القرطاس ص ٩١ ـ العبر ج ٦ ص ١٨٥

(٦) الاستقصا ج ١ ص ١١١ ـ روض القرطاس ص ٩٢.

الدولة يحيى. وجرت المعركة في وادي منى من أحواز طنجة[1] قتل فيها الحاجب وانهزم جيشه والتجأ ابنه يحيى إلى سبتة واعتصم بها، ودخل المرابطون مدينة طنجة وكتب القائد ابن عمران بالفتح إلى الأمير يوسف.

بعد فتح طنجة استأنف الأمير يوسف توسعه نحو الشرق لمطاردة زناتة التي لجأت إلى تلمسان، وكان الفتح نحو الشرق قد توقف منذ العام ٤٦٧ هـ/١٠٧٤ م، إذ أن يوسف كان مطمئناً إلى تلك الناحية من الحدود بعد تحصين ثغر تازا.

كان تطلع يوسف إلى الشرق يهدف إلى القضاء نهائياً على أية مقاومة تهدد دولة المرابطين في المستقبل. ولعل أحداثاً وقعت من قبل الزناتيين الفارين وهددت الأمن المرابطي في تلك المنطقة، خاصة وإن كثيراً منهم قد هجروا مناطقهم في فاس وغيرها من مناطق المغرب والتجأوا إلى القسم الشرقي منه الذي أضحى ملاذاً لهم وملجأ، وقد بقي الحنين إلى موطنهم الأصلي يحرك فيهم روح المقاومة للعودة، وهذا أمر طبيعي وربما دفعهم ذلك إلى التجمع استعداداً لتلك العودة[2].

بدأ يوسف عملياته العسكرية باتجاه الشرق نحوتلمسان، وكانت بمثابة الهجوم الوقائي ضد عدوان مرتقب. كان يحكم المدينة الأمير العباس بن بحتي من ولد يعلي بن محمد بن الخير المغراوي[3]. أرسل يوسف قائده مزدلي لغزوها[4] في عشرين ألفاً واستطاع الجيش المرابطي هزيمة جيش تلمسان وأسر قائده معلي بن يعلي المغراوي الذي قتل على الفور، وضرب تجمع زناتة، ثم

---

(١) الاستقصا ج ١ ص ١١١ ـ روض القرطاس ص ٩٢ ـ العبر ج ٦ ص ١٨٥ ويحدد المكان في أحواز طنجة.

(٢) د. محمد شعيرة: المرابطون: تاريخهم السياسي ص ٩٥.

(٣) الاستقصا ج ١ ص ١١٠ ـ ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ١٨٦ ـ البيان المغرب ج ٤ص ٢٩.

(٤) الاستقصا ج ١ ص ١١٠ ـ العبر ج ٦ ص ١٨٦ ـ البيان المغرب ج ٤ ص ٢٩ ـ روض القرطاس ٩٢.

عاد الجيش المرابطي إلى مراكش[1] والظاهر أن عملية تلمسان لم تكن تهدف إلى الفتح والتمركز في المدينة بل كانت لضرب الزناتيين الفارين مما يدل على عودة مزدلي المبكرة دون أن يثبت أقدام المرابطين في تلك المنطقة.

بعد عملية تلمسان اتجه الأمير يوسف نحو الريف، كان يحكمه بيت أبي العافية، وكان قد تركه ولم يأخذ منه إلا منطقة تازا وما جاورها. فغزاه عام ٤٧٣ هـ/١٠٧٩ م وفتح أكرسيف ومليلة[2] وسائر أنحاء المغرب، وضرب مدينة تكرور ولم تعمر بعد ذلك وكان الدافع إلى ذلك حتى لا تتخذها زناتة حصناً لمقاومة المرابطين، وهكذا اندثرت المدينة التي عاشت أربعة قرون.

بعد الاستيلاء على الريف جاء دور تلمسان، فقد حان الوقت للقضاء نهائياً على زناتة تلمسان وإخضاعها إذ أن الصراع معها بلغ مرحلة حاسمة لم يعد من الممكن البقاء للفريقين متجاورين ولا بد لأحدهما أن يزول من الوجود، سار يوسف نحوها وفي طريقه فتح وجدة وبلاد بني يزناسن وما والاها[3] عام ٤٧٤ هـ/١٠٨٠ م. ثم وصل إلى عاصمة المغرب الأوسط وضرب عليها الحصار حتى استسلمت فقتل أميرها العباس بن يعلي وولّى عليها محمد بن تنيغمر وصارت ثغراً للملكة بدل ثغر تازا بعد أن كانت حصناً للعدو، واتخذ بالقرب منها مدينة بمثابة الحصن الأمامي لحماية المرابطين في عاصمة زناتة. وسميت المدينة باسم تاقررت، وكان محلها مكان معسكر الأمير

---

(١) الاستقصا ١١٠ ـ روض القرطاس ٩٢ ـ العبر ١٨٦ ـ البيان المغرب ص ٢٩ ـ ابن الخطيب: الحلل ص ٢٠.

(٢) يشير ابن عذاري في البيان المغرب ج ٤ ص ٣٠ إلى هزيمة يوسف في اكرسيف على يد القاسم بن أبي العافية بينما بقية المصادر تشير إلى النصر العبر ج ٦ ص ١٨٦ ـ روض القرطاس ص ٩٢ ـ الاستقصا ج ١ ص ١١٠.

(٣) الاستقصا ج ١ ص ١١٠ ـ روص القرطاس ص ٩٢ ـ البستاني. دائرة المعارف مادة أبو يعقوب ص ٢٣٨.

يوسف[1]. ثم تتبع زناتة شرقاً فاستولى على وهران وتنس وجبال وانشريش ووادي الشلف حتى دخل مدينة الجزائر[2] وتوقف عند حدود مملكة بجاية التي يحكمها بنو حماد فرع من صنهاجة، وقد آثر أنسباءه الحماديين على الزناتيين المعادين له.

وبنى يوسف في مدينة الجزائر جامعاً لا يزال إلى اليوم ويعرف بالجامع الكبير، والتشابه واضح بينه وبين جامع تاقررت وهو دليل على اهتمام المرابطين بالمنشآت الدينية[3].

بعد أن اطمأن الأمير يوسف إلى حدوده الشرقية وقضى على آخر جيوب المقاومة الزناتية عاد إلى مراكش عام ٤٧٥ هـ/١٠٨١ م، وهو يفتخر بأنه حمل لواء المرابطين منذ انطلاقهم من الرباط منذ ثلاثين سنة وقادهم إلى النصر وحقق وحدة المغرب بعد أن عجز عن تحقيقها قادة الفتح الأوائل وكذلك قبلهم الرومان والوندال ونعم المغرب لأول مرة بوحدته السياسية.

وفي العام ٤٧٦ هـ/١٠٨٣ م وجه الأمير يوسف ابنه المعز في جيش إلى سبتة لفتحها إذ كانت المدينة الوحيدة التي لم تخضع له، كان يحكمها بعد وفاة الحاجب سكوت ابنه ضياء الدولة يحيى، فحاصرها المعز براً وبحراً ودارت معركة بحرية[4] كانت سجالاً بين الفريقين إلى أن أرسل المعتمد سفينة

---

(١) الاستقصا ج ١ ص ١١٠ - العبر ج ٦ ص ١٨٦ - روض القرطاس ويشير فقط إلى فتح تلمسان ص ٩٢. البستاني ص ٢٣٨.

(٢) الاستقصا ج ١ ص ١١٠ - العبر ج ٦ ص ١٨٦ - روض القرطاس ص ٩٢ دائرة المعارف ٢٣٨.

(٣) د. محمد شعيرة· المرابطون تاريخهم السياسي ص ٩٧

(٤) وردت تفاصيل المعركة البحرية بين ابن الحاجب والمرابطين في كتاب الدكتور عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ص ٧١٦ نقلا عن الذخيرة لما قدم أسطول المرابطين في سنة ١٠٨٣ م ٤٧٦ هـ لمحاصرة سبتة من البحر لقيه المعز بن سكوت ببقية من أسطول طالما أوسع البلاد شراً وملأ قلوب أهلها ذعراً، فكان لأول ذلك اليوم ظهر على أسطول المرابطين حتى أخذ منه قطعة جليلة المقدار ظاهرة الحمل والأسفار... وغضب أمير المسلمين إحدى غضباته فكانت =

ضخمة رجحت كفة المعركة لصالح المرابطين وانهزم ضياء الدولة وحاول الفرار في البحر ولكن المرابطين طاردوه فدخل إلى دار تعرف بدار تنوير في المدينة وهناك ألقي القبض عليه وأرسل إلى المعز الذي قتله وكتب بالفتح إلى والده وذلك في ربيع الآخر ٤٧٧ هـ/١٠٨٤ م[1].

= إياها ونفرت المنايا على سبتة وتقدمت تلك السفينة فأطلت على أسوارها ورفعت صوتها ببوارها وأفضت بدولة صاحب سبتة إلى سوء قرارها.

(١) الاستقصا ج ١ ص ١١١.

الفصل الثاني

الأندلس قبل الزلاقة

تطلع يوسف نحو الأندلس: الدافع الاستراتيجي وضع الأندلس السياسي بعد سقوط الخلافة الأموية ـ دول الطوائف ـ سقوط طليطلة بيد الفونس ـ الضغط على ملوك الطوائف ـ «المتوكل والمعتمد بشكل خاص» الهدف من ذلك ـ مع المتوكل: طلبات الفونس المتزايدة ـ اتصال المتوكل بالأمير يوسف.

المعتمد والفونس: سفارة الفونس إلى المعتمد برئاسة اليهودي ابن شالب ـ مقتلها على يد المعتمد ـ حملة الفونس الانتقامية على مملكة إشبيلية ـ الفونس يحاصر سرقسطة ـ الخوف يعم الجزيرة.

التحرك الشعبي: مؤتمر قرطبة ـ الأثر: مؤتمر إشبيلية ـ اتصال المعتمد بالمتوكل اتصال المعتمد بالأمير يوسف ـ بعثة المعتمد إلى يوسف ـ الرسالة ـ موقف يوسف: استشارة المرابطين ـ استشارة الكاتب ابن أسبط، المطالبة بالجزيرة الخضراء ـ جواب الأمير يوسف للمعتمد ـ المعتمد يهب الجزيرة ـ استعداد المرابطين للعبور ـ العبور الأول إلى الجزيرة ـ يوسف في الأندلس.

بعد جهاد دام ربع قرن جنى يوسف ثمرة أتعابه وبسط سيطرته على المغرب ونشر الأمن في ربوعه، واختارت قبائل الملثمين المناطق الخصبة وسكنتها، ومع ذلك ظلت محافظة على قوتها وتراثها البدوي، ودفعها طموحها الذي لا يحد إلى البحث عن مناطق جديدة تنشر فيها المبادىء التي اعتنقتها لأنها لم تؤمن بانتهاء دعوة ابن ياسين.

كانت ميادين الجهاد أمام المرابطين متعددة، فهناك الجنوب وأفريقية السوداء، ولكنهم أقلعوا عن هذا الاتجاه بسبب وجود الأمير أبي بكر بن عمر الذي اختار تلك الديار ميداناً لجهاده، وكان هناك مجال آخر نحو الشرق حيث توقف الفتح عند حدود بجاية التي يحكمها بنو حماد الصنهاجيين، فآثر يوسف التوقف ولم يتقدم شرقاً بسبب القرابة التي تربطه ببني حماد، وكان بإمكانه بسط نفوذه على تلك النواحي بسهولة خاصة بعد أن دمرتها غارات عرب بني هلال[1] وتركتها في حال من الفوضى والضعف لا تحسد عليها،

---

(١) عرب بني هلال وسليم من القبائل العربية القوية الشكيمة التي استقرت في مصر، وقد أكرههم الخليفة الفاطمي العزيز على الانكفاء من الدلتا إلى الصعيد، وهناك اتصلوا بالقرامطة واضحوا خطراً على الفاطميين، فوجههم العزيز مرة أخرى إلى القيروان ٤٤٤ هـ/١٠٥٢ م فاجتاحوا الأراضي السهلية وعاثوا فيها فساداً وقضوا على الحركة الثقافية فيها وبذلك مهدوا السبيل لانتصار المرابطين، وكان العزيز يهدف «من إرسالهم إلى القيروان» الاقتصاص من المعز =

ويوسف لم يكن يطمح إلى ضم أراضٍ جديدة أو إلى أي كسب مادي، بل كان يصبو إلى تحقيق مبادىء أمامه ابن ياسين، في إحياء تراث الإسلام ومحاربة البدع والفساد والذود عن حياض المسلمين.

لقد وجه العامل الجغرافي طاقات المرابطين بعدما أطلت دولتهم على شواطىء البحر المتوسط التي كانت عرضة لغارات الفرنجة، إذن فلا بدّ من اتخاذ الإجراءات الوقائية لصد هذه الغارات، يضاف إلى ذلك أوضاع الأندلس المضطربة بعد سقوط الخلافة الأموية[1] وقيام دول الطوائف، فقد كان الأمويون ينشرون عليها الوحدة الشرعية ويؤلفون بين الأحزاب المتنافرة، فاسم الخليفة ـ ولو كان الخليفة ضعيفاً ـ يبعث الاحترام في نفس الشعب ويظل الرمز لوحدة البلاد ويتهيأ من يقود الجيش باسمه إلى ميادين الجهاد، وبسقوط الخلافة انتهى وجود السلطان الشرعي الذي يجمع بين القوى المتنافرة من عرب وبربر ومولدين ومستعربين، فانتثر السلك وانفصمت عرى الوحدة وقامت في كل مدينة دويلة، وقد تكونت بعد معركة دامية بين الأحزاب ثلاث

= بن باديس الذي حارب التشيع في بلاده وخلع طاعة الفاطميين، وقد اعتصم المعز في عاصمته المهدية.

(١) العوامل التي أدت إلى سقوط الخلافة الأموية عديدة منها: الصراع بين العرب أنفسهم والصراع بين العرب والبربر وهذا النوع الأخير كان له أسوأ الأثر على المسلمين وتسبب بأكثر هزائمهم خاصة في فرنسا ـ معركة بلاط الشهداء، وقد أكثر المنصور العامري من البربر في جيشه فكانت الأغلبية منهم، ومعارك المنصور العامري كذلك وإن أدت إلى إرهاق نصارى إسبانيا إلا أنها أكلت زهرة شباب الأندلس المسلمين، يضاف إلى ذلك العامل الجغرافي الذي لعب دوره فقد أدت طبيعة الأرض إلى قيام حكم إقطاعي، وكثيراً ما كان يلجأ الإقطاعيون إلى العصيان على الحكومة المركزية في قرطبة مما كان كلفها جهوداً مضنية لإخماد مثل هذا التمرد ويؤدي إلى إضعاف هيبة الحكومة المركزية. ومما كان يزيد الأمور تعقيداً المستعربون الذين كانوا يؤلفون جاليات كبيرة في المدن، وقد أخلدوا إلى السكينة بانتظار الفرص المناسبة، وكانوا يبثون الدعايات والإشاعات للتفرقة ويزودون نصارى الشمال بالمعلومات ويكشفون عورات المسلمين/، وقد ساهم ذلك في إضعاف الحكومة وساعد فيها بعد على إسقاطها، وكثيراً ما كان هؤلاء المستعربون يقومون بثورات وفتن دينية ضد الخلافة (ثورة عمر بن حفصون).

وعشرون دويلة[1] سميت بدول الطوائف تناحرت فيما بينها، وعرف حكامها بملوك الطوائف تلقبوا بالألقاب الخلافية كالمأمون والمعتمد والمستعين والمعتصم والمتوكل. . . إلى غير ذلك من الألقاب. وفي ذلك يقول أبو علي الحسن بن رشيق[2]:

مما يزهدني في أرض أندلس   سماع مقتدر فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها   كالهر يحكي انتفاضاً صولة الأسد

مما سهل لهؤلاء الملوك السيطرة على هذه المدن، إنها كانت إبان الخلافة الأموية محكومة حكماً إقطاعياً ناجماً عن طبيعة البلاد الجغرافية وتنوع بيئاتها، فلما سقطت الخلافة انقطع ذلك الوصل الشرعي الذي يربط البلاد ببعضها، وآلت أوضاع الأندلس إلى السوء وأصبحت لا حول لها ولا قوة مما شجع النصارى على توجيه ضربات إلى المسلمين، وقد شنوا حرباً لا هوادة فيها نابعة من شعورهم العدائي للعرب والمسلمين تهدف إلى طردهم من إسبانيا، وقد بدأت هذه الحرب بدافع الدين أضافوا إليها مع الزمن عامل القومية وأسموها حرب الاسترداد[3].

---

(1) البستاني: دائرة المعارف م ٥ ص ٢٣٨ ـ ومن هذه الدويلات: دولة بني هود في سرقسطة ودولة بلنسية وأعمال طليطلة ودولة طليطلة وقرطبة وإشبيلية ومالقة وغرناطة والمرية ودانية وبطليوس وغيرها. . . وفي ذلك يقول ابن الخطيب:

حتى إذا سلك الخلافة انتثر   وذهب العين جميعاً والأثر
قام بكل بقعة مليك   وصاح فوق كل غصن ديك

المراكشي: المعجب ص ٧٠ ـ ٧٤.

(2) المعجب ص ٧٠ ـ ابن الكردبوس: تاريخ ابن الكردبوس ص ٨٩.

(3) سميت بحرب الاسترداد لأنها كانت تهدف إلى استرداد الأندلس من العرب، وقد بدأت هذه الحرب مع بداية ضعف الأندلس، فقد انحسر المد الإسلامي عن جنوب فرنسا وتراجع إلى ما وراء البرتات لجهة إسبانيا، وكانت هذه الحرب تشتد حيناً وتخمد حيناً آخر حسب الظروف السياسية للأندلس المسلمة. وفي القرن الحادي عشر دخلت حرب الاسترداد في دور جديد من أدوارها على يد الملك سانشو، فقد وحد الدويلات النصرانية عن طريق المصاهرة وبدأ بشن =

وترنحت الأندلس تحت وطأة هذه الضربات واضحت نهايتها قاب قوسين أو أدنى. ومع ذلك لم يهتم حكامها الجدد بما يجري حولهم وظلوا منغمسين بملذاتهم وفسادهم يتحاربون ويحالفون النصارى ضد إخوانهم ويؤدون لهم الجزية مقابل الاحتفاظ بعروشهم التي تهتز تحتهم، ويستخدمون المرتزقة النصارى لحماية أنفسهم بعد أن فقدوا الأمل بمواطنيهم: «وجعل الله بين أولئك الأمراء من التحاسد والتنافس والغيرة ما لم يجعله بين الضرائر المترفات والعشائر المتغايرات، فلم تتصل لهم في الله يد ولا نشأ على التعاضد عزم[1]. «لذلك انهارت الروح المعنوية للشعب الأندلسي بعدما رأى من أمرائه التخاذل والخيانة حتى كاد هذا الشعب الصابر يفقد القدرة على القتال بما كان يرهقه حكامه من الضرائب للتنعم بالعيش الرغيد ودفع الجزية للنصارى وأصبح بين حاكم مبتز وعدو متربص، فقد ارتقى عرش إسبانيا النصرانية الفونس السادس بن فرديناند الذي كان يرغب باحتلال الجزيرة الأيبرية وعادت حرب الاسترداد قوية على يده[2] وقد بدأ أعماله الحربية بمدينة طليطلة فحاصرها مدة سبع سنوات حتى سقطت بيده في ٢٥ أيار ١٠٨٥ م/ مستهل صفر ٤٧٨ هـ[3]، وقد أحدث سقوطها دوياً هائلاً في

= الحرب من حديد بقوة وتنظيم جديد، ويعتبر بحق باعث حرب الاسترداد التي استمرت قوية على يد ابنه فرديناند حتى وفاته ١٠٦٥ م وتعثرت بعد وفاته بسبب انقسام دولته بين أبنائه ولكنها قويت مع ابنه الفونس السادس.

(١) أعمال الأعلام تحقيق د. عبادي ص ٢٤١.

(٢) وحد الفونس السادس إسبانيا النصرانية وتقرب من البابوية في روما حتى إنه استبدل الطقوس الكنسية الإسبانية بالرومانية وذلك لدعم حرب الاسترداد بالكنيسة حتى إن البابا أوربانوس أصدر أوامره للإسبان للجهاد في بلادهم واعتبر جهادهم هذا أرقى من الذين يشاركون في الحملات الصليبية المتوجهة إلى المشرق (القدس) ولا غرو فالكنيسة كانت تحضر للحروب الصليبية في الغرب والشرق على حد سواء.

(٣) تاريخ ابن الكردبوس ص ٨٥ ـ دوزي. ملوك الطوائف ص ٢٧٢ وتاريخ مسلمي إسبانيا ج ٣ ص ١١٨ وكان الفونس قد لجأ إلى طليطلة هرباً من أخيه، ودخل في خدمة صاحبها ابن ذي النون، وأثناء إقامته فيها درس طبيعتها وأطلع على منافذها. وبعد أن خرج منها جهز جيشا وسار إليها وحاصرها حتى سقطت في يده الضبي بغية الملتمس ص ٣١.

العالم الإسلامي الغربي وبات المسلمون في حال من الضياع التام[1] لا يعرفون كيف يتصرفون وبدأوا بمغادرة المناطق المتاخمة لألفونس. وفي ذلك يقول عبد الله بن فرج اليحصبي المشهور بابن العسال الطليطلي[2]:

يا أهل الأندلس حثوا مطيكم فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط
ونحن بين عدو لنا لا يفارقنا كيف الحياة مع الحيات في سفط

واقفرت مملكة طليطلة من السكان الذين هجروها جماعات إلى بطليوس[3] هرباً من الاضطهاد وحفاظاً على دينهم، وشعر الفونس بأنه أضحى قادراً على تحدي دول الطوائف جميعاً والقضاء عليها[4]، فغير من خطته السابقة التي كانت تقوم على أخذ الأموال إلى محاولة للاستيلاء على الحصون والمدن، فقد رأى أن زمام الأندلس قد صار في كفه، فشن الغارات على جميع البلاد ونجح بالاستيلاء على المدن والقرى ما بين وادي الحجارة إلى طلبيرة وفحص اللجج وأعمال شنتمرية كلها[5]. ولاح له أن نهاية الطوائف قد دنت وإنه سوف يتبع نصراً بنصر. بدأ بالضغط على الدول الكبرى المجاورة له أي مملكتي بطليوس وإشبيلية، فقد أرسل إلى المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس يطلب إليه تسليم بعض الحصون والقلاع المتاخمة لحدوده مع تأدية الجزية

(١) وصل التخاذل بملوك الطوائف إلى حد إرسال الرسل لتهنئة الفونس على أخذ طليطلة حتى أن ابن رزين حسام الدولة صاحب شنتمرية ذهب بنفسه لتهنئته يحمل إليه الهدايا النفيسة، فجازاه بأن أعطاه قرداً احتقاراً له، بينما اعتبر رزين ذلك مفخرة ابن الكردبوس ص ٢٨٨.

(٢) المقري: نفح الطيب ج ٦ ص ٨٤ - ابن خلكان وفيات الأعيان م ٥ ص ٢٨ وقد ورد عنده «من جاور الشر لم يأمن عواقبه».

(٣) تاريخ مسلمي إسبانيا ج ٣ ص ١٢٠.

(٤) قال الفونس لابن مشعل اليهودي رسول ابن عباد كيف أترك قوما مجانين تسمى كل واحد منهم باسم خلفائهم وملوكهم وأمرائهم المعتضد والمعتمد والمعتصم والمتوكل والمستعين والأمين والمأمون، وكل واحد منهم لا يسل في الذب عن نفسه سيفا ولا يرفع عن رعيته ضيماً ولا حيفاً: ابن الكردبوس ص ٨٩.

(٥) تاريخ ابن الكردبوس ص ٨٧.

ويتوعده بشر العواقب إذا رفض، ولكن المتوكل لم يكن عند حسن ظنه فقد رفض التهديد ورد عليه برسالة تفيض شجاعة ونبلاً: «... ولو علم (أي الفونس) إن لله جنوداً أعز بهم كلمة الإسلام وأظهر بهم دين نبينا محمد (ص) أعزه على الكافرين... وأما تعييرك للمسلمين فيما وهى من أحوالهم فبالذنوب المركوبة، ولو اتفقت كلمتنا مع سائرنا من الأملاك علمت أيْ أصاب أذقناك كما كان آباؤك تتجرعه... وبالأمس كانت قطيعة المنصور على سلفك أهدى ابنته إليه مع الذخائر التي كانت تفد كل عام عليه[1]». وندب المتوكل قاضيه الفقيه أبا الوليد الباجي ليطوف على حواضر الأندلس يدعو إلى لم الشعث وتوحيد الكلمة ومدافعة العدو. ولكن مهمة القاضي لم تكلل بالنجاح لأن ضعف الأمراء وانهيار مقومات الدولة وتخاذل الشعب فرضت على الحكام استرضاء العدو عندئذٍ كتب المتوكل إلى الأمير يوسف بن تاشفين[2] يصور له محنة الأندلس ويستنصره[3]، «لما كان نور الهدى أيدك الله دليلك وسبيل الخير سبيلك ووضحت في الصلاح معالمك ووقفت على الجهاد عزائمك وصح العلم بأنك لدعوة الإسلام أعز ناصر وعلى غزو الشرك أقدر قادر وجب أن تستدعى لما عضل الداء وتستغاث لما أحاط بالجزيرة من البلاء، فقد كانت طوائف العدو المطيف بأنحائها عند إفراط تسلطها واعتدائها وشدة كلفها واستشرائها تلاطف بالاحتيال وتستنزل بالأموال ويخرج لها عن كل ذخيرة وتسترضى بكل خطيرة، ولم يزل دأبها التشكك والعناد ودأبها الأذعان والانقياد حتى نفذ المطارف والتلاد وأتى على الظاهر والباطن النفاد، وأيقنوا الآن بضعف المنن، .وقويت أطماعهم في افتتاح المدن، واضطرمت في كل جهة نارهم ورويت من دماء المسلمين اسنتهم وشفارهم ومن أخطى القتل منهم فإنما هم بأيديهم أسارا وسبايا يمتحنونهم بأنواع المحن والبلايا، وقد هموا

---

(١) الحلل ص ٢١ «نص الكتاب».

(٢) الحلل ص ٢٠ ـ تاريخ ابن الكردبوس ص ٨٨.

(٣) عنان: دولة الإسلام في الأندلس، دول الطوائف ص ٩١، ٩٢ الحلل: ص ٢٠ «وكان ممن كتب إليه حين ذلك المتوكل على الله بن الأفطس».

بما أرادوه من التوثب وأشرفوا على ما أملوه من التغلب، فيا لله ويا للمسلمين، أيسطو هكذا بالحق الأفك ويغلب التوحيد الشرك ويظهر على الإيمان الكفر ولا يكشف هذه البلية النصر، إلا ناصر لهذا الدين المهتضم، إلا حامي لما استباح من الحرم، وأنى لله على ما لحق عرشه من ثل وعزه من ذل، فإنها الرزية التي ليس فيها عزاء، والبلية التي ليس مثلها بلاء. ومن قبل هذا ما كنت خاطبتك أعزك الله بالنازلة في مدينة قورية[1]، أعادها الله وإنها مؤيدة للجزيرة بالخلا ومن فيها من المسلمين بالجلا. ثم ما زال ذلك التخذل يتزايد والتدابر يتساند حتى تخلصت القضية وتضاعفت البلية وتحصلت في يد العدو مدينة سرية وعليها قلعة تجاوزت حد القلاع في الحصانة والامتناع، وهي من المدينة كنقطة الدائرة تدركها من جميع نواحيها، ويستوي في الأرض بها قاصيها ودانيها، وما هو إلا نفس خافت وزمر داهق استولى عليه عدو مشترك وطاغية منافق إن لم تبادروا بجماعتكم عجالاً وتتداركوها ركباناً ورجالاً وتنفروا نحوها خفافاً وثقالاً وما أحضكم على الجهاد بما في كتاب الله فإنكم له أتلى ولا بما في حديث رسول الله (ﷺ) إنكم إلى معرفته أهدى. وكتابي إليكم هذا يحمله الشيخ الفقيه الواعظ يفصلها ويشرحها، ومشتمل على نكته هو يبينها ويوضحها، فإنه لما توجه نحوك احتساباً وتكلف المشقة إليك طالباً ثواباً، عولت على بيانه ووثقت بفصاحة لسانه والسلام».

ثم وجه الفونس اهتمامه نحو المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية وقرطبة، فقد كان أقوى ملوك الطوائف، وكان مُنتَظراً منه أن يقوم بمهمة حماية الأندلس، ولكنه لم يفعل ذلك بل قضى معظم أيامه بصراعات داخلية أضعفت المسلمين، وكل ما فعله أنه استولى على حصن ونازل مدينة واشتبك مع متغلب على ناحية، وخاض صراعات عديدة في قرطبة حتى أخضعها لنفوذه وكذلك مع ابن رشيق صاحب مرسية، وكان المعتمد يتعامل مع العدو

---

(١) مدينة قورية من أعظم مدن البرتغال فتحها المنصور العامري عام ٣٧٥ وسقطت بيد فرناندو عام ٤٥٦ كان يحكمها مولى لابن الأفطس يدعى رانده. عنان: دول الطوائف ص ٨٥.

معتمداً على المهارة الدبلوماسية ـ كسائر ملوك الطوائف ـ ودفع أذاه بالجزية، وقد كتب إلى الفونس ألا يتعدى حدود طليطلة[1] ويبدو أن الفونس حينما اختار مملكة المعتمد كان يهدف إلى ضرب القوة الرئيسة لدى المسلمين وبعد ذلك يتمكن بكل سهولة من إخضاع باقي الدويلات الإسلامية، خاصة وإنها أضعف من أن تقاوم وأكثرها يدور في فلكه، ومع ذلك فقد راعى شروط المعاهدات المعقودة مع المعتمد، فلم يهاجمه مباشرة بل طلب منه أموراً مستحيلة التنفيذ، فسأله أن يتخلى له عن معاقل وحصون على الحدود كان الموت عنده أولى من إعطائها[2] وإمعاناً في الإذلال والتجني طلب منه السماح له بإدخال إمرأته القمطيجة إلى جامع قرطبة لتلد فيه بناءً على نصيحة الأساقفة، لأن الطرف الغربي منه كان موضع كنيسة قوطية قديمة، وسأله أن تنزل بالزهراء مدينة الخليفة الناصر لتكون ولادتها بين طيب نسيم الزهراء وفضيلة موضع الكنيسة الموصوف[3]، وأرسل إليه بعثة من خمسماية فارس برئاسة اليهودي ابن شالب[4] لأخذ الجزية. وتجرأ السفير وخرج على اللياقات الدبلوماسية وأغلظ في القول للمعتمد: «لا تعتقدني بسيطاً لأقبل مثل هـذه العملة المزيفة؟ لا آخذ إلا الذهب الصافي، والسنة القادمة ستكون مدناً»[5]. فما كان من المعتمد وقد أخذته العزة العربية إلا أن أمر بقتل البعثة وصلب اليهودي[6].

(١) أشباح: الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ص ٦٠.
(٢) مذكرات الأمير عبد الله: ص ١٠٢ ـ المقري: نفح الطيب ج ٦ ص ٨٨ ـ ابن خلكان وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٢٨.
(٣) الحميري: الروص المعطار ص ٨٤ ـ ابن الأبار: الحله السيراء ص ٣٥٠ ـ الاستقصا ج ١ ص ١١٣ ـ المقري: نفح الطيب ج ٦ ص ٨٩ و ٩٠.
(٤) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ١٤٢ ـ الاستقصا ح ١ ص ١١٢ ـ تاريخ مسلمي إسبانيا ج ٣ ص ١١٩.
(٥) Dozy: Hist, des musulmans D'Espagne t 3 p. 119.
(٦) وفيات الأعيان ج ٥ ص ٢٨.

أثار هذا التصرف حفيظة الفونس وكان متجهاً لحصار قرطبة[1]، فعدل عن ذلك «وأقسم بآلهته ليغزون المعتمد بإشبيلية»[2]، وجهز جيشين جعل على أحدهما أحد قواده وأمره بالمسير على كورة باجة غرب الأندلس لتخريب تلك التخوم حتى إشبيلية، وزحف هو بالجيش الآخر وسلك طريقاً مغايراً، فخرب ودمر في طريقه حتى وصل إلى طريف ـ أقصى جنوب الأندلس على المضيق ـ وأدخل قوائم فرسه في البحر قائلاً: هذا آخر بلاد الأندلس قد وطأته»[3]. ومن هناك أرسل إلى الأمير يوسف بن تاشفين خطاباً جاء فيه[4]: «من أمير الملتين[5] بن برهـذة إلى الأمير يوسف بن تاشفين. أما بعد فلا خفاء على ذي عينين أنك أمير المسلمين بل الملة الإسلامية كما أنا أمير الملة النصرانية، ولم يخف عليك ما عليه رؤساؤكم بالأندلس من التخـاذل والتواكـل والإهمال للرعية والإخلاد إلى الراحة وأنا أسومهم الخسف، فأخرب الديار واهتك الأستار وأقتل الشبان وأوسر الولدان ولا عذر لك في التخلف عن نصرتهم إن أمكنك معرفة هذا، وأنتم تعتقدون أن الله تبارك وتعالى فرض على واحد منكم بعشرة منا وإن قتلاكم في الجنة وقتلانا في النار، ونحن نعتقد أن الله أظفرنا بكم وأعاننا عليكم ولا تقدرون دفاعاً ولا تستطيعون امتناعاً، وبلغنا عنك وأنك في الاحتفال عن نية الاستقبال فلا يدري أكان الجبن يغطي بك أم التكذيب بما أنزل عليك، فإن كنت لا تستطيع الجواز فابعث إليّ ما عندك من المراكب نجوز إليك، أناظرك في أحب البقاع إليك، فإن غلبتني فتلك نعمة جلبت إليك ونعمة شملت بين يديك، وإن غلبتك كانت لي اليد العليا

---

(1) وفيات الأعيان ج ٥ ص ٢٨.

(2) الحميرى: الروض المعطار ص ٨٥ ـ الحلة السيراء ص ٣٥١ ـ الاستقصا ح ١ ص ١١٣ ـ نفح الطيب ج ٦ ص ٩٠

(3) الاستقصا ج ١ ص ١١٠ ـ دائرة معارف القرن العشرين: مادة لثم ص ٣٢٣
Dosy his des musulmans D'Espagne t 3 p. 120

(4) الحلل ص ٢٦ و ٢٧ ويبدو أن أحد المسلمين الضالعين باللغة العربية كتبه له

(5) تسمى الفونس بأمير الملتين بعد أخذ طليطلة ويقصد بالملتين: الإسلاميه والنصرانية.

واستكملت الإمارة والله يتم الإرادة». ولما قرىء الكتاب على الأمير يوسف بان له غرور عدوه والاستهانة بقوة المرابطين، فأعلمه يوسف بجوابه أن قوة المرابطين سيراها الفونس في ساحة المعركة لا كما ينقلهاإليه أتباعه مزورة بعيدة عن الحقيقة[1]، ثم أمر بالجواب على ظهر الكتاب ذاته: «ما ترى لا ما تسمع إن شاء الله تعالى» وأردف:

ولا كتب إلا المشرفية والقنا ولا رسل إلا الخميس العرمرم[2]

وعاد الفونس إلى إشبيلية حيث التقى بجيشه الآخر أمام قصر المعتمد بن عباد بضفة النهر، وحاصر المدينة ثلاثة أيام وكتب إلى المعتمد يسأله أن يرسل إليه مروحة لطرد الذباب، ولم يتحمل المعتمد هذه الإهانة فرد عليه: «قرأت كتابك وفهمت خيلاءك وإعجابك وسأنظر إليك في مراوح من الجلود اللمطية تروح منك ولا تروح عليك»[3].

ترك الفونس إشبيلية وسار نحو سرقسطة وحاصرها، كانت شبه ضائعة تنتظر مصيرها المؤلم وصاحبها ابن هود لا يستطيع الدفاع كثيراً. ثم أخذ بلنسية وأعطاها لعهيده القادر بن ذي النون صاحب طليطلة السابق، وهاجم مملكة المرية ووصل القتشاليون إلى نابار قرب غرناطة[4]. كان الخطر على الأندلس شديداً وقلة الشجاعة وانهيار الروح المعنوية تثبط العزائم إذ أن ثمانين قشتاليا هزموا أربعمائة من المرية[5]. وأصبح الناس بين خبارين

---

(١) مذكرات الأمبر عبد الله بن زيري ص ١٠٤.

(٢) الحلل ص ٢٧ ـ وأعمال الأعلام تحقيق د. عبادي ص ٢٣٩ و ٢٤٠ ـ ماريخ ابن الكردبوس ص ٩١.

(٣) الحميري: الروض المعطار ص ٨٠ ـ الحلة السيراء ص ٣٥١ ـ الاسمصا ج ١ ص ١١٣ ـ نفح الطيب ج ٦ ص ٩١ وفي الروض المعطار زيادة «في أبدي الجيوش المرابطية».

(٤) Dozi hist des musulmans D'Espagne t 3 p. 122 123

(٥) تاريخ اس الكردبوس ص ٨٩

his. des musulmans t 3 p 123

أحلاهما مر الخضوع للنصارى أو الهجرة جماعات؟ وكان الخيار الأخير هو المرجح لأن البقاء في شبه الجزيرة من الجنون(١).

أمام هذه الحالة السيئة التي وصلت إليها الأندلس المسلمة اجتمع مشايخ قرطبة وزعماؤها للتشاور فيما يجب عمله لإنقاذ مدينتهم - وكانت بلا حامية - وسائر بلاد الأندلس خاصة بعد غلبة النصارى عليها، وعرضوا على قاضي المدينة عبيد الله بن أدهم الذي توفي عام ٤٨٦ هـ/١٠٩٣ م ما وصل إليه المسلمون من الذلة والصغار(٢)، واقترحوا عليه الاستنجاد بعرب أفريقية الهلاليين(٣). ولكن القاضي تخوف من وصولهم وتخريبهم للبلاد كما فعلوا بأفريقية، وأشار عليهم الاتصال بالمرابطين لأنهم أصلح منهم وأقرب إلى الأندلس، فطلبوا منه استدعاء الأمير يوسف لإنقاذهم وفوضوه بالأمر(٤).

كان مؤتمر قرطبة أول إجماع شعبي للخروج بالأندلس من محنتها بزعامة الفقهاء ملاذ الأمة في الظروف الصعبة. وتجاوز المسلمون حكامهم السياسيين والتجأوا إلى قادتهم الروحيين من أجل الخلاص وللحفاظ على الدين ولصيانة الأندلس المسلمة التي روتها دماء المجاهدين الأوائل الذين حملوا راية الإسلام ودوخوا النصارى منذ مطلع القرن الثاني الهجري.

وحرك مؤتمر قرطبة ما تبقى من استعداد للمقاومة في نفوس بعض الملوك الذين لم تطغ عليهم الخيانة ولم يصرفهم التهديد عن الاستعداد إلى التخاذل والاستسلام كالمتوكل ابن الأفطس والمعتمد بن عباد(٥). فقد لاحت للمعتمد طوالع المصير الذي ينتظره وأدرك فداحة الأخطاء التي تردى فيها

---

(١) his. des musulmans t 3 p. 123

(٢) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ١٤٢ - وفيات الأعيان ج ٥ ص ٢٨ الاستقصا ج ١ ص ١١٢.

(٣) His Des musulmant D'Espagne p. 123

(٤) الكامل ج ١٠ ص ١٥٢.

(٥) وفيات الأعيان ج ٥ ص ٢٨.

بمصانعة الفونس، فجد في تقوية جيشه وترميم الحصون والقلاع وقرر أن يستصرخ أخوانه المسلمين في المغرب(*)، وتشاور بالأمر مع ابنه الرشيد وزعماء إشبيلية الذين أشاروا عليه بمداراة الفونس[1] والرضوخ لشروطه التي يمليها، فذلك أولى من الاستنجاد بالمرابطين. ولكن هذا الرأي لم يعجب المعتمد فخلا بابنه الرشيد ـ وكان ولي عهده ـ الذي كان يرى رأي أهل إشبيلية وقال له: «أنا في هذا الأندلس غريب بين بحر مظلم وعدو مجرم وليس لنا ولي ولا ناصر إلا الله. وإن أخواننا وجيراننا ملوك الأندلس ليس فيهم نفع ولا يرجى منهم نصرة ولا حيلة أن نزل بنا مصاب أو نالنا عدو ثقيل وهو اللعين اذفونش فقد أخذ طليطلة وعادت دار كفروها هو قد رفع رأسه إلينا. وإن نزل علينا بطليطلة ما يرفع عنا حتى يأخذ إشبيلية. ونرى من الرأي أن نبعث إلى هذه الصحراء وملك العدوة نستدعيه للجواز إلينا ليدفع عنا الكلب اللعين إذ لا قدرة لنا على ذلك بأنفسنا، فقد تلف لجاؤنا وتدبرت بل تبردت أجنادنا وبغضتنا العامة والخاصة»[2]. فأجابه الرشيد يا أبت أتدخل علينا في أندلسنا من يسلبنا ملكنا ويبدد شملنا؟ فقال: أي بني والله لا يسمع عني أبداً إني أعدت الأندلس دار كفر ولا تركتها للنصارى فتقوم عليّ اللعنة من على منابر الإسلام مثل ما قامت على غيري[3]، والله خرز الجمال عندي خير من خرز الخنازير».

شاع في الأندلس رأي المعتمد بن عباد الاستنجاد بالمرابطين. ولما تحقق ملوك الأندلس من ذلك حذروه عاقبة ذلك وقالوا له: «الملك عقيم والسيفان لا يجتمعان في غمد واحد»[4]. وقد عارض بشدة الاستنجاد بالمرابطين

(*) بغية الملتمس ص ٢٣.
(١) ابن الخطيب: الحلل ص ٢٧.
(٢) الحلل ص ٢٧ و ٢٨.
(٣) الحلل ص ٢٨.
(٤) الحلة السيراء ص ٣٥١ ـ الروض المعطار ص ٨٥ ـ نفح الطيب ج ٦ ص ٩١.

عبد الله بن سكوت والي مالقة الذي كان يرى أن المرابطين أشد خطراً من النصارى ويجب الاعتماد على القوى الذاتية للأندلسيين[1]. فأجابهم المعتمد «رعي الجمال خير من رعي الخنازير»[2]. وأضاف: أن دهينا من مداخلة الأضداد لنا فأهون الشرين أمر الملثمين[3]. وقال للذين لاموه على هذا الرأي يا قوم إني في أمري على حالين: حالة يقين وحالة شك ولا بدّ لي من أحدهما. أما حالة الشك فإني إن استندت إلى ابن تاشفين أو إلى الأذفونش ففي الممكن أن يفيا لي ويبقيا عليه، ويمكن أن لا يفعلا فهذه حالة شك. وأما حالة اليقين فإني إن استندت إلى ابن تاشفين فإني أرضي الله وإن استندت إلى الأذفونش أسخطت الله تعالى. فإذا كانت حالة الشك فيها عارضة فلأي شيء أدع ما يرضي الله وآتي ما يسخطه؟ حينئذٍ قصر أصحابه عن لومه[4].

ولما عزم على الاستنجاد بالمرابطين اتصل المعتمد بالمتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس[5] وعبد الله بن بلقين الصنهاجي صاحب غرناطة وطلب منهما أن يرسل كل منهما قاضي حضرته لتشكيل بعثة تذهب إلى المغرب لمقابلة الأمير يوسف بن تاشفين، واستحضر قاضي قرطبة ابن أدهم وكان أعقل أهل زمانه[6]. وعلى هذا النحو تشكلت البعثة الرسمية[7] إلى الأمير يوسف،

---

(١) أشباخ: الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ص ٦٩.

(٢) دائرة المعارف للبستاني م ٥ ص ٢٣٨ - وفيات الأعيان ج ٧ ص ١١٥ - الحلة السيراء ص ٣٥١ - الروض المعطار ص ٨٥ - نفح الطيب ج ٦ ص ٩١.

Dozi; hist. Des mus. D'Espagne t. 3 p. 124.

(٣) وفيات الأعيان ج ٧ ص ١١٥ - دائرة المعارف ج ٥ ص ٢٣٨ مادة: أبو يعقوب.

(٤) الروض المعطار ص ٨٦ - المقري. نفح الطيب ج ٦ ص ٩٢ - الحلة السيراء ص ٣٥١ - الاستقصا ج ١ ص ١١٣.

(٥) Dozi. hist. des mus. D'Espagne t 3 p 124

(٦) الروض المعطار ص ٨٦ - نفح الطيب ج ٦ ص ٩٢ - الحلة السيراء ص ٣٥٢ - الاستقصا ج ١ ص ١١٣

(٧) تشكلت البعثة من القضاة: ابن أدهم قاضي قرطبة وابن مقانا قاضي بطليوس وابن القليعي قاضي غرناطة.

وأضاف المعتمد إليهم وزيره أبا بكر بن زيدون[1] وأطلعهم المعتمد أنهم رسله إلى الأمير يوسف، وأسند إلى القضاة وعظ الأمير وترغيبه في الجهاد وإلى الوزير بن زيدون أبرام العقود[2]. وحملت البعثة معها رسالة مكتوبة من المعتمد إلى الأمير يوسف مؤرخة عام ٤٧٩ [3]. وهذا نصها[4]:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما، إلى حضرة الإمام أمير المؤمنين وناصر الدين محيي دعـوة الخليفة، الإمام أبي يعقوب يوسف بن تاشفين القائم بعظيم أكبارها الشاكر لإجلالها المعظم لما عظم الله من كريم مقدارها اللائذ بحرامها المنقطع إلى سمو مجدها المستجير بالله وبطولها محمد بن عباد. سلام كريم يخص الحضرة المعظمة السامية ورحمة الله تعالى وبركاته.

كتب المنقطع إلى كريم سلطانها من إشبيلية في غـرة جمادي الأولى ٤٧٩ هـ/١٠٨٦ م وإنه أيد الله أمير المسلمين ونصر به الدين، فأنا نحن العرب في هذه الأندلس قد تلفت قبائلنا وتفرق جمعنا وتغيرت أنسابنا بقطع المادة عنا من ضيعتنا فصرنا شعوباً لا قبائل وأشتاتاً لا قرابة ولا عشائر، فقل نصرنا وكثر شامتنا، وتولى علينا هذا العدو المجرم اللعين اذفنـش وأناخ علينا بطليطلة ووطئها بقدمه وأسر المسلمين وأخذ البلاد والقلاع والحصون، ونحن أهل هذه الأندلس ليس لأحد منا طاقة على نصرة جاره ولا أخيه، ولو شاؤوا لفعلوا إلا أن الهواء والماء منعهم من ذلك، وقد ساءت الأحوال وانقطعت الآمال. وأنت أيدك الله سيد حمير ومليكها الأكبر وأميرها وزعيمها نزعت بهمتي إليك واستنصرت بالله ثم بك واستغثت بحرمكم لتجوز لجهاد هذا العدو الكافر وتحيون شريعة الإسلام وتدينون على دين محمد (ص) ولكم

---

(١) Hist. Des mus D'I spagne t 3 p 124

(٢) الاستقصا ج ١ ص ١١٣ و ١١٤ ـ دائره المعارف م ٥ مادة أبو يعقوب ص ٣٢٠

(٣) الكامل ج ١٠ ص ١٥٢ الحلل ص ٢٨ ـ ابن وفيات الأعيان ج ٥ ص ٢٨

(٤) الحلل ص ٢٨ و ٢٩.

عند الله الثواب الكريم والأجر العظيم والسلام الكريم على حضرتكم السامية ورحمه الله وبركاته ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».
إلى جانب الكتب الرسمية وردت على الأمير يوسف كتب شعبية منها كتاب من إنشاء أبي بكر بن الجد كتبها عن المعتمد وقد ورد نصها في الحلل ص ٣٠: «إلى الملك المؤيد بفضل الله أمير المسلمين وناصر الدين وزعيم المرابطين أبي يعقوب يوسف بن تاشفين نور الله به الآفاق وجمل ببهائه الجيوش والرفاق، من الملك المفضل بنعمة الله المستجير برحمة الله المعتمد على الله محمد بن عباد. سلام على حضرة تجدد إيمانها واشتهر أمانها وبعد فإن الله أيد دينه بالاتفاق والائتلاف وحرم مسالك الشتات ودواعي الاختلاف وأمن على عباده بأمن جديد وقوم أولي بأس شديد وتطول علينا بمعلوم جدك وقد جعلك الله رحمة تحيي عينها ربوع الشريعة وخلفك سلما إلى الخير وذريعة وقد طرأ على الإسلام حادث أنسى كل هم وهمت النكبات بوقوعه وذلك عدو اطمعه في البلاد شتات وبين اختلاف سببه من لم تطروا له في الدعوات غير تقوى تضعف وتتقي وتختلف مطمئنين من آفات الزمان وتناسخ الأمان. وقد جاءنا أفراقه وأوعاه ووعده وإيعاده لنسلم له المنابر والصوامع والمحاريب والجوامع ليقيم بها الصلبان ويستنيب بها الرهبان. ومما أطمعه استمالته أيانا بالدعوى وإملاؤها في الرحب والسعة، الله استجير لما أبطنه وإعجاماً علينا وطنه وقد وطن الله لك ملكاً شكره الله عليه جهادك وقيامك بحقه واجتهادك ولديك، وليت الخير باعث يبعثك إلى نصرة فاره واقتباس أنواره. وعندك من جنود الله من يشتري الجنة بحياته ويحضر الحرب بآلاته، فإن شئت الدنيا فقطوف دانية وجنة عالية وعيون آنية والآن إن أردت الآخرة بجهاد لا يفتر وجلاد يجيز الغلاصم ويستر هذه الجنة ذخر هذه الجنة ذخرها الله لضلال سيوفكم وإجمال معروفكم نستعين بالله وملائكته وبكم على الكافرين، كما قال سبحانه وهو أكرم القائلين: قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويجزهم وينصركم عليهم ويشفي صدور قوم مؤمنين. والله يجمعنا على كلمة التوحيد ننصرها ونعمة الإسلام نشكرها ورحمة الله نتحدث بها وننشرها. والسلام الموصل

الجزيل على أمير المسلمين[1].

وعبر السفراء البحر إلى المغرب قاصدين الأمير يوسف في مراكش. والظاهر إن هذه السفارة لم تلتمس العون دون شروط، فقد كانت مزودة بتعاليم واضحة. وأثناء اجتماعها مع الأمير جرت بين الفريقين محادثات ومراوضات[2]. وفي هذه الأثناء كانت وفود عديدة من الأندلس تؤم بلاط الأمير يوسف مستغيثة مستعطفة[3]، فيصغي الأمير إليهم وترق نفسه لهم ويعدهم خيراً.

أطلع الأمير يوسف حاشيته على المحادثات لاستشارتهم بالأمر، وكان المرابطون متشوقين لدخول الأندلس والجهاد ضد النصارى[4]، وكان رأيهم: أما ما ذكرتم من استغاثة هذا الرجل (أي المعتمد) بكم فواجب على كل مسلم يؤمن بالله ورسوله إغاثة أخيه المسلم، وأخرى فإنه لا يحل لنا أن يكون جارياً وبيننا وبينه ساقية ماء فسقوه طعمة للعدو وهذا ما ترونه. والأمر لله ولأمير المسلمين[5].

واستشار الأمير يوسف كاتبه ووزيره الأندلسي عبد الرحمن بن أسبط (أو إسباط) فنصحه الكاتب بأن يتسلم الجزيرة الخضراء لكي تكون أمينة لعبور الجيش ولحماية خطوط التموين[6]. وقال له: أن الأمر لله تعالى ولكم وواجب على كل مسلم إغاثة أخيه المسلم والانتصار له. غير إن لي كلاماً

---

(١) الحلل ص ٣٠.

(٢) الاستقصا ج ١ ص ١١٤ - الروض المعطار ص ٨٧ - نفح الطيب ج ٦ ص ٩٢ - الحلة السيراء ٣٥٢.

(٣) الاستقصا ج ١ ص ١١٤ - الروض المعطار ص ٨٧ - نفح الطيب ص ٩٢ - الحلة السيراء ص ٣٥٢.

(٤) الحلل ص ٣١.

(٥) الحلل ص ٣١.

(٦) الحلل ص ٣٢.

أنهيه إليكم، أيد الله الأمير تعمرون الثُمن وسبعة أثمان يعمرها النصارى وهي ضيقة عرجة حريجة سجن لمن دخلها لا يخرج منها إلا تحت حكم صاحبها. وإن أنت جزت إليها وحصلت فيها ما يكون لك في نفسك شيء. وهذا الرجل الذي استدعاك ما بينك وبينه عتاب قديم ولا صداقة متصلة ويتقى إذا قضى الله الغرض من العدو أمسك بها. والحال كما ترونه والنظر إليكم فاكتبوا إليه فإنه لا يمكنك الجواز إلا أن يعطيك الجزيرة الخضراء فتجعل فيها أثقالك وأجنادك ويكون الجواز بيدك متى شئت. فقال له الأمير: صدقت يا عبد الرحمن لقد نبهتني على شيء لم يخطر ببالي. أكتب إليه بذلك»[1]. وكتب ابن أسبط إلى المعتمد بن عباد الكتاب التالي نصه[2]:

«بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم. من أمير المسلمين وناصر الدين معين دعوة أمير المؤمنين، إلى الأمير الأكرم المؤيد بنصره لله تعالى المعتمد على الله أبي القاسم محمد بن عباد أدام الله كرامته بتقواه ووفقه لما يرضاه. سلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أما بعد فإنه وصل خطابك الكريم فوقفنا على ما تضمنه من استدعائنا لنصرتك وما ذكرته من كربتك وما كان من قلة حماية جيرانك، فنحن يمين لشمالك ومبادرون لنصرتك وحمايتك وواجب علينا ذلك في الشرع وكتاب الله تعالى. وإنه لا يمكننا الجواز إلا أن تسلم لنا الجزيرة الخضراء تكون لنا لكي يكون جوازنا إليك على أيدينا متى شئنا، فإن رأيت ذلك فأشهد على نفسك بذلك وأبعث إلينا بعقودها ونحن في أثر خطابك إن شاء الله تعالى».

أطلع المعتمد ابنه الرشيد على خطاب الأمير يوسف فقال له: يا أبت ألا تنظر إلى ما طلب، فقال له المعتمد: يا بني هذا قليل في حق نصرة المسلمين[3]. ثم جمع المعتمد القاضي والفقهاء وكتب عقد هبة الجزيرة

---

(١) الحلل ص ٣٢.
(٢) الحلل ص ٣٢ و ٣٣.
(٣) الحلل ص ٣٣.

الخضراء للأمير يوسف وتسليمها له بحضورهم، وكان يحكمها يزيد الراضي بن المعتمد، فبعث إليه يأمره بإخلائها وتسليمها للمرابطين لتكون رهن بتصرف الأمير يوسف[1]. وبعد حصوله على الجزيرة حزم الأمير يوسف أمره وقرر تلبية نداء أهل الأندلس تحدوه نزعة للجهاد وكتب أمانا إلى أهلها على ألا يتعرض لأحد منهم في بلده وقال: «أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين ولا يتولى الأمر أحداً إلا أنا بنفسي»[2] واستنفر سائر قواته للجهاد وبعث إلى مراكش في طلب الجنود فأقبلت إليه[3] وكذلك من الصحراء والقبلة وبلاد الزاب[4] ومختلف نواحي المغرب، وحشد السفن لعبور هذه القوات وأصدر أوامره بالعبور إلى بلاد الأندلس وكانت طليعة العابرين قوة من الفرسان بقيادة داود بن عائشة[5] إلى الجزيرة الخضراء فتمركز فيها وفقاً لما تم عليه الاتفاق. وتوالى عبور بقية الجيش تباعاً، وقد أمر الأمير يوسف بعبور الجمال بأعداد[6] كثيرة، وقد أثار ظهورها دهشة الأندلسيين لأنهم لم يكونوا قد رأوها من قبل، وقد أثر وجودها على الخيل فأخذت تجمح لدى رؤيتها[7]. ولما تكامل الجيش المرابطي بساحل الجزيرة الخضراء عبر الأمير يوسف في أثره بموكب من قادة المرابطين وأنجادهم وصلحائهم. ولما استولى على ظهر السفينة رفع يديه نحو

---

(١) يذكر الأمير عبد الله صاحب غرناطة في مذكراته ص ١٠٢ و١٠٣ أن المعتمد تلكأ في تسليم الجزيرة وأمسك رسل المعتمد مدة منهم القاضي عبد الملك المصمودي وابن الأحسن، ثم أطلق سراحهم وأرسلهم مع شيوخ إشبيلية ليطلبوا من يوسف التريث مدة ٣٠ يوماً لاخلائها، فما كان من يوسف إلا أن هاجم الجزيرة واستولى عليها عنوة بقيادة داود بن عائشة.

(٢) المعجب ص ١٣١.

(٣) المعجب ص ١٣١ ـ الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ١٥٢ الحلل ص ٣١.

(٤) الاستقصا ج ١ ص ١١١.

(٥) المعجب ص ١٣١ ويذكر أن عدد الفرسان سبعة آلاف ـ وفيات الأعيان ج ٥ ص ٢٩ ـ أشباخ: تاريخ الأندلس ص ٧٩.

(٦) الروض المعطار ص ٨٧ ـ المقري ـ نفح الطيب ص ٩٤ ج ٦ ـ الحلة السيراء ص ٣٥٢.

(٧) كان الأمير يوسف يهدف من عبور الجمال استخدامها في القتال، وقد جعلها فيما بعد في مقدمة الجيش (أثناء معركة الزلاقة) لحماية الجنود من سهام الأعداء فهي بمثابة الدروع في وقتنا الحاضر.

السماء مناجياً: «اللهم إن كنت تعلم أن في جوازنا هذا إصلاحاً للمسلمين فسهل علينا هذا البحر حتى نعبره وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا نجوزه»[1]. وسهل الله عليهم العبور في أسرع وقت وكان ذلك يوم الخميس بعد الزوال منتصف ربيع الأول ٤٧٩ هـ حزيران ١٠٨٦ م[2] ونزل بالجزيرة الخضراء، فصلى بها الظهر، واستقبله سكانها بالترحاب وخرجوا إليه بما عندهم من الأقوات والضيافات وأقاموا الأسواق لذلك وامتلأت المساجد والرحبات بالمتطوعين[3]. وشرع يوسف في تحصين الجزيرة وترميم أسوارها وما تصدع من أبراجها، وشحنها بالأسلحة والأطعمة أوكل حراستها إلى نخبة من رجاله[4]. وبعد أن استراح قليلاً ونظم أمور الجزيرة سار يوسف نحو إشبيلية.

---

(١) الاستقصا ج ١ ص ١١١ ـ الأندلس في عهد المرابطين ص ٧٩ «وقد ورد الدعاء بصيغة المفرد ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ٩٣.

(٢) الاستقصا ج ١ ص ١١١.

(٣) الروض المعطار ص ٨٧ ـ نفح الطيب ج ٦ ص ٩٣ ـ الحلة السيراء ص ٣٥٢ الاستقصا ج ١ ص ١١٤.

(٤) الحلل ص ٣٤

Dozy: hist. des mus. D'Espagne t. 3 p. 125

الفصل الثالث

معركة الزلاقة

لقاء يوسف والمعتمد ـ يوسف في إشبيلية ـ استنفار الأندلسيين ـ التوجه نحو بطليوس ـ اللقاء مع المتوكل بن الأفطس ـ الجيش الإسلامي «المرابطي والأندلسي» في سهل الزلاقة ـ ترتيب الجيش وتوزيع القيادات ـ الفونس يحاصر سرقسطة ـ وقع النبأ عليه ـ محاولة استغلال الفرصة ـ التراجع عن المدينة ـ التحالف مع أمراء إسبانيا النصرانية ـ المساعدات الخارجية ـ تشكيل الجيش الإسباني وعدده ـ مسير الفونس نحو الزلاقة والهدف من ذلك ـ الجيوش المتحاربة في الزلاقة ـ أهداف المتحاربين ـ المقارنة بين الجيشين عرض يوسف على الفونس ـ رفض الفونس ـ تحديد يوم المعركة ـ غدر الفونس ـ المعركة سحر الجمعة ١٢ رجب/٢٣ تشرين الأول ـ انسحاب غارسيا من المعركة ـ هجوم الفونس ـ تراجع المسلمين ـ النجدة المرابطية ـ يوسف يزج بحرسه ـ النصر للمسلمين ـ فرار الفونس مع ٥٠٠ فارس ـ جمع الأسلاب ـ عودة يوسف إلى إشبيلية ـ وصيته للأندلسيين ـ ٣ آلاف مرابط في الأندلس ـ عودة يوسف إلى المغرب وأسبابها ـ يوسف في المغرب وفاة الأمير أبي بكر بن عمر.

سارع المعتمد لملاقاة الأمير يوسف في مئة من فرسانه ووجوه أصحابه[1] والتقى به على بعد مرحلة من الجزيرة الخضراء[2]، ركض المعتمد نحو المرابطين فبرز إليه الأمر يوسف وحده والتقيا منفردين وتعانقا طويلاً وأظهرا أمام الجيش المودة والإخلاص، وشكرا نعم الله تعالى وتواصيا بالصبر[3]. وقدم المعتمد بعد ذلك للأمير يوسف الهدايا وأمر عمال البلاد بجلب الأقوات والضيافات للجيش المرابطي فعمت الحملة مما بعث السرور في نفس الأمير. واستعرض المعتمد الجيش المرابطي فرأى «عسكراً نقياً ومنظراً بهياً»[4] وتابع الأمير يوسف سيره نحو إشبيلية حيث كان يستقبل بالترحاب مع جيشه المرابطي على امتداد الطريق حتى وصل إلى حاضرة المعتمد فأقام فيها ثلاثة أيام للاستراحة[5] ثم قال للمعتمد: «إنما جئت ناوياً جهاد العدو فحيثما كان توجهت»[6]. وخلال

---

(١) الروض المعطار ص ٨٧ - نفح الطيب ج ٦ ص ٩٥ - الحلة السيراء ص ٣٥٢ - الاستقصا ج ١ ص ١١٤.

(٢) الحلل الموشية ص ٣٤.

(٣) الروض المعطار ص ٨٧ - نفح الطيب ج ٦ ص ٩٥ - الحلة السيراء ص ٣٥٢ - الاستقصا ج ١ ص ١١٤.

(٤) الحلل ص ٣٤.

(٥) الحلل ص ٣٤ - ويشير أشباخ أن إقامة يوسف كانت ٨ أيام، الأندلس في عهد المرابطين ص ٧٩.

(٦) المعجب ص ١٣١ و ١٣٢.

إقامته القصيرة في إشبيلية بعث الأمير يوسف إلى ملوك الأندلس يستنفرهم للجهاد[1]، فكان أول من لبى الدعوة عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة الذي خرج إليه بأمواله ورجاله والتقى بالأمير يوسف بجريشه على طريق بطليوس[2]، وأخوه تميم صاحب مالقة، واعتذر ابن صمادح صاحب المرية لكبر سنة ولمجاورة العــدو له في حصن لبيط وأرسل ابنه معز الدولة في فرقة من جيشه[3]. وسار الجيش المرابطي بقيادة الأمير يوسف مع الجيش الأندلسي نحو بطليوس فاستقبلهم صاحبها المتوكل بن الأفطس على ثلاث مراحل من المدينة[4] وقدم لهم الهدايا والقرى والعلف، وأقام هناك الأمير يوسف أياماً عدة حتى يصل باقي المتطوعين، ثم علم أن أكثرهم مشغول بمدافعة النصارى فتابع سيره حتى وصل إلى سهل الزلاقة[5]، وهو سهل حرجي فسيح على مسيرة ثمانية أميال تقريباً إلى الشمال الشرقي من بطليوس، وهناك نظم يوسف جيشه، فجعل الأندلسيين جيشاً قائماً بذاته أسند قيادته إلى المعتمد بن عباد الذي تولى في الوقت ذاته المقدمة، وعين المتوكل بن الأفطس على الميمنة

---

(١) مذكرات الأمير عبد الله بن زيري ص ١٠٤ - بغية الملتمس ص ٣١.

(٢) مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٤.

(٣) ابن الحلل ص ٣٤.

(٤) الحلل ص ٣٥.

(٥) الحلل ص ٣٥ - ابن الكردبوس ص ٩٣ - العبر ج ٦ ص ١٨٦ - الكامل ج ١٠ ص ١٥٣ - وفيات الأعيان ج ٥ ص ٢٩ وج ٧ ص ١١٦ - المعجب ص ١٣٣ ويذكر أن المكان أول بلاد الروم - دائرة المعارف الإسلامية ج ١٠ مادة زلاقة ص ٣٧٠ - دائرة معارف القرن العشرين: مادة لثم ص ٣٢٤ - دائرة المعارف ج ٥ مادة أبـو يعقوب ص ٢٣٨ - بـروكلمان: تـاريخ الشعوب الإسلامية ص ٣٢٠ - أشباخ: الأندلس في عهد المرابطين والموحدين من ٣٨ المكان الزلاقة بالعربية و sacralias النصرانية - حتي وجبور: تاريخ العرب ص ٦٤٣ ويسمى المكان sacralias الروض المعطار ص ٩٣ ويحدد المكان في إقليم بطليوس من غرب الأندلس

Hamet: hist. du maghreb p. 86

Dozy' hist. des mus. D'Espagne t. 3. p. 126.

- بغية الملتمس ص ٣١.

وقلما يخلو كتاب يتعرض للأندلس إلا ويأتي على ذكر معركة الزلاقة.

وأهل الشرق كانوا على الميسرة وحشد سائر أهل الأندلس في الساقة[1]، وخيم هذا الجيش أمام المرابطين. أما الجيش المرابطي، فقد تولى قيادة فرسانه داود بن عائشة والحشم سير بن أبي بكر وبقية المرابطين مع الحرس الأمير يوسف بن تاشفين إلى جانب قيادته للجيش الإسلامي، وعسكر المرابطون خلف الأندلسيين تفصل بينهم ربوة بقصد التمويه[2].

وبلغ عدد الجيش الإسلامي من مرابطين وأندلسيين أكثر من ٢٤ ألف جندي[3]

(١) الحلل الموشية ص ٤١.

(٢) روض القرطاس ص ٩٤ - ابن الكردبوس ص ٩٣ - دائرة القرن الشعرين. مادة لثم ص ٣٢٤.

(٣) يحدد دوزي عدد الجيش المسلم بعشرين ألف جندي· ملوك الطوائف ص ٣٠١

= Dozy Hist des mus D'Espagne t. 3. p. 127 hamet hist du map p 86

كانت أنباء عبور المرابطين إلى الأندلس قد وصلت إلى الفونس وهو محاصر سرقسطة[1]. فارتاع، ولكنه حاول أن ينتهز الفرصة وطلب من صاحبها المستعين بن هود مبلغاً من المال لرفع الحصار عن المدينة معتقداً أن المستعين لا علم له بالعبور. ولكن النبأ السعيد قد عم الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها وكأنه رحمة نزلت من السماء على المستعين الذي رفض إعطاءه درهماً واحداً[2] خشية أن يتقوى به، فرحل عن سرقسطة مسرعاً إلى طليطلة للاستعداد لدفع الخطر الذي دهمه على غفلة، هذا الخطر أملى عليه التحالف مع أمراء إسبانيا النصرانية، فبعث إلى سانشوراميرز ملك أراجون يستدعيه لنجدته وكان سانشو يحاصر طرطوشة، وإلى الكونت برنجار ريموند صاحب بنبلونة، كما أرسل إلى قائده البرهانس يستدعيه من بلنسية[3]. استنفر الكبير والصغير، لم يدع في أقاصي مملكته من يقدر على حمل السلاح إلا استنهضه[4]، جاء يجر الشوك والحجر[5] . . وطلب النجدة من وراء

= أما صاحب الحلل ابن الخطيب فيذكر أن العدد أربع وعشرين ألفاً من الفرسان يضاف إليهم مثل هذا العدد من المشاة ص ٣٨ - ومن العودة إلى الأرقام نجد أن العدد أكثر من ٢٤ ألف، فعدد الفرسان الذين قادهم داود بن عائشة ١٠ آلاف ويوسف أمر بأن يترجل من حرسه الخاص ٤ آلاف عدا الحشم والأندلسيين.

(١) روض القرطاس ص ٩٣ - الاستقصا ج ١ ص ١١١ - ابن الكردبوس ص ٩١ - تاريخ المغرب الكبير ص ٧٢٤ - دائرة المعارف م ٥ مادة أبو يعقوب ص ٢٣٨ - بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٣٢٠. أشباخ: الأندلس في عهد المرابطين ص ٧٩ - دوزي: ملوك الطوائف ص ٢٩٤.

Hist. des mus. D'Espagne t. 3 p. 126

بغية الملتمس ص ٣١.

(٢) ابن الكردبوس ص ٩٢ - دوزي: ملوك الطوائف ص ٢٩٥.

Hist. des mus. D'Espagne t. 3 p. 126

(٣) روض القرطاس ص ٩٤ - الأندلس في عهد المرابطين ص ٨٠ الاستقصا ص ١١١ - تاريخ المغرب الكبير ص ٧٢٤.

(٤) الروض المعطار ص ٨٨ - الحلة السيراء ص ٣٥٢ - نفح الطيب ج ٦ ص ٩٥ - الاستقصا ص ١١١ - ابن الكردبوس ص ٩٢.

(٥) المعجب ص ١٣٣ يذكر الضبي أن العدد كان ٤٠ ألف فارس ومئة ألف راجل ص ٣١.

جبال البرتات من لا نجدوك وجويانة وبرجونية وبروفانس[1]، فأتته من تلك البلاد أفواج عديدة من المتطوعين[2]. وقسم الفونس جيشه إلى قسمين كبيرين، أسند قيادة الجيش الأول إلى ابن عمه الكونت غارسيا ورودريك، وما لبث غارسيا أن انسحب قبل بدء المعركة أثر خلاف مع الفونس الذي أبقى رودريك في القيادة، واحتفظ بقيادة الجيش الثاني وعين على جناحيه سانتشوراميرز والكونت برنجار ريموند وتولى هو القلب[3]. وكان الفرسان يشكلون العمود الفقري في جيش الفونس الذي اعتمد على الفارس كفرد أكثر من الاعتماد على الفرسان كمجموعة، كان الفارس يلبس الزرد والدروع التي تغطيه من الرأس إلى القدم كأنه حصن من الحديد يتحرك[4]، لقد تحصن بالحديد واتخذ من السلاح ما يزيد من جرأته وشجاعته[5]. استعرض الفونس جيشه فأعجبته كثرته وأخذه الغرور فقال «بهذا الجيش ألقى محمد وآله محمد والأنس والجن والملائكة»[6]، وتقدم الرهبان والقسيسون أمامه وهم يرمقون الأناجيل والصلبان لإذكاء الحماس الديني في نفوس الجنود[7] الذين بلغ عددهم أكثر من ستين ألفاً[8].

---

(1) الأندلس في عهد المرابطين ص ٨٠ ـ سالم: تاريخ المغرب الكبير ص ٧٢٤

Dozy: hist des mus. D'Espagne t 3 p. 126

(2) الروض المعطار ص ٨٨ ـ الحلة السيراء ص ٣٥٢ ـ نفح الطيب ج ٦ ص ٩٥ ـ الاستقصا ج ١ ص ١١٥.

(3) الأندلس في عهد المربطين ص ٨٣.

(4) الأندلس في عهد المرابطين ص ٥٦

(5) حسن محمود: قيام دولة المرابطين ص ٢٨٢.

(6) الكامل ج ١٠ ص ١٥٣.

(7) الروض المعطار ٨٨ ـ الحلة السيراء ص ٣٥٣ ـ نفح الطيب ج ٦ ص ٩٦ الاستقصا ج ١ ص ١١٥.

(8) وفيات الأعيان ج ٥ ص ٢٩ «عدد الجيش النصراني أربعون ألف فارس ما عدا ما ينضم إليه ـ الكامل ج ١٠ ص ١٥٣ العدد خمسون ألفاً وأربعون ألفاً في الحلة السيراء ٣٥٣ والاستقصا ص ١١٥ والروض المعطار ٨٨ والأربعون ألفاً دارع ولا بدّ لمن صفته هذه أن يتبعه واحد أو اثنان ـ الحلل ٨٠ ألفاً منهم ٤٠ ألف فارس ـ والنصارى يقدرون أن العدد كبير: =

خرج الفونس بجيشه نحو بطليوس، وكتب إلى المعتمد بن عباد كتاباً جاء فيه: «إن صاحبكم يوسف قد تعنى من بلاده وخاض البحار، وأنا أكفيه العناء فيما بقي ولا أكلفكم تعباً، أمضي إليكم وألقاكم في بلادكم رفقاً بكم وتوفيراً عليكم»[1]. وكان الفونس يقصد من خروجه إلى بلاد أعدائه أن تكون المعركة في أرضهم كي لا تخرب الحرب بلاده بينما يصيب ذلك بلاد المسلمين، فإذا انهزم ولحقوا به يكون مسيرهم في أرضهم ولا بدّ لهم من الاستعداد لاكتساح بلاده، وبذلك تنجو من التدمير، وإذا انتصر حدث ذلك في أرض أعدائه[2]. وصل الفونس إلى بطحاء الزلاقة وخيم على بعد ثلاثة أميال من الجيش المسلم يفصل بينهما نهر بطليوس يشرب منه المتحاربون[3].

كانت الأحوال تنذر بأن المعركة ستكون حاسمةبالنسبة للأندلس، فقد بلغت القوى النصرانية ذروة قوتها تذكيها نزعة صليبية تهدف إلى طرد العرب من إسبانيا، وبالمقابل فإن الحماس الذي بثه المرابطون قد جدد عزائم الأندلسيين وأحيى موات الآمال فيهم.

كان الفونس يهدف إلى ضرب القوى المحلية في الأندلس لأنهم سكان البلاد الأصليين، وبالقضاء عليهم تخلو له الساحة من أية قوة مناوئة في المستقبل، فيبسط سيطرته على شبه الجزيرة وبذلك يحقق الهدف من حرب الاسترداد الهادفة إلى إعادة إسبانيا إلى النصرانية، كان ينظر إلى الأندلسيين نظرة احتقار وازدراء فهو الذي اقتضى منهم الجزية سنين عدداً وتلاعب

= نفح الطيب ص ٩٦

Hamet· hist. du maghreb p. 86 le nombre est 60 milles.

(١) الحلة السيراء ص ٣٥٣ ـ الروض المعطار ص ٨٨ ـ نفح الطيب ج ٦ ص ٩٦ ـ الاستقصا ج ١ ص ١١٥.

(٢) الحلة السيراء ص ٣٥٣ ـ الروض المعطار ص ٨٨ ـ نفح الطيب ج ٦ ص ٩٦ ـ الاستقصا ج ١ ص ١١٥.

(٣) روض القرطاس ص ٩٤ ـ ابن الكردبوس ص ٩٣ ـ دائرة معارف القرن العشرين مادة لثم ص ٣٢٤.

بمصيرهم مترقباً الفرصة المناسبة لاستئصالهم من الأندلس وها هي قد أتت.

أما المرابطون فبنظره طارئون على الأندلس ولا بدّ لهم من العودة إلى وطنهم الأصلي المغرب وأنهم وإن كانوا مقاتلين أشداء، فإنه بالقضاء على الأندلسيين تنفتح الطريق أمامه لهزيمتهم بسبب جهلهم بالطبيعة الجغرافية للبلاد.

في المقابل كان الأندلسيون يظهرون حماسهم للجهاد والقتال ولكن الخنوع والحياة الهنيئة بلغت منهم مبلغاً، كانوا حريصين على حياتهم ولا يرغبون في الاستشهاد، فقد خضعوا للنصارى طويلاً ودفعوا لهم الجزية للاحتفاظ بعروشهم وجندوا المرتزقة لقتال بعضهم بعضاً، فهم لا جدوى منهم ولا يمكن الاعتماد عليهم، ما عدا القلة منهم كالمعتمد بن عباد ملك إشبيلية والمتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس اللذين رفضا الانصياع لمتطلبات الفونس المتكررة وقررا امتشاق الحسام، فمن ظفر عاش سعيداً ومن مات كان شهيداً، فهم أبناء ثلاثة قرون ونصف في الأندلس، وقد روى أجدادهم بطاح الأندلس ووهادها بدمائهم ـ وكم بذل العرب من الدماء رخيصة للبقاء في الأندلس والمحافظة على طابعها الإسلامي وحضارتها ـ لقد أكلت حروب الأندلس وما وراءها زهرة الشباب العربي منذ الفتح حتى تلك اللحظة، وقد أتى الان من يحافظ على هذا التراث الثمين. وبعض الأندلسيين يريد أن يضرب النصارى بالمرابطين وبذلك يتخلصون من أعدائهم المحليين بأسهل الطرق وعلى يد غيرهم، ويعود المرابطون بعد ذلك إلى المغرب فتبقى لهم الأندلس خالصة فتسلم لهم دويلاتهم دون خسائر تذكر.

أما المرابطون وهم المضطرمون حماساً دينياً، تلقوا الإسلام الصحيح على يد الإمام ابن ياسين وخاضوا معارك الواحات وأودغشت وغانة تحت لوائه وهي لا تزال ماثلة في أذهانهم كانوا متشوقين إلى الاستشهاد معتمدين في القتال على أنفسهم خاصة وأنهم غرباء في بلاد بعيدة وقد أدرك الأمير يوسف

أن لا جدوى من الأندلسيين ولا يمكن الاعتماد عليهم بعدما لمس من أكثرهم التردد والمماطلة.

ونتائج القتال مصيرية في نظرهم، فإذا انهزموا أمام الإسبان فذلك يعني أن المغرب ستعمه الفوضى على يد أعدائهم المتربصين بهم وهم كثر، وإذا عادوا ظافرين فقد يقلع أعداؤهم المغاربة عن فكرة التمرد والثورة ليقينهم برسوخ دولة المرابطين وقوتها خاصة أنها أثبتت كفاءتها في معارك الجهاد خارج المغرب. وبالنسبة للأندلس يتم إنقاذها من الانحطاط الذي تردت فيه وبذلك يكون المرابطون قد حفظوا الإسلام والحضارة في ذلك الصقع النائي من العالم الإسلامي.

كانت جميع الدلائل تشير إلى تفوق الجيش الإسباني على الجيش المرابطي من حيث العدة والعدد، ومن الميزات التي تجعله متفوقاً أن بلاده قريبة بحيث يستطيع قائده طلب المزيد من المتطوعين والأسلحة حتى من بلاد الفرنجة وبلاد البابوية، وكانت تحميه من الوراء سلسلة من الحصون المنيعة يلجأ إليها في حال الهزيمة. أما الجيش المرابطي فقد كان محدود العدد، وليس باستطاعة الأمير يوسف استدعاء المزيد من الجنود من المغرب، فقد زج في المعركة بكامل قواته التي استطاع تجنيدها، خاصة وأنه لا يرغب بإخلاء المغرب من المرابطين وقد أخضعه بالسيف، وأعداؤه لم يزولوا نهائياً عن مسرح الأحداث المغربية، واعتماده على الأندلسيين كان ضعيفاً، فلم يستطيعوا تجنيد عدد كبير من المقاتلين[1]، وكانوا في حالة من الانهيار المعنوي أمام الفونس الذي أذلهم، وقد عوض الأمير يوسف هذا الضعف في جيشه بالحماس الذي بثه في نفوس الجنود.

وعلى مقتضى الشريعة الإسلامية قدم يوسف إلى الفونس كتاباً يعرض عليه الدخول في الإسلام أو دفع الجزية أو الحرب، وهي الطريقة الإسلامية

---

(١) لقد كان الجيش الأندلسي قليلاً جداً لا يتجاوز عدة آلاف.

المتبعة مع أهل الكتاب. ومما جاء في كتاب الأمير[1]: «بلغنا يا أذفونش أنك نحوت [2] الاجتماع بنا وتمنيت أن تكون لك فلك تعبر البحر عليها إلينا فقد جزناه إليك، وجمع الله في هذه العرصة بيننا وبينك وترى عاقبة ادعائك: «وما دعاء الكافرين إلا في ضلال»[3].

قرأ الفونس الكتاب فزاد من غضبه وذهب بعقله وقال: «أبمثل هذه المخاطبة يخاطبني وأنا وأبي نغرم الجزية لأهل ملته منذ ثمانين سنة؟»[4] وقال لرسول الأمير يوسف: «قل للأمير لا تتعب نفسك أنا أصل إليك[5] وإننا سنلتقي في ساحة المعركة[6] ومعنى ذلك أن الفونس اختار الحرب.

والحرب خدعة، فقد حاول الفونس بمكره الشديد أن يخدع الأمير يوسف في تحديد يوم المعركة فكتب إليه[7] «إن غداً يوم الجمعة لا نحب مقابلتكم فيه لأنه عيدكم، وبعده السبت يوم عيد اليهود وهم كثير في محلتنا، وبعده الأحد عيدنا، فنحترم هذه الأعياد ويكون اللقاء يوم الاثنين». فكان جواب الأمير: «اتركوا اللعين وما أحب»[8].

تنبه المعتمد إلى خديعة الفونس وقال للأمير يوسف: «إنها حيلة منه وخديعة إنما يريد غدرنا فلا تطمئن إليه، وقصده الفتك بنا يوم الجمعة فليكن

---

(١) الحلل ص ٣٥ - وفيات الأعيان ج ٧ ص ١١٦ - الروض المعطار ص ٩٠ - الحلة السيراء ص ٣٥٤ - نفح الطيب ج ٦ ص ٩٧ - الاستقصا ج ١ ص ١١٦. دوزي: ملوك الطوائف ص ٢٩٨ - يذكر عرض يوسف.

Dozy: hist des mus. D'Espagne t. 3 p. 126

(٢) وفي وفيات الأعيان كلمة «دعوت بدل نحوت».

(٣) القرآن الكريم: سورة غافر الآية ٥٠.

(٤) الحلل ص ٣٥ Hist des mus. D'Espagne p. 126

(٥) روض القرطاس ص ٩٤.

(٦) الأندلس في عهد المرابطين ص ٨٢.

(٧) الحلل ص ٣٥ - نفح الطيب ج ٦ ص ٩٨ - الروض المعطار ص ٩٠ - الحلة السيراء ص ٣٥٤ - الاستقصا ج ١ ص ١١٦ - ابن الكردبوس: ص ٩٣ - دوزي: ملوك الطوائف ص ٢٩٩.

(٨) الحلل ص ٣٦.

الناس على استعداد له يوم الجمعة كل النهار»[1]. وقد حرص المعتمد على سلامة المرابطين من غدر الإسبان فبث عيونه حول معسكرهم خوفاً من تسلل العدو إليهم، فهم غرباء يجهلون الأرض الأندلسية حتى أن المعتمد نفسه كان يشرف على الحراسة، فكان الجندي المرابطي إذا تجول خارج معسكره يرى المعتمد أو بعض رجاله يقومون بأعمال الحراسة[2]. وأخذت جواسيس الفريقين تتردد بين المعسكرين، وأرسل ابن عباد طلائع من جيشه لرصد تحركات العدو، وأثناء الليل عاد بعض الجواسيس ليخبر المعتمد بأن الفونس يوصي أصحابه بالمعتمد لأنه أشعل هذه الحرب فيجب القضاء عليه[3]. وعند السحر من يوم الجمعة أقبل فارسان من فرقة الاستطلاع يخبران المعتمد ببدء تحرك العدو نحوهم إذ أن الضوضاء وقعقعة السلاح تملآن أرجاء المعسكر[4].

أنقض الجيش الذي يقوده رودريك بمنتهى العنف على معسكر الأندلسيين فاصطدم بفرسان المرابطين الذين يقودهم داود بن عائشة أرسلهم الأمير يوسف على عجل لدعم الأندلسيين، وصمد داود أمام الهجوم وأرغم النصارى على الارتداد إلى خط دفاعهم الثاني، ولكن ذلك كلفه خسائر فادحة «استأثر الله فيها بأرواح شهدت لها الرحمة وخطبتها الجنة»[5] فاضطر إلى التراجع. وفي الوقت نفسه زحف الفونس ببقية جيشه نحو المسلمين واقترن زحفه بصياح هائل أثار الذعر في قلوب الأندلسيين قبل خوضهم المعركة

---

(١) الحلة السيراء ص ٣٥٤ ـ الروض المعطار ص ٩٠ ـ نفح الطيب ج ٦ ص ٩٨ ـ الاستقصا ج ١ ص ١١٦ ـ أشباخ ص ٨٣ ـ ابن الكردبوس ص ٩٣ ـ أعمال الأعلام تحقيق د. عبادي ص ٢٤٢.

(٢) الروض المعطار ص ٩١ ـ الحلة السيراء ص ٣٥٥ ـ نفح الطيب ج ٦ ص ٩٨ و ٩٩ ـ الاستقصا ج ١ ص ١١٦ ـ دائرة معارف القرن العشرين: مادة لثم ص ٣٢٤.

(٣) الروض المعطار ص ٩١ الحلة السيراء ص ٣٥٥ ـ نفح الطيب ص ٩٨ و ٩٩ الاستقصا ص ١١٦ بغية الملتمس ص ٣١.

(٤) الروض المعطار ص ٩٣ ـ الحلة السيراء ص ٣٥٥ ـ نفح الطيب ص ٩٨ و ٩٩ الاستقصا ص ١١٦ ـ دائرة معارف القرن العشرين ص ٣٢٤.

(٥) الحلل ص ٤١.

وروعوا أيما روع فلاذوا بالفرار حتى أسوار بطليوس للاحتماء بها، ولم يصمد منهم إلا المعتمد ومعه الأشبيليون[1] استطاعوا إنفاذ شرف المسلمين، وأصيب المعتمد بجراح بليغة حتى قيل أن ثلاث أفراس قد عقرت تحته[2]. ودارت معركة رهيبة صمد فيها المعتمد وابن عائشة، فقد فلت السيوف وتكسرت الرماح، وصبر المسلمون في المعركة «صبر الكرام لحرب اللئام»[3]، وأيقن الفونس ببلوغ النصر معتقداً أن هذه هي قوة المسلمين المقاتلة وقد أخذت تضعف واشتدت حركة الفرار منها، ولم يعلم ببقية الجيش المرابطي الذي يقوده الأمير يوسف، ففي تلك اللحظة الحاسمة وثب الجيش المرابطي إلى ميدان المعركة في وقت أخذت فيه القوى النصرانية بالهبوط نتيجة الخسائر الفادحة التي أصابتها لدى الهجوم الأول، وأرسل يوسف القائد سير بن أبي بكر على رأس الحشم لمساندة القوات الإسلامية[4] فتقوت بذلك معنوياتهم في معركة مالت إلى هزيمتهم، وزحف الأمير بحرسه المرابطي وقام بعملية التفاف سريعة باغت فيها معسكر العدو من الخلف ووصل إلى خيامه وأحرقها وأباد حراسها ولم ينج منهم إلا القليل، وكانت طبول المرابطين تدق بعنف فترتج منها الأرض، ورغاء الجمال يتصاعد إلى السماء فبث الذعر في نفوس الأعداء

---

(١) روض القرطاس ص ٩٥ - الحلل ص ٤١ - الكامل ج ١٠ ص ١٥٤ - الروض المعطار ص ٩٢ - الحلة السيراء ص ٣٥٥ - نفح الطيب ص ٩٩ - الاستقصا ص ١١٧ - وفيات الأعيان ج ٧ ص ١١٨ - الأندلس في عهد المرابطين ص ٨٣.

Dozy: hist. des m. D'Esp. p. 128

Hamet: hist. du mag. p 86.

(٢) الروض المعطار ص ٩٢ - الحلة السيراء ص ٣٥٥ - نفح الطيب ج ٦ ص ٩٩ - الذخيرة جـ ١ ص ٢٤٤ - ٢٤٥. الاستقصا ج ١ ص ١٧٧. «وفي تلك الأثناء تذكر ابنه الصغير وقد تركه مريضاً بإشبيلية فأنشد يقول:

أبا هاشم هشمتني الشفار فلله صبري لذاك الأوار

تذكرت شخيصك تحت العجاج فلم يثنني ذكره للفرار

(٣) روض القرطاس ص ٩٥.

(٤) روض القرطاس ص ٩٥ - الأندلس في عهد المرابطين ص ٨٤ - دوزي: ملوك الطوائف ص ٣٠٦.

وهلعت قلوبهم[1]. في هذه الأثناء كان الفونس يدفع بجيشه إلى الأمـام لانتزاع النصر، فذهل عندما رأى بعض حرس معسكره فارين، وأتته الأخبار من داخل المعسكر باستيلاء المرابطين عليه[2] وإنه خسر حوالي عشرة آلاف قتيل[3] وألفى الفونس نفسه محاصراً من المسلمين فاضطر للقتال متقهقراً نحو معسكره المحترق، ولكن يوسف لم يترك له فرصة لالتقاط الأنفاس، فانقض عليه كالسيل، وقاتل الفونس عند ذلك قتال المستميت وبلغ قلب الجيش المرابطي، حتى أن الأمير يوسف ارتاب بنتيجة المعركة[4]، فبدأ يبث الحماس في نفوس المسلمين قائلاً: «يـا معشر المسلمـين اصبروا لجهـاد أعداء الله الكافرين ومن رزق منكم الشهادة فله الجنة ومن سلم فقد فاز بالأجر العظيم والغنيمة»[5] ولم يقتصر يوسف على تشجيع الجنود وبث الحماس في نفوسهم فقد كان يقاتل في مقدمة الصفوف وهو ابن التاسعة والسبعين «وكأن العناية الإلهية كانت تحميه»[6] وانتدب كـذلك الفقهـاء والصالحـين لوعظ الجنـود وتشجيعهـم[7]. وفي هذا الجو الرهيب من القتال الذي دام بضع ساعات سقط خلاله آلاف القتلى وغمر الدم ساحة المعركة، عندها دفع الأمير يوسف حرسه الخاص من السودان إلى القتال[8] فترجل منهم حوالي أربعة آلاف كانوا

---

(١) الحلل ص ٤٢.

(٢) الحلل ص ٤٢ ـ أشباخ: ص ٨٤.

Hamet: hist. du maghreb p. 86

(٣) ابن الكردبوس ص ٩٣.

(٤) الأندلس في عهد المرابطين ص ٨٥.

(٥) روض القرطاس ص ٩٥ ـ ملوك الطوائف ص ٣١٠ـ

Dozy: hist. des mus. D'Espagne t. 3 p. 128

(٦) الأندلس في عهد المرابطين ص ٨٥.

(٧) نفح الطيب ج ٦ ص ١٠١ ـ الحلة السيراء ص ٣٥٥ ـ الروض المعطار ص ٩٢ ـ الاستقصا ج ١ ص ١١٧ ـ الحلل ص ٤٢ ـ وأعمال الأعلام: تحقيق د. عبادي ص ٢٤٣ ـ المغرب الكبير ص ٧٢٥ ملوك الطوائف ص ٣١٣.

Hist. des mus. D'Espagne t. 3 p. 129

(٨) نفح الطيب ص ١٠١ ـ الحلة السيراء ص ٣٥٥ ـ الروض المعطار ص ٩٢ الاستقصا ص ١١٧.

مسلحين بدروق اللمط وسيوف الهند ومزاريق الزان[١]، انـدفعوا انـدفاع الصاعقة لتحطيم المقاومة النصرانية، فطعنوا الخيل حتى رمحت بفـرسانها، وانقض أسود شجاع من الحرس على الفونس والتصق به ومنعه من استعمال سيفه وطعنه بخنجر يقال له الأطاس[٢] كان متمنطقاً به فهتك درعه ونفذ في فخذه[٣]، وبقي أثره بادياً في الفونس ما بقي حياً.

وقبل دخول الظلام بدت تباشير النصر للأمير يوسف، فقد لاذ من بقي من النصارى بالفرار، واشتدت الهزيمة على الفونس الذي تمنى الموت على العيش، وطلب ماء لارواء غليله، فلم يجد منه قطرة واحدة، وأخيراً وقع بعض اتباعه على قليل من النبيذ فسقوه إياه[٤]، ولجأ مع خمسماية فارس من فرسانه الذين افلتوا من أظفار المنية إلى تل قريب بانتظار الظلام للنجاة من سيوف المرابطين[٥]، وحاول المسلمون اللحاق به فمنعهم الأمير يوسف قائلاً: «الكلب إذا وهم لا بدّ أن يعض، وقد سلم الله المسلمين من معركة ولم يقتل منهم إلا القليل، فإن هجمتـم على هؤلاء أبلوا بلاءً عظيمـاً، ولكن اتركوهم ولاحظوا حالهم.»[٦] امتثل المسلمون لأوامر يوسف وكانت مناسبة لألفونـس، فقد انسل مع من بقي معه إلى مدينة قورية ومنها تابع سيره إلى طليطلة ودخلها بمئة فارس بعد أن مات الباقون في الطريق[٧]. وهناك سأل عن خيرة

(١) نفح الطيب ص ١٠١ ـ الحلة السيراء ص ٣٥٥ ـ الروض المعطار ص ٩٢ ـ الاستقصا.
(٢) الحلل ص ٤٢.
(٣) نفح الطيب ج ٦ ص ١٠١ ـ الحلة السيراء ص ٣٥٥ ـ الروض المعطار ص ٩٢ ـ الاستقصا ج ١ ص ١١٧ ـ الحلل ص ٢٤٣ وأعمال الأعلام: تحقيق د. عبادي ص ٢٤٤.
(٤) الأندلس في عهد المرابطين ص ٨٦.
(٥) نفح الطيب ص ١٠١ ـ الحلة السيراء ص ٣٥٥ ـ الروض المعطار ص ٩٣ ـ الاستقصا ص ١١٧ ـ أعمال الأعلام ص ٢٤٤ روض القرطاس ص ٩٧ ـ ابن الكردبوس ص ٩٢ ـ أشباخ ص ٨٦ ـ ملوك الطوائف ص ٣١٤.
Dozy: hist. des mus. D'Espagne t. 3 p. 129
(٦) الحلل ص ٤٣.
(٧) روض القرطاس ص ٩٦ ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٧ ص ١١٨ ـ المعجب ص ١٣٤ =

فرسانه ورجاله فلم يسمع إلا نواح الثكالى فحزن عليهم حزناً شديداً[1].

وفقد الفونس في الزلاقة القسم الأعظم من جيشه، وأمر يوسف بضم رؤوس القتلى من النصارى[2] فعمل منها المسلمون مآذن يؤذنون عليها[3]. وخسر المسلمون عدداً كبيراً ولكن المنتصر دائماً يقلل من خسائره، فقد ذكر أن مكان المعركة لم يكن فيه موضع قدم إلا على ميت أو دم[4]. وقضى في الزلاقة جماعة من العلماء والفقهاء والقضاة منهم قاضي مراكش عبد الملك المصمودي والفقيه الناسك أبو العباس أحمد بن رميلة القرطبي [5].
وأقام الجيش الإسلامي أربعة أيام يجمع الأسلاب والغنائم التي تركها الإسبان وراءهم في ساحة المعركة[6]، وآثر الأمير يوسف بها ملوك الأندلس، وقد عرّفهم أن هدفه الجهاد في سبيل الله ونصرة الإسلام[7].

وأرسل الأمير يوسف إلى المغرب كتاباً[8] يزف إليهم البشرى السعيدة

= يذكر العدد بـ ٩ أشخاص ناجين ابن الكردبوس ص ٩٤ - دوزي: ٣١٤ ملوك الطوائف.
Hamet: Hist· du maghreb p. 86: le nomblre 400 - 500

(١) ابن الكردبوس ٩٤ - الحلة السيراء ص ٣٥٦ - الروض المعطار ص ٩٥ - نفح الطيب ١٠٣ الاستقصا ١١٧.

(٢) روض القرطاس ص ٩٦ - الحلة السيراء ص ٣٥٦ - الروض المعطار ص ٩٣ - نفح الطيب ج ٦ ص ١٠٢ - الاستقصا ج ١ ص ١١٧ - وفيات الأعيان ج ٧ ص ١١٨ - الحلل ص ٤٣ يذكر أن عدد الرؤوس ٢٤ ألف رأس وأعمال الأعلام: تحقيق د. عبادي ص ٢٤٤ العدد ٩ آلاف رأس.

(٣) ابن الكردبوس ص ٩٥ - روض القرطاس ص ٩٦ - الحلة السيراء ص ٣٥٦ - الروض المعطار ص ٩٣ - نفح الطيب ص ١٠٢.

(٤) ذكر صاحب روض القرطاس أن عدد القتلى من المسلمين ثلاثة آلاف ص ٩٦ - والأمير عبد الله في مذكراته ص ١٠٦ «ولم يفقد من المسلمين إلا القليل».

(٥) الحلة السيراء ص ٣٥٦ - الاستقصا ص ١١٧ - نفح الطيب ص ١٠٣ - الروض المعطار.

(٦) الحلل ص ٤٦ - /الكامل ج ١٠ ص ١٥٤ - وفيات الأعيان ج ٥ ص ٢٩ وج ٧ ص ١١٨.

(٧) نفح الطيب ص ١٠٣ - الحلة السيراء ص ٣٥٦ - الروض المعطار ص ٩٥ الاستقصا ص ١١٧.

(٨) روض القرطاس ص ٩٧ و ٩٨.

بالنصر المبين، هذا نصه: «أما بعد حمد الله المكفل بنصر أهل دينه الذي ارتضاه، والصلاة على سيدنا محمد أفضل رسله وأكرم خلقه وأسراه، فإن العدو الطاغية لما قربنا من حماه وتوافقنا بإزائه بلغناه الدعوة وخيرناه بين الإسلام والجزية والحرب، فاختار الحرب. فوقع الاتفاق بيننا وبينه على الملاقاة يوم الاثنين ١٥ رجب. وقال: الجمعة عيد المسلمين والسبت عيد اليهود وفي عسكرنا منهم خلق كثير والأحد عيدنا نحن. فافترقنا على ذلك. واضمر اللعين خلاف ما شرطناه وعلمناه أنهم أهل خدع ونقض عهود. فأخذنا أهبة الحرب لهم، وجعلنا عليهم العيون ليرفعوا إلينا أحوالهم فأتتنا الأنباء في سحر يوم الجمعة ١٢ رجب أن العدو قد قصد بجيوشه نحو المسلمين، يرى أنه قد اغتنم فرصته في ذلك الحين، فنبذت إليه أبطال المسلمين وفرسان المجاهدين فتغشته قبل أن يتغشاها وتعدته قبل أن يتعداها. وانقضت جيوش المسلمين في جيوشهم كانقضاض العقاب على عقيرته، ووثبت عليهم وثوب الأسد على فريسته. وقصدنا برايتنا السعيدة المنصورة في سائر المشهدة المنشرة. ونظروا إلى جيوش لمتونة نحو الفنش - فلما أبصر النصارى رايتنا المشتهرة المنشرة ونظروا إلى مراكبنا المنتظمة المظفرة، وأغشتهم بروق الصفاح وأظلتهم سحائب الرماح ونزلت بحوافر خيولهم رعود الطبول بذلك الفياح، فالتحم النصارى بطاغيتهم الفنش وحملوا على المسلمين حملة منكرة فلتقاهم المرابطون بنيات خالصة وهمم عالية، فعصفت ريح الحرب وركبت دائم السيوف والرماح بالطعن والضرب، وطاحت المهج وأقبل سيل الدماء في هرج. ونزل من سماء الله على أوليائه النصر العزيز والفرج. وولى الفنش مطعوناً في إحدى ركبتيه طعنة أفقدته إحدى ساقيه في ٥٠٠ فارس من ثمانين ألف فارس ومائتي ألف راجل قادهم الله إلى المصارع والحتف العاجل، وتخلص إلى جبل هنالك ونظر النهب والنيران في محلته من كل جانب وهو من أعلى الجبل ينظرها شذراً ويحيد عنها صبراً ولا يستطيع عنها دفعاً ولا لها نصراً، فأخذ يدعو بالثبور والويل ويرجو النجاة في ظلام الليل وأمير المسلمين يحمد الله قد ثبّت في وسط المعركة مراكبه المظفرة تحت ظلال بنوده المنتشرة منصوراً لجهاد مرفوع الأعداد، ويشكر الله

تعالى على ما منحه من نيل السؤال والمراد، فقد سرح الغارات في محلاتهم، تهدم بناءها وتصطلم ذخائرها وأسبابها وتريه رأى العين دمارها ونهبها والفنش ينظر إليها نظر المغشى عليه ويعض غيظاً وأسفاً على أنامل كفيه فتتابعت البهرجة الفرار رؤساء الأندلس المهزومين نحو بطليوس والفار فتراجعوا حذراً من العار. ولم يثبت منهم غير زعيم الرؤساء والقواد أبو القاسم المعتمد بن عباد فأتى أمير المسلمين وهو مهيض الجناح مريض عنه وجراح فهنأه بالفتح الجليل. وتسلل الفنش تحت الظلام فاراً لا يهدي ولا ينام ومات من الخمسمائة فارس الذين كانوا معه بالطريق أربع مائة فلم يدخل طليطلة إلا في مئة فارس.

والحمد لله على ذلك كثيراً

وكانت هذه النعمة العظيمة والمنة الجسيمة يوم الجمعة ١٢ رجب ٢٣/٤٧٩ شهر أكتوبر ١٠٨٦ العجمي[١].

وأرسل المعتمد إلى ابنه الرشيد في إشبيلية يزف إليه البشرى بالنصر، وكان الناس بانتظار الأنباء على أحر من الجمر، وقد حمل الرسالة الحمام الزاجل، وهي مقتضبة إذ لا تتعدى السطرين، هذا نصها[٢]:

«أعلم ·أنه التقت جموع المسلمين بالطاغية إذفنش اللعين، ففتح الله للمسلمين وهزم على أيديهم المشركين والحمد لله رب العالمين، فأعلم بذلك من قبلك من إخواننا المسلمين. والسلام «وقرئت الرسالة بمسجد إشبيلية فعمها السرور، ثم توالت الكتب تفيض بأخبار النصر، منها كتاب المعتمد إلى سائر أنحاءمملكته، وهو من إنشاء الكاتب ابن عبد الله بن عبد البر النمري،

---

(١) هذا التاريخ هو المعتمد في تحديد زمان المعركة وكذلك ورد في الذخيرة رجب ٤٧٩ هـ/ جـ١ ص ٢٤٢.

(٢) ابن الخطيب: الحلل ص ٤٤.

وفيه يحدد تاريخ المعركة وسيرها وما أظهره الفونس من الغدر والآخرة للصالحين[1].

وجعل الأندلسيون يوم الزلاقة نظير القادسية واليرموك: «يوم لم يسمع بمثله من القادسية واليرموك، فيا له من فتح ما كان أعظمه يوم كبير ما كان أكرمه، فيوم الزلاقة ثبتت قدم الدين بعد زلاقها وعادت ظلمة الحق إلى إشراقها، نفست مخنق الجزيرة بعض التنفس واعتز به رؤوس الأندلس، فجزى الله أمير المسلمين وناصر الدين أفضل جزاء المسلمين بما بل من أرماق ونفس من خناق ووصل لنصر هذه الجزيرة من حل وتجسم إلى تلبية دعائها واستبقاء دمائها من حزن وسهل حتى هزموا المشركين وظهر أمر الله وهم كارهون»[2].

---

(١) الحلل ص ٤٥ و ٤٦ حيث نص الكتاب وما جاء فيه: «لما كان يوم ١٢ رجب الجمعة سنة ٤٧٩ سنى الله أمرا يسر أسبابه وفتح لنا آي الفرج والفتوح بابه وعطف علينا القابل للثواب الغافر للذنب والتقينا مع الطاغية الباغية... بعد غدر أبداه، وقد كان في أول اللقاء جولة على المسلمسين فضل الله فيها بالشهادة لمن اهتم بأمانيها ثم أنزل سكينته فخطبت نصال المسلمين رقاب الكافرين فأنكحتها أبكاراً صانتها حجال المغافر وحجبتها ستور الطوارق من عيون المواتر، ولا مهر إلا ما نووه من كرم نفوس جرت متطوعة وحثت إلى الخيرات ممتعة، فنفلهم الله أنفالهم ووعده بالنصر فأوفى لهم فتلقوا رحمكم الله هذه النعم بالشكر كما تلقينا، وقولوا الحمد لله رب العالمين... كتابي هذا من المحلة المنصورة يوم الجمعة الموافق عشرين من رجب، وقد أعز الله الدين ونصر المسلمين وفتح لهم الفتح المبين وهزم الكفرة المشركين وأذاقهم العذاب الأليم والخطب الجسيم فالحمد لله على ما يسره وسناه من هذه المسرة العظيمة (وفي الروض المعطار ص ٩٤ ـ الهزيمة العظيمة والمسرة الكبيرة) والنعمة الجسيمة في تشتيت شمل الأذفونش والاحتواء على جميع عساكره... بعد إتيان النهب على محلاته واستئصال القتل في جميع أبطاله (وفي الروض المعطار ص ٩٤ وأجناده بالإضافة إلى أبطاله) وحماته حتى اتخذ المسلمون من هاماتهم صوامع يؤذنون عليها، فلله الحمد على جميع صنعه. ولم يصبني والحمد لله إلا جراحات يسيرة آلمت لكنت فرجت بعد ذلك «فلله الحمد والمنة والسلام» وقد ورد ذكر كتاب المعتمد هذا عند ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٧ ص ١١٨ وعند ابن الخطيب في أعمال الأعلام: تحقيق عبادي ص ٢٤٥ «نقلاً عن الحلل» وفي الحلة السيراء لابن الأبار ص ٣٥٦ والروض المعطار ص ٩٤ ونفح الطيب ج ٦ ض ١٠٢.

(٢) الحلل ص ٤٧.

وكانت لمعركة الزلاقة نتائـج مهمة بـالنسبة لـلأندلسيـين والمرابـطين والإسبان. فالأندلسيون وقد جاءهم النصر بعد أن سارت بلادهم في طريق الانهيار أشواطاً إثر هزائم متتالية جعلوه قرين أيام الإسلام الكبرى، تغنى به شعراؤهم فانشدوا فيه القصائد الغراء حتى ظهر ما يسمى بأدب الزلاقة[1]. ورفع ذلك النصر من الروح المعنوية لهم، فقد انقذت سرقسطة من سقوط محتم، وأزاح عن ملوك الطوائف وأمرائها كابوس النصارى ومتطلباتهم التي لا تنتهي من الجزية وغيرها، وتنفسوا الصعداء بعد الكبت والتضييق عليهم، ولكن ذلك النصر أسقط من هيبة هؤلاء الملوك أمام رعاياهم خاصة وأنهم قد هزموا في بدء المعركة ولولا تدارك يوسف لهم لضاعت الأندلس.

منذ تلك اللحظة، فأخذت الرعية تتمرد عليهم وترفض إعـطاءهم الضرائب غير الشرعية والمخالفة لتعاليم الإسلام وقد دفعهم ذلك إلى التعلق بالمرابطين، فقد مهدت الزلاقة إلى إسقاط دول الطوائف فيما بعد على يد منقذيهم.

أما المرابطون فقد انفردوا بإحراز النصر بعد هزيمة الأندلسيين وصمود المعتمد لم يغير من نتيجة المعركة ـ وقاموا بأعباء المعركة لوحدهم. وأدرك أمير المرابطين يـوسف منذ تلك اللحـظة إنه إذا أريـد لحركـة الجهاد النجـاح والاستمرار فلا بدّ له من أن يضطلع بالعبء لوحده، إذ أن ملوك الطوائف لا جدوى منهم ولا يمكن الاعتماد عليهم بسبب الفرقة التي تمزق صفوفهم ولم يتخلوا عن أنانياتهم حتى في الساعات الحرجة التي يتوقف عليها مصير البلاد، ويبدو أن الأمير يوسف قرر إسقاطهم منذ تلك المعركة عندما يحين الوقت المناسب.

وفي المغرب فقد أطاعته القبائل التي ظلت مترددة في ولائها وتضمر

(١) الشعراء الذين أنشدوا القصائد في تلك المناسبة كثر ومنهم ابن جهور وابن هبون وابن اللباقة وابن عبادة ـ الذخيرة جـ١ ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥ ـ ٢٤٦.

الغدر والحقد للمرابطين، فكانت هذه القبائل ـ وهي زناتية ـ تنتظر نتيجة المعركة لتتخذ موقفاً يتلاءم مع تلك النتيجة، وقد أخلدت إلى السكينة وأعلنت ولاءها التام وبذلك ساعدته الزلاقة على حل مشاكله الداخلية دون إراقة نقطة دم واحدة.

وعلى صعيد العالم الإسلامي، فقد عمت الأفراح أرجاءه واعتقت الرقاب واتصل النبأ السعيد بالإمام الغزالي الذي سر بهذا النصر واعتبر الأمير يوسف المسلم المثالي الذي سيعيد للإسلام سابق عزه وينقذه مما تردى فيه[1].

أما الإسبان فقد منوا بهزيمة ساحقة حطمت آمالهم بالإستيلاء على الأندلس وطرد العرب منها، وجعلت معركة الزلاقة الفونس يغير من خطط حرب الاسترداد، فبعد أن كان يعتمد على القوة الذاتية الإسبانية، لجأ إلى طلب العون والمساعدة من خارج الحدود من فرنسا وإيطاليا[2]، حتى إنه هددهم بأنه سيدع المرابطين يجتازون جبال البرتات لمهاجمة فرنسا في حال عدم إجابة طلبه، وكان له ما أراد، ولكن عودة الأمير يوسف المفاجئة إلى المغرب جعلته يتخلى عن استخدام تلك النجدة.

بعد أن فرغ الأمير يوسف من معركة الزلاقة عاد إلى إشبيلية ودعا رؤساء الأندلس إلى اجتماع عام وطلب ومنهم الاتفاق والاتحاد ضد عدوهم المشترك الذي استغل تشتتهم، فأجابه الجميع بقبول وصيته وتحقيق رغبته[3]. وترك لهم ثلاثة آلاف جندي مرابطي للدفاع عن ثغور الأندلس بقيادة سير بن أبي بكر[4].

---

(١) قيام دولة المرابطين ص ٢٨٥.
(٢) الأندلس في عهد المرابطين ص ٩٠.
(٣) مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٦.
(٤) نفح الطيب ج ٦ ص ١٠٤ ـ الروض المعطار ص ٩٥ ـ الحلة السيراء ص ٣٥٦ ـ وفيات الأعيان ج ٧ ص ١٢٢ ـ ملوك الطوائف ص ٣١٤ ـ دائرة المعارف: مادة أبو يعقوب ج ٥ ص ٢٣٨.

في نشوة النصر عاد الأمير يوسف فجأة إلى المغرب دون أن يجني ثمار نصره، وعلى الأقل استرجاع مدينة طليطلة. وقد تعددت الأسباب التي حملته على تلك العودة المفاجئة: أولها وفاة ابنه الأمير أبي بكر الذي استخلفه على سبتة وكان مريضاً[1] وثانيها أخبار وردته من المغرب تستوجب وجوده، فقد وصله كتاب ينبئه باضطراب الأحوال على الحدود الشرقية[2] لمملكته، إذ تحالف بنو حماد الصنهاجيين مع عرب بني هلال وحاولوا غزو المناطق الحدودية التابعة للدولة المرابطية مغتنمين فرصة وجود الأمير يوسف مع أكثرية جيشه في الأندلس، هذا التهديد عجل من عودة الأمير يوسف لتفادي هذا الخطر الطارىء، وقد أجرى اتصالاً مع أنسبائه بني حماد وعمل على استرضائهم[3]. وثالث الأسباب احتراز من عمل يقوم به إبراهيم ابن الأمير أبي بكر بن عمر[4] لاسترداد حق أبيه الأمير الشرعي للمرابطين سابقاً. والسبب الأخير الذي حمله على العودة إلى المغرب خشيته من أن ينقلب نصره إلى هزيمة لأنه لم يعد يملك قوة يستولي بها على بلاد النصارى، وقد تخوف من الحاح الأندلسيين عليه بتتبع الفونس، إذ ربما أرادوا من ذلك نهاية أحد الفريقين الإسباني أو المرابطي فيتخلصون منه على أهون سبيل.

---

(١) روض القرطاس ص ٩٨ ـ الاستقصا ج ١ ص ١١٨ ـ الأندلس في عهد المرابطين ص ٩٩ ـ المغرب الكبير ص ٧٧٥ ـ بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٣٢١ ـ دائرة المعارف: مادة أبو يعقوب ج ٥ ص ٢٣٨ دوزي ملوك الطوائف ص ٣١٤.

Dozy: hist. des mus. D'Espagne t. 3 p. 150

بغية الملتمس ص ٣١.

(٢) قيام دولة المرابطين ص ٢٨٨ نقلاً عن الذخيرة: مخطوط بغداد القسم الثاني ص ١٠٦.

(٣) قيام دولة المرابطين ص ٢٨٨.

(٤) كان إبراهيم والياً على سجلماسة من قبل أبيه الأمير أبي بكر، وسبق له أن قام بمحاولات فاشلة لانتزاع الملك من الأمير يوسف. ففي سنة ٤٦٩ هـ/١٠٧٦ وصل إبراهيم من الصحراء يطالب بملك أبيه ونزل بخارج أغمات مع اللمتونيين، ا فأرسل إليه الأمير يوسف مزدلي يستوضحه، فقال: اطلب ملك أبي الذي غصبنا فيه عمي يوسف. البيان المغرب ج ٤ ص ٢٩. أما الآن ويوسف في الأندلس بعيد عن قواعده الأساسية فيمكن أن تتكرر محاولة إبراهيم خاصة وأن معركة الزلاقة قد كلفت يوسف ثمناً باهظاً زهرة جنده فلا بدّ له من العودة ليكون قريباً يقضي بسرعة على أي تحرك مضاد.

وصل الأمير يوسف إلى المغرب واستقر بعاصمته مراكش حتى ربيع الآخر عام ٤٨٠ هـ ١٠٨٧ م[1] ثم خرج يتجول في أنحاء مملكته يتفقد أحوالها ويصلح من شؤونها وينظر في أمور الرعية، ويتقصى أخبار عماله والقضاة[2]، ومدى تطبيقهم للشريعة الإسلامية.

في هذه الأثناء حدث أمر مهم بالنسبة للأمير يوسف، فقد توفي ابن عمه الأمير أبي بكر بن عمر[3]، وبموته انفتحت الطرق أمام الأمير يوسف ليضع يده على السلطة دون أن ينازعه فيها منازع.

---

(١) روض القرطاس ص ٩٨ ـ أعمال الأعلام تحقيق د. عبادي ص ٢٤٩ ـ وفيات الأعيان ج ٥ ص ٢٩ ـ ملوك الطوائف ص ٣١٤ ـ الزركلي: الأعلام ج ١٠ ص ٢٩٥.

(٢) روض القرطاس ص ٩٨.

(٣) روض القرطاس ص ٨٧.

الفصل الرّابع

عوامل ضمّ الأندلس إلى الدولة المرابطيّة

١ ـ حملة حصن لييط: اضطراب أحوال الأندلس بعد الزلاقة ـ التضييق على المرابطين ـ الإسبان يستعيدون نشاطهم ـ استئناف الأعمال الحربية في الشرق ـ خلاف أمراء الأندلس: خلاف المعتمد وابن رشيق ـ أوضاع شرق الأندلس ـ ذهاب المعتمد إلى المغرب لطلب النجدة ـ يوسف يلبي نداء المعتمد ـ العبور إلى الأندلس ـ تجمع الأمراء ـ حصار الحصن ـ ظهور الخلافات بين الأندلسيين ـ اعتقال ابن رشيق ـ فرار جيشه ـ انسحاب يوسف ـ الفونس يخلي الحصن.

٢ ـ العوامل الأندلسية: طبقات المجتمع الأندلسي ـ الطبقة الحاكمة فرضها للضرائب ـ لجؤوها إلى المرابطين ـ مساعدتها النصارى أثناء لييط ـ موقف الشعب الأندلسي ـ الفقهاء واعتمادهم على المرابطين: ابن القلاعي قاضي غرناطة.

٣ ـ العوامل المغربية: شهوة الفتح ـ غنى الأندلس ـ الدفاع عن المغرب.

بعد عودة الأمير يوسف إلى المغرب، اضطربت أحوال الأندلس من جديد فقد عاد ملوكها وأمراؤها إلى سيرتهم الأولى من الاختلاف فيما بينهم والاتصال بالعدو، كأن وصية الأمير يوسف لهم لم تكن[1]، فقد ذهبت مع رحيله إلى المغرب، وبدأوا بمضايقة القوة المرابطية التي بقيت في الأندلس، فأرسل قائدها سير بن أبي بكر رسالة إلى الأمير يوسف يعرفه فيها:

«بأن الجيوش بالثغور مقيمة على مكابدة العدو وملازمة الحرب والقتال في أضيق عيش وأنكده وملوك الأندلس في أطيب عيش وأرغده»[2]. وكان ملوك الأندلس يبغون من ذلك أن يجعلوا المرابطين يزهدون في بلادهم فيرحلون عنها، وبذلك يتخلصون من حليف طامح بأهون سبيل. ثم إن معركة الزلاقة لم تكن حاسمة كمعركة الفتح شذونة ـ فقد كانت صدمة أصابت الإسبان، ثم بدأوا ينهضون منها في أقل من عام ومرد ذلك إلى النجدات التي أتتهم من فرنسا وإيطاليا والبابوية التي شنت الحروب الصليبية في المغرب قبل المشرق وجعلت من الأندلس خط الصدام الأول، أضف إلى ذلك أن الإمارات الإسبانية تكونت بعد صراع رهيب مع الطبيعة[3] والعرب، وصمدت أمام

---

(١) راجع صفحة ٩٧.

(٢) الروض المعطار ص ٩٤ ـ الحلة السيراء ص ٣٥٧ ـ نفح الطيب ج ٦ ص ١٠٤.

(٣) النصارى الذين نجوا من معركة شذونة (معركة الفتح) لجأوا إلى قاصية جيليقية واعتصموا بوهادها الوعرة خاصة في صخرة «كوفادنجا» وقد حاصرهم ولاة الأندلس وتساقطوا من الجوع والمرض حتى لم يبق منهم إلا ثلاثون رجلاً و ١٠ نساء تركوا أمرهم للطبيعة القاسية بعد عجزهم عن اقتحامها.

Dozy: hist. des mus. D'Espagne t. 3 p. 129

تلك القوى العاتية مستندة إلى قاعدة شعبية صلبة ترسخت عبر أجيال من الكفاح المرير يغذيه شعور قومي وديني، واستأنف الإسبان، أعمالهم الحربية من جديد واختاروا الجبهة الأكثر ضعفاً في الأندلس، فاتجهوا نحو الشرق حيث إمارات بلنسية ومرسية ولورقة والمرية، كانت هذه الإمارات أضعف إمارات الأندلس عسكرياً[1]، فبلنسية خاضعة بصورة غير مباشرة للنصارى ويحكمها القادر بن ذي النون صاحب طليطلة السابق وصنيعة الفونس - بحراب السيد لقاء مبلغ من المال[2]. أما مرسية ولورقة فهما تخصان المعتمد بن عباد الأولى بالحق والثانية بالفعل[3]، فصاحب لورقة ابن أياس كان أضعف من أن يقاوم، وفي مرسية ابن رشيق وقد أراد المعتمد أن يأخذها منه لابنه الراضي تعويضاً له عن الجزيرة الخضراء التي تنازل عنها للمرابطين، فجمع المعتمد جيشه وطلب من ابنه المعتد مهاجمة ابن رشيق. ولكن ابن رشيق سارع ووضع نفسه بتصرف المرابطين ولم يمكن المعتمد من تحقيق غرضه. أمام هذه الحالة المتردية شن الأسبان الغارات على الإمارتين وحاصروهما حتى أوشكتا على السقوط[4]. واعتنم الفونس هذه الفرصة واستولى على حصن لييط[5] وشحنه بالمقاتلين[6]، واتخذه قاعدة لشن الغارات على أملاك المعتمد بن عباد بشكل خاص لمضايقته عقاباً له على دوره

---

(١) تاريخ ابن الكردبوس ص ٩٦ - العبر ج ٦ ص ١٨٦ و١٨٧ - المغرب الكبير ص ٧٢٩ - دائرة المعرف م ٥ ص ٢٣٨ مادة أبو يعقوب.

Hist. des mus. D'Espagne t. 3 p. 131 - ency. uni T 1. p. 782.

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٣٢١.

(٣) الحلل ص ٤٨

Dozy: hist. des mus D'Esp. t. 3 p. 132.

(٤) Hist. des mus. D'Espagne t 3 p. 132

(٥) حصن لييط - قلعة حصينة - يقع على قمة جبل شاهق على مقربة من لورقة في قلب بلاد الأندلس ضمن أملاك المعتمد بن عباد الحلل ص ٤٨ - روض القرطاس ص ٩٨ - الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ١٥٥ - تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٣٢١.

Hist. des mus. D'Esp. t. 3 p. 132

(٦) روض القرطاس ص ٩٨ - الحلل ص ٤٨.

الأساسي في استدعاء المرابطين إلى الأندلس[١].

وهكذا بدت مناطق شرق الأندلس بعد الزلاقة مباشرة وكأنها على شفير الهاوية والسقوط بيد الإسبان، وارتفعت أصوات الاستغاثة من جديد تستنجد بالأمير يوسف وأخذت الوفود الشعبية وعلى رأسها الفقهاء تعبر إلى المغرب مستغيثة مستنجدة به لانقاذ الأندلس من المحنة التي عادت، فالبلنسيون يشكون له أعمال «السيد» حامي القادر بن ذي النون، وسكان المناطق الأخرى يعانون الأمرين من حامية حصن لييط[٢]، واضحت الأندلس نهباً لقطاع الطرق وافتقد سكانها الأمن والسلام.

لخطورة الوضع الجديد قرر المعتمد الذهاب بنفسه إلى المغرب وطلب المساعدة من الأمير يوسف. وذهاب المعتمد يضفي على الطلب طابع الأهمية، إذ أن عميد الطوائف يطلب المساعدة بنفسه وقد كان بإمكانه أن يكتب للأمير أو أن يرسل إليه بعثة كما فعل قبل الزلاقة. وعمله هذا يدل على ثقته بالأمير يوسف لما راه منه من تضحيات في الزلاقة وما أظهر من عفة وشهامة في أسلاب الحرب. وهناك عامل مهم دفعه إلى الذهاب، فبعد الزلاقة بدأ الأمراء الذين كانوا خاضعين له قبلها بالتمرد عليه والالتجاء إلى المرابطين - ابن رشيق مثلاً. فأراد المعتمد أن يستنجد بالأمير على هؤلاء وأن يضع حداً لتمردهم.

عبر المعتمد البحر إلى المغرب واستقبله الأمير يوسف في المعمورة[٤] من وادي سبوا[٥] بالحفاوة والتكريم. وهناك أطلع المعتمد الأمير يوسف على حالة

(١) روض القرطاس ص ٩٨
(٢) الحلل ص ٤٨

Hist des mus D'Espagne t. 3 p 132

(٣) المغرب التجبير ص ٧٢٩
(٤) المعموره تسمى اليوم المهديه الاستقصا ج ١ ص ١١٩.
(٥) روض القرطاس ص ٩٨.. الحلل ص ٤٨ وبسمى المكان «الدحلة» - الاستقصا ص ١١٩ - تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٣٢١.

Hamet hist. du maghreb p. 87.

الأندلس المتردية حتى كأن الزلاقة لم تكن. فقال له الأمير: «كان بإمكا
الكتابة إليّ دون الشخوص بنفسك وأنا أحقق رغبتك. فأجابه المعتمد:
الخطر الداهم هو الذي دفعني إلى العبور، ولن يقوى الأنـدلسيون ع
النصارى ويعبور الأمير يؤدي خدمة جليلة للدين»[1]. فوعده الأمير خي
فعاد إلى إشبيلية وأخذ يستعد للمعركة المقبلة «فأكثر من السهام والبط
والعرادات»[2] ونظم جيشه خاصة وأنهم الأندلسيون الذين صمـدوا أم
الإسبان في الزلاقة بعد فرار الآخرين.

وفي العام ٤٨١ هـ/ ١٠٨٨م عبر الأمير يوسف المضيق إلى الجز
الخضراء، ومنها استنفر الأندلسيين للجهاد فاستجابوا لطلبه ولبوا نداءه و
الذين حضروا: تميم وعبد الله أبناء بلكين بن زيري والمعتصم بن صما
وابن رشيق وأمراء أقل أهمية وعلى رأس الجميع المعتمد[3]. ووفد عليه كذ
البناؤون والنجارون والحدادون من مرسية[4]، وتلقاه المعتمد بألف دابة تح
الميرة والقرى[5].

بعد أن استكمل المسلمون تجمعهم قادهم الأمير يوسف مباشرة نـ
حصن لييط وكانت به حامية نصرانية مؤلفـة من ألف فارس و١٢ أ
راجل[6]. وبدأ المسلمون الهجوم على الحصن فصمد أمامهم فضرب الأ

---

(١) الحلل ص ٤٨ ـ مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٨.

zy: hist. des mus. D'Esp t. 3 p 134.

(٢) الحلل ص ٤٨.

(٣) الحلل ص ٤٩ ـ روض القرطاس ص ٩٩.

t. des mus. D'Esp. t. 3 p. 134

(٤) الحلل ص ٤٩ ـ روض القرطاس ص ٩٩.

(٥) روض القرطاس ص ٩٩ ـ الاستقصا ج ١ ص ١١٩.

(٦) الحلل ص ٤٩ ـ روض القرطاس ص ٩٩ ويذكر أنه كان بالحصن ١٢ ألف مقاتل الذريـة والعيال ـ الأندلس في عهد المرابطين ص ٩١

zy: hist. des mus. D'Esp. t. 3 p. 135

يوسف عليه الحصار مدة أربعة أشهر بلا جدوى[1]. وكان القتال يدور عليه ليل نهار مداورة[2]، فكان كل أمير يهاجم بدوره ثم يحل مكانه أمير آخر[3]. كانوا يضربون الحصن بالمجانيق والعرادات واستعملوا كافة الوسائل الحربية المتوفرة وقام ابن صمادح بعمل حربي جديد، فصنع فيلاً واقترب به من أسوار الحصن، فرماه النصارى بسهم ناري أحرقه[4]. وفشل المسلمون في اقتحامه وظهر لهم من مناعته ما أيأسهم، ولجأت حاميته إلى الحيلة، فكانت تنيره ليلاً وتبث الإشاعات بين المسلمين بمجيء الفونس لإنقاذهم[5]، وبقي الأمر كذلك حتى دخل الشتاء[6]. وأثناء الحصار اشتغل الأندلسيون بمشاكلهم الشخصية، فقد ذر قرن الشقاق بين المتحالفين، حتى أن الأخوة كانوا مثل الضرائر المتنازعة، فأبناء بلكين بن زيري عبد الله وتميم أظهرا للأمير يوسف ما تجيش به نفوسهما من حقد وكره لبعضهما قلما أظهرا ذلك للعدو وكأن الأمير ليس له من عمل سوى حل مشاكل الأخوة[7]. وكذلك عاد الخلاف بين المعتمد وابن رشيق صاحب مرسية، فشكى المعتمد إلى الأمير يوسف بابن رشيق وأنه حليف لألفونس وأنه دفع جباية مرسية له كجزية[8] ويؤدي خدمات لنصارى الحصن المحاصرين[9]، فما كان من ابن رشيق إلا أن التجأ إلى الأمير يوسف للاحتماء به من المعتمد. تصرف الأمير يوسف بحكمة، فهو بحاجة إلى المعتمد أكثر من ابن رشيق: «ونحن لم نأمن أمر الرومي والأوكد

---

(١) روض القرطاس ص ٩٩

Hamet: hist. du maghreb p. 87

(٢) روض القرطاس ص ٩٩ ـ الحلل ص ٤٩ ـ مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٨.

(٣) مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٨.

(٤) مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٩.

(٥) مذكرات الأمير عبد الله بن زيري ص ١٠٨.

(٦) روض القرطاس ص ٩٩

(٧) مذكرات الأمير عبد الله بن زيري ص ١٠٦ و ١٠٧.

(٨) الحلل ص ٤٩ ـ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ص ١٩.

(٩) مذكرات الأمير عبد الله ص ١١٢.

Dozy: hist. des mus. D'Esp. t 3 p 139

علينا في هذا الوقت مداراة المعتمد حتى ترينا الأمور وجوهها»[1]. ثم إن ابن رشيق لم يتقدم إلى الأمير محبة به ولا إيثاراً له بل هرباً من عدوه القديم المعتمد، وأن مساعدته للنصارى يعتقد ببقائهم في حصن لييط «يثبت في مرسية»[2].

وعملاً بأحكام السنّة استفتى الأمير يوسف الفقهاء في أمر ابن رشيق، فجأت الفتاوى بإزاحته عن المسلمين وإسلامه للسلطان[3]، واستغاث ابن رشيق بالأمير يوسف الذي أجابه بأنها أحكام الدين ولا يستطيع مخالفتها[4]، وأمر قائده سير بن أبي بكر باعتقاله وتسليمه للمعتمد مشترطاً عليه إبقاؤه حياً»[5]، ونفذ سير المهمة، وبهذا العمل يكون الأمير يوسف قد وضع فتاوي الفقهاء فوق كل اعتبار مهما كانت النتائج، وضحى بحليف صغير من أجل حليف أكبر.

فرّ جيش مرسية من المعركة ومنع الميرة عن الجيش المرابطي ومن معه من الأندلسيين الذين يحاصرون الحصن، فاضطربت الأحوال ووقع الغلاء وارتفعت الأسعار[6] وأصبح وضع المحاصرين حرجاً خاصة وأنهم على أبواب الشتاء، والفونس عندما علم بخلافات المسلمين الداخلية حشد جيشاً[7] وسارع لإنقاذ أتباعه، فاضطر الأمير يوسف إلى رفع الحصار عن الحصن»[8] فهو لا يريد أن يخوض مع الإسبان معركة غير مأمونة النتائج خاصة بعد

(١) مذكرات الأمير عبد الله ص ١١١.
(٢) مذكرات الأمير عبد الله ص ١١٢.
(٣) مذكرات الأمير عبد الله ص ١١٢ ـ الحلل ص ٥٠.
(٤) مذكرات الأمير عبد الله ص ١١٢.
(٥) الحلل ص ٥٠

Dozy: hist. mus t 3 p. 140

(٦) الحلل ص ٥٠.
(٧) الحلل ص ٥٠ ـ روض القرطاس ص ٩٩ ـ مذكرات الأمير عد الله بن زيري ص ١١٢.
ويذكر أن عدد الجيش الذي حشده الفونس ١٨ ألف مقاتل

Hist. des mus. t 3 p. 140

(٨) الحلل ص ٥٠ ـ مذكرات الأمير عبد الله ص ١١٢ ـ روض القرطاس ص ٩٩

الذي رآه من حكام الأندلس وتآمرهم واتصالهم بالعدو، وأكثر ما كان يخشاه، وقد أصبح بين نارين ـ الفونس وأمراء الأندلس ـ أن يفقد ما ربحه في الزلاقة. انسحب الأمير يوسف من أمام الحصن مفسحاً الطريق لالفونس للوصول لإنقاذ الحامية، إذ كان ذلك هدفه ليس أكثر، لأنه بعد هزيمته في الزلاقة لم يتجرأ على خوض معركة مواجهة مع المرابطين. وصل الفونس إلى الحصن وأخرج من نجا من الموت وكان عددهم مئة فارس وألف راجل[1]، ورأى أن لا فائدة من الاحتفاظ به لأن ذلك يتطلب حامية كبيرة معرضة لمصير سابقتها، فقرر إخلاءه وتدميره[2] واسترجع ابن عباد الحصن بعد أن تركه النصارى إطلالاً.

رجع الأمير يوسف إلى لورقة، وترك أربعة آلاف مرابطي بقيادة داود ابن عائشة للمحافظة على منطقة مرسية[3]، وكذلك بعث بعسكر إلى بلنسية بقيادة محمد بن تاشفين[4].

وفي العام ٤٨٢ هـ/١٠٨٩ م عاد الأمير يوسف إلى المغرب وأخذ يستعد لتصفية أمراء الأندلس بعد أن تغيرت نفسه عليهم.

كانت حملة حصن لييط مناسبة كشفت الطيب من الخبيث رأى الأمير يوسف خلالها أنه إذا أريد للأندلس الإسلامية الاستمرار في البقاء ولحضارتها التطور والازدهار لا بدّ من إزاحة أولئك الذين أوصلوها إلى هذا الدرك من الانحطاط.

والعوامل التي دفعت الأمير يوسف إلى اتخاذ قراره متعددة منها ما هو خاص بالأندلس ومنها ما هو خاص بالمغرب ومرتبط بالمرابطين.

---

(١) روض القرطاس ص ٩٩.

(٢) الحلل ص ٥٠

Dozy. hist. des mus D'Esp. t. 3 p 140

(٣) دول الطوائف ص ٣٢٧.

(٤) الحلل ص ٥٠.

أ ـ العوامل الأندلسية

كانت للمجتمع الأندلسي خواصه التي تميزه وظروفه الموضوعية المرتبطة أوثق ارتباط بتاريخه وبنوعية المراحل التي مر بها لقد دخل الإسلام تلك البلاد التي كانت خاضعة لحكم اقطاعي وتفاعلت هذه المعطيات مع تعاليم الإسلام فنشأ مجتمع له ميزاته وخصائصه ـ كان المجتمع الأندلسي زراعياً يعتمد في حياته على الزرعة، ثم تليها الصناعة والتجارة لتكمل حاجات السكان، وسبل إنتاج وسائل العيش هذه بدرجاتها المختلفة من التطور لعبت الدور الأساسي في بناء المجتمع الأندلسي وتحديد علاقات أفراده ببعضهم، فالزراعة وسيلة الحياة الرئيسية أنشأت طبقتين منفصلتين طبقة غنية من الملاكين، هي أغنى طبقات المجتمع وبحكم غناها قبضت على زمام الحكم واستأثرت به تلك هي طبقة ملوك وأمراء الأندلس، والثانية طبقة الفلاحين الذين يرتبطون بالملاكين برباط التبعية والصناعة والتجارة أفرزت طبقة من أصحاب الأعمال الذين لم تسمح لهم على وجه العموم وسائل عملهم بالحصول على ثروات ضخمة تتيح لهم لأن يكونوا في عداد الطبقة الحاكمة. وحفلت المدن بعدد كبير من الناس يكسبون قوتهم مقابل الأعمال التي يقومون بها أولئك هم العامة من السكان. وهكذا أفرز المجتمع الأندلسي الإسلامي طبقتين منفصلتين طبقة الأمراء والملوك الغنية وطبقة الشعب التي تضم كافة أبناء الأندلس[1] من فلاحين وعمال وسائر العامة. فالطبقة الحاكمة استأثرت بالسلطة بعد سقوط الخلافة الأموية ـ بل إنها ساهمت مساهمة فعّالة في عملية الاسقاط تلك مستخدمة شتى الأساليب ـ وارتقى زعماؤها إلى ملوك وأمراء الأندلس انصرفوا للاهتمام بمصالحهم الخاصة دون الاهتمام بالرعية فشيدوا القصور الفخمة التي تحاكي قصور الخلفاء الأمويين، فقصر ابن ذي النون في

---

(١) المقصود بأبناء الأندلس المسلمون فقط لأن النصارى بدأوا في ظل ضعف هؤلاء الأمراء يتمنعون بامتيازات منها حماية ملوك إسبانيا النصارى لهم، وكذلك اليهود فقد استأثروا بالحكام ولم يتعرضوا للتعسف الذي كان يلقاه المسلمون.

طليطلة فاق الوصف، وكذلك قصور بني عباد في إشبيلية كالزاهر والمبارك. وغيرها. . واشتدت حاجة الملوك إلى الأموال للانفاق على حياة هذه القصور[1] ودفع الجزية لملوك النصارى لقاء عدم الاعتداء عليهم[2]، وتسديد رواتب الجنود المرتزقة الذين كانوا يجلبونهم لحراستهم، وتمويل الحرب التي تنشب بينهم. وللحصول على هذه المبالغ لجأوا إلى أساليب متعددة، فكانوا يصادرون أراضي المواطنين مستخدمين الأساليب التعسفية من طرد وفرض ضرائب باهظة مما يدفع أصحابها إلى هجرها فيضمونها إلى أملاكهم. أما الضرائب التي فرضوها فكانت بدعة في المجتمع الإسلامي لم ينص عليها القرآن فقد فرضوا جزية شهرية على رؤوس المسلمين تسمى القطيعة وضريبة على الأموال من الغنم والبقر والدواب والنحل وقبالات على كل ما يباع في الأسواق. يضاف إلى ظلمهم ضعف عقيدتهم الدينية «لو وجدوا في اعتناق النصرانية وسيلة لتحقيق أهوائهم ومصالحهم لما ترددوا»[3] هؤلاء الأمراء والملوك عندما هددهم النصارى الإسبان بالإستئصال، وأيقنوا أن أساليبهم السابقة للحفاظ على بقائهم باءت بالفشل لجاؤا إلى المرابطين لإنقاذهم، ولكن بعد الزلاقة ندموا على استدعاء المرابطين واتصلوا بالنصارى هذه المرة لإنقاذهم من المرابطين ودفعوا لهم الجزية من جديد. فابن رشيق صاحب مرسية قدم معونته للنصارى أثناء حصار لييط[4]. وعبد الله بن بلكين صاحب غرناطة يشير صراحة إلى اتصاله بالفونس عن طريق رسوله البرهانس وقد دفع له الجزية، ويبلغ به الاستخفاف أن أبلغ ذلك إلى الأمير يوسف: «لهذا الوقت يحتاج الإنسان ما أدخر ليصون به بلده وعرضه، وأنا جدير بأن أعطي من بيت مالي

---

(١) اشترى ابن رزين حاكم السهلة مغنية حسناء بمبلغ ثلاثة آلاف دينار، وتعد إماره فقيرة بالنسبة لغيرها.

(٢) كان القادر بن ذي النون يدفع للسيد مبلغ عشرة آلاف دينار سنوياً لقاء حمايته من الشعب في بلنسية.

(٣) محمد عبد الله عنان: دول الطوائف ص ٤٠٦ نقلاً عن رسالة لابن حزم.

(٤) مذكرات الأمير عبد الله بن زيري ص ١١٢.

بحيث يسلم البلد. . . . ورأيت مع ذلك أن أجدد معه عقداً ألا يعترض لي بلداً ولا يغدرني بعدها. . .» ثم خاطب الأمير يوسف: «ننص عليه جميع ما وقع وما دفعت الضرورة إليه وإن الحاضر أبصر من الغائب»[1]. وتجاوز أمراء الأندلس ذلك إلى استعداء الفونس على المرابطين المقيمين في ثغور الأندلس وخاصة أبناء بلكين بن زيري «كان منهم مداخلة الطاغية في عداوة يوسف»[2]. فكان لا بدّ من إزالة هؤلاء المتآمرين نتيجة ما اقترفته أيديهم الآثمة بحق الدين والوطن الأندلسي.

أما الشعب الأندلسي فكان مقهوراً مغلوباً على أمره غير قادر على الثورة، فقد جرده حكامه من كافة الأسلحة وسلطوا عليه سيف الإرهاب، فكان لا يجرؤ حتى على التعبير عن آرائه وأفكاره، واستخدم الأمراء المرتزقة وغالباً النصارى لإخماد أي تمرد أو بوادر ثورة وليت الحكام الجائرين يقومون بواجباتهم تجاه الرعية من تأمين الحرية والعدل وصد العدوان بل على العكس من ذلك فقد تركوا الشعب فريسة سهلة للنصارى الذين شنوا الغارات على أراضي المسلمين وأحرقوا المدن والقرى وشردوا السكان من ديارهم فأقفرت أكثر الثغور المتاخمة للنصارى فاستولوا على تلك المناطق بكل سهولة. رأى هذا الشعب المضطهد أن وطنه في خطر ولا يمكن أنقاذه إلا بإسقاط حكامه والاتحاد مع المغرب في ظل المرابطين بعدما رأى من عدلهم وتطبيقهم لأحكام الإسلام. وها هي الفرصة قد أتت فلا بدّ من اغتنامها وإلا ضاعت إلى الأبد.

كان يقود الشعب في معركته الصامتة قادته الروحيون ـ الفقهاء ـ الذين حظوا بمكانة مرموقة لدى الأمير يوسف، فكان يستشيرهم في الأمور المهمة، وبما أنهم المحرك الأساسي للشعب ومستودع أسراره، فقد لعبوا دوراً بارزاً في مجريات الأحداث في الأندلس لقد كانوا الوسطاء بين الشعب والأمير يوسف،

---

(١) مذكرات الأمير عبد الله بن زيري ص ١٢٥ و ١٢٧ العبر ج ٦ ص ١٨٧.

(٢) العبر ج ٦ ص ١٨٧ ـ ابن الكردبوس ص ١٠٤.

وقد أغبطهم عبوره الأول إليهم: «هذا على رغم أنوف الفسقة سلاطين الأندلس»[1]. وانتصاره في الزلاقة أزاح كابوساً ثقيلاً عن صدورهم، وأصبح بإمكانهم المجاهرة بآرائهم دون خوف من ملوكهم، وكان على رأسهم قاضي غرناطة ابن القلاعي، فقد توطدت العلاقة بينه وبين الأمير يوسف منذ ذهاب أول بعثة إلى المغرب لطلب النجدة إذ كان أحد أعضائها، وكان يؤمن بأن الأمير يوسف ذو ضمير حي لا يسكت على مظالم ومفاسد حكام الأندلس. وقد نصب خيمته بالقرب من مركز الأمير ولاقت أقواله ضد الحكام تجاوباً لدى الأمير، وبلغت تلك الأقوال الأمير عبد الله صاحب غرناطة فاعتقله ولكنه اضطر إلى إطلاق سراحه، ففر إلى قرطبة ومنها اتصل بالأمير وأطلعه على جلية الأمور[2]، وافتى بخلع ملوك الطوائف. وبالإضافة إلى فتوى القاضي ابن القلاعي، فقد تلقى الأمير يوسف فتاوى فقهاء الأندلس والمغرب بوجوب خلعهم، وقد وردت عليه فتاوى فقهاء المشرق بهذا الأمر وفي مقدمتهم الإمام الغزالي وأبو بكر الطرطوشي[3].

ب ـ العوامل المغربية

عامل مهم يضطرم به كل متغلب إلا وهو شهوة الفتح، فالمراكشي[4] يذكر «أن الأمير يوسف قد تجول في الأندلس عقب الزلافة للتفرج والنزهة وهو يريد غير ذلك، وكان يصغر من قدر الجزيرة وإنها كانت عظيمة قبل رؤيتها ولكنها الآن لا تستحق الأهمية المعطاة لها» ولكنه كان يسر لبعض ثقاته: «كنت أظن أني قد ملكت شيئاً فلما رأيت تلك البلاد صغرت في عيني

---

(١) مذكرات الأمير عبد الله بن زيري ص ١١٨.

(٢) مذكرات الأمير عبد الله ص ١١٩.

Dozy: hist. des mus. D'Espagne t. 3. p. 141 - 142

(٣) العبر ج ٦ ص ١٨٧ ـ ابن الخطيب: أعمال الأعلام تحقيق د. عبادي ص ٢٥٠.

Hamet: hist. du maghreb p. 88

(٤) المعجب ص ١٣٣ ـ ١٣٥.

مملكتي، فكيف الحيلة في تحصيلها؟»[1] وقد أمعن الأمير يوسف التجول في كورة إشبيلية وراقه غناها وجذبته خصوبة أرضها، ففيها الرساتيق على مسيرة عشرين فرسخاً عامرة بالضياع كلها تين وعنب وزيتون ويوسف قضى مرحلة طويلة من حياته في صحراء قاحلة، فأخذ يخطط لضم تلك البلاد إلى مملكته. وكذلك لفت غناها انتباه المرابطين فهم بدو صحراويون قضوا حياتهم في شظف العيش وقد قدموا كثيراً من الدماء للذود عن تلك البلاد فأخذوا يشعرون بأنهم أولى بهذه النعم من أمرائها المتخاذلين الذين أوردوها مورد التهلكة. بالإضافة إلى ذلك فقد أدرك الأمير يوسف وهو القائد المحنك أهمية الصلة الحربية بين العدوتين، أدرك أن سقوط الأندلس بيد الإسبان معناها سقوط خط الدفاع الشمالي للمغرب مما يؤدي إلى تهديد السواحل المغربية من قبل الأعداء، فلا بد من اتخاذ الإجراءات قبل حدوث الكارثة[2].

وهكذا كان ضم المرابطين للأندلس استجابة لنداء الشعب بإيعاز من الفقهاء لإنقاذ الأندلس من السقوط المحتم بيد الإسبان وبالتالي دفاعاً عن المغرب.

---

(١) المعجب ص ١٣٨.

(٢) التاريخ قديمه وحديثه يذكر أن أية قوة كانت تصل إلى أحدى ضفتي البحر المتوسط على مضيق جبل طارق كانت تجتاح المنطقة الثانية، فالوندال لما وصلوا إلى حنوب الأندلس اجتاحوا بلاد المغرب وقبلهم الفينيقيون، وإن من الناحية التجارية ـ بعد وصولهم إلى أطراف المغرب أقاموا المستعمرات على سواحل إسبانيا، والعرب عندما أتموا فتح المغرب الأقصى استولوا على الأندلس، وفي التاريخ الحديث بعد أن طرد الإسبان المسلمين العرب من الأندلس اجتاحوا المغرب ولا تزال حتى الآن مدينة سبتة مستعمرة إسبانيا حتى الآن.

الفصل الخامس

ضم الأندلس إلى الدولة المرابطية

١ ـ الجواز الثالث: حصار طليطلة ضم غرناطة ومالقة.

٢ ـ ضم مملكة بني عباد: المعتمد يمني نفسه بغرناطة ـ خيبة أمله ـ التحالف الأندلسي ضد المرابطين ـ المعتمد يرفض لقاء يوسف وشروطه ـ عودة يوسف إلى المغرب ـ القيادة بيد سير ـ بدء العمليات العسكرية ـ سقوط طريف ـ المعتمد يستنجد بالفونس ـ حصار المدن ـ سقوط جيان ـ وقرطبة ـ نجدة الفونس ومعركة حصن المدور ـ حصار إشبيلية ـ المؤامرة الداخلية ـ إحراق الأسطول ـ دخول إشبيلية ـ استسلام المعتمد ـ استمرار المقاومة من قبل أبناء المعتمد ـ مقتلهم ـ أسره، نفيه وسجنه، مأساته.

٣ ـ ضم المرية.

٤ ـ ضم مرسية ووبره ودانية.

٥ ـ ضم بلنسية: الخلاف بين الفونس والكمبيادور ـ ابن جحاف يستغل الوضع ـ اتصاله بالمرابطين ـ ابن جحاف يسيطر على المدينة ـ التخلص من القادر ـ بلنسية جمهورية ـ غضب الكمبيادور ـ حصار المدينة ـ قبول القاضي بشروطه ـ التشدد والتضييق على المدينة ـ سقوطها بيد الكمبيادور ـ إعدام ابن جحاف ـ غضب الأمير يوسف ـ الجيش المرابطي بقيادة ابن عائشة ـ وفاة السيد ـ مزدلي يتسرجع المدينة وأثر ذلك.

٦ ـ معارك شرق الأندلس: معركة كنثرة ـ استعاد جزيرة شقر ـ حصار

طليطلة ـ استنجاد ابن هود ـ حملة الفونس على إشبيلية ـ تراجعه.

٧ ـ المرابطون وسرقسطة ـ أثر العبور الأول على ابن هود ـ قبول الأمير يوسف عذر ابن هود ـ سفارة ابن هود ـ العلاقات الجيدة بين المرابطين في عهد يوسف وابن هود.

٨ ـ الجواز الأخير: أخذ البيعة لولده علي في قرطبة وأسباب اختيار المدينة ـ خطاب الولاية.

٩ ـ مرض يوسف ـ وفاته. ما قال فيه كبار المؤرخين.

في عام ٤٨٣ هـ/ ١٠٩٠ م عبر الأمير يوسف البحر إلى الأندلس ـ للمرة الثالثة ـ برسم الجهاد[1] وعبوره هذه المرة دون طلب استغاثة أو نجدة، كما حدث في الجوازين السابقين، وسار توأً إلى طليطلة مجتاحاً أراضي قشتالة، كان يرغب في استرجاع المدينة ليشفي جرح الأندلس الدامي فيزداد تعلق لأندلسيين به. وعاث المرابطون في أحواز طليطلة وخربوا ودمروا وأحرقوا ثم مربو الحصار حول المدينة الضائعة وفيها الفونس، ولكن الأمير يوسف تراجع مام أسوارها المنيعة وارتد نحو الجنوب، كل ذلك ولم يتقدم أحد من لأندلسيين لمساعدته ضد عدوهم اللدود[2].

يمم الأمير يوسف نحو غرناطة وبها الأمير عبد الله بن بلكين بن باديس بن زيري الصنهاجي، ويمت بصلة القرابة للأمير يوسف[3]، وكان الأمير عبد الله قد فاق غيره من أمراء الأندلس بالخيانة والتآمر والاتصال بالعدو، وقد وشى به للأمير يوسف مولاه مؤمل. وبعد حملة حصن لييط عمد عبد الله

(١) روض القرطاس ص ٩٩ ـ الحلل ص ٥٠ ـ الاستقصا ج ١ ص ١٢٠ ـ أعمال الأعلام: تحقيق د. عبادي ص ٢٥٠ ـ المغرب الكبير ص ٧٣١.
ـ الأندلس في عهد المرابطين ص ٩٣. دائرة المعارف: ج ٥ ص ٢٣٩ مادة أبو يعقوب.
(٢) روض القرطاس ص ٩٩ ـ الاستقصا ص ١٢٠ ـ دائرة المعارف ص ٢٣٩.
(٣) مذكرات الأمير عبد الله بن زيري ص ١٠٤ وقد ورد «خاصة إنه من أهل القرابة ـ أي الأمير يوسف».

إلى تشييد الحصون والاستعداد لحصار طويل الأجل من إقامة الأجباب وإعداد المطاحن وأنواع العدد من التراس والنبل والعرادات وجميع الأقوات[1]، استعداداً لمقاومة المرابطين. وكان يستخف بالجيش المرابطي: «وكم عسى الجيش القادم على أن يعم جميع البلاد، ومحاولة معقل واحد منها تطول وتحدث في خلاله أحوال»[2].

قسم الأمير يوسف جيشه إلى فرق أرسل أحداها إلى غرناطة للاستيلاء عليها[3]. وضربت بقية الفرق شبه حصار على كورتها[4] لمراقبة الحصون من تغلغل النصارى لمساعدة حليفهم، وطلب قادة الجيش المرابطي القوت من الأمير عبد الله فسارع إلى تلبية حاجاتهم[5]، وزاد على ذلك فأرسل إلى الأمير يوسف بعثة من الفقهاء مؤلفة من ابن سهل القاضي وباديس بن واروى من تلكانة[6] لإعلامه بأنه ابنه وأنه غير مخالف له، فتآمرت البعثة عليه أمام الأمير يوسف، وقال ابن واروى: «أرسلَنا للخدمة له في زعمه ولم نصنع غير أني كتفته والقاضي ضرب عنقه»[7]. وطلب منه الأمير يوسف أن يأتي إليه دون تأخير! فارتاب واعتذر وأرسل إليه رسولين هما ابن حجاج وابن ما شاء الله[8] فاعتقلهما الأمير وكبلهما بالحديد، وقال: «والله إني غزوته كما نغزو الفونس، والذي يقدر عليه فليصنع»[9]. وأرسل إلى الكور والحصون كتباً[10] يدعوها لعدم المقاومة، وأول مدينة أرسل إليها هي اليسانة وقد حمل الكتب

---

(1) روض القرطاس ص ٩٩ ـ مذكرات الأمير عبد الله ص ١٢٠.

(2) مذكرات الأمير عبد الله بن زيري ص ١٢٠.

(3) مذكرات الأمير عبد الله ص ١٤٩.

(4) روض القرطاس ص ١٠٠.

(5) مذكرات الأمير عبد الله ص ١٤٩.

(6) مذكرات الأمير عبد الله ص ١٢٧.

(7) مذكرات الأمير عبد الله ص ١٤٦.

(8) مذكرات الأمير عبد الله ص ١٤٧.

(9) مذكرات الأمير عبد الله ص ١٤٧.

(10) مذكرات الأمير عبد الله ص ١٤٨.

نعمان الساعي، ومما جاء فيها: «أما بعد فقد جاء الحق وزهق الباطل أن الباطل كان زهوقاً[(١)]. وإن لم تطوعونا فأذنوا بحرب من الله ورسوله»[(٢)]. ولدى ورود كتب الأمير يوسف إلى الحصون والمعاقل أطاعه أهلها وسر القوم بذلك[(٣)] فأخرجوا عمال الأمير عبد الله، حتى أن الحصن الذي كان يمتنع تكفلت الرعية بحربه إلى جانب المرابطين حتى يستسلم[(٤)]. وأخيراً وصل الجيش المرابطي إلى غرناطة وضرب عليها الحصار مدة شهرين[(٥)]، وبداخلها الأمير عبد الله فاشتد عليه الأمر وطلب الأمان من الأمير يوسف، فأرسل إليه مع الفقيه ابن سعدون أن لا طاعة ولا صلح إلا بالخروج إليه، وكتاب الأمان في النفس والأهل دون المال[(٦)]، وخيره إن لم يكن لديه رغبة في الشخوص إليه فعليه مغادرة غرناطة إلى أي مكان يشاء[(٧)]. واضطربت الأحوال داخل المدينة المحاصرة فالجنود البربر غمرهم السرور، والتجار لا طاقة لهم على الحرب، أما الرعية فهذا ما كانت تتمناه منذ زمن بعيد طمعاً في الحرية والكرامة والتخلص من الضرائب الفادحة، إذ أن الأمير يوسف لا يلزمها إلا بما أقرته الشريعة الإسلامية من عُشر وزكاة[(٨)]. وأمام هذه الحالة التي تحمل على اليأس، فتح الأمير عبد الله أبواب غرناطة أمام الجيش المرابطي، وخرج مستسلماً للأمير يوسف الذي قدم في أثر جيشه إلى المدينة، فاستقبله الأمير بسرور وترحاب وكرر له إعلان الأمان في الأنفس والأهل، وعهد الأمير

---

(١) القرآن الكريم. سورة الإسراء آية ٨١ ويذكر هذا الكتاب بلاغات الانقلابات العسكرية المعاصرة.

(٢) القرآن الكريم: سورة البقرة آية ٢٧٩.

(٣) ابن الكردبوس ص ١٠٥.

(٤) لم يرد ذكر أي حصن تمرد خوفاً من الرعية التي كانت على استعداد لمقاومة أي تمرد.

(٥) روض القرطاس ص ٩٩ ـ الاستقصا ج ١ ص ١٢٠

Hamet Hist du Magh p. 87

(٦) روض القرطاس ص ١٠٠ ـ الاستقصا ص ١٢٠ ـ دائرة المعارف ج ٥ ص ٢٣٩ ـ مذكرات الأمير عبد الله بن زيري ص ١٤٩.

(٧) مذكرات الأمير عبد الله ص ١٤٩

(٨) مذكرات الأمير عبد الله ص ١٥٠.

يوسف إلى جرور بمراقبة عبد الله حتى يقف على أمواله[1]، ثم أرسله إلى الجزيرة الخضراء ومنها إلى سبتة. وفيها قيل له انتظر حتى يحضر الأمير، ثم نقل إلى مكناسة وفيها تلقاه الأمير سير الذي أخبره بأن مقامه عنده إلى أن يرد أمر من الأندلس بشأنه، وهناك أرسل إليه الأمير يوسف مئة دينار ثم اتبعها بثلاثمائة دينار أخرى، وخاطبه بكتاب فيه كل جميل: «لا أنساك ما بقيت»[2].

وصادر الأمير يوسف جميع الأموال التي كانت بحوزة الأمير عبد الله، وكان قد جمعها جده باديس ودفنها عبد الله في داره[3] ووزع بعضها على كبار قواده، وكانت قصوره تحوي من الأموال والنفائس أكثر من أي ملك آخر، وكان من جملة المجوهرات سبحة فيها أربعمائة جوهرة قدرت كل واحدة منها بمائة ألف دينار بالإضافة إلى الثياب والأثاث[4]، مما أدهش المرابطين.

بعد أن فرغ الأمير يوسف من ضم غرناطة إلى مملكته وجه جيشه نحو مالقة وفيها تميم بن بلكين بن باديس - شقيق عبد الله - فأسلم البلد للأمير بلا قتال وضرب الدراهم المرابطية[5] مما أسبغ عليه رضى الأمير، وهذا ما جعله مفضلا على أقرانه. ونقل تميم إلى السوس وقد أوصى به الأمير يوسف ألى يزلف وبالغ في إكرامه، وكان في عافية ورغد في العيش[6].

وقد أمضى أولاد باديس بقية حياتهما في منفاهما بالمغرب[7].

---

(١) مذكرات الأمير عبد الله بن زيري ص ١٥٤

(٢) مذكرات الأمير عبد الله ص ١٦٠ و ١٦١ بغية الملتمس ص ٣٢.

(٣) مذكرات الأمير عبد الله ص ١٥٥.

(٤) الكامل ١٠ ص ١٥٥ - نفح الطيب ج ٦ ص ١٠٧ - الروض المعطار ص ٩٦.

(٥) مذكرات الأمير عبد الله ص ١٦٢ وتميم أول من ضرب الدراهم المرابطية من أمراء الأندلس.

(٦) مذكرات الأمير عبد الله ص ١٦٢ و ١٦٣ - الاستقصا ج ١ ص ١٢٠.

(٧) روض القرطاس ص ١٠٠ ويذكر أن الإقامة كانت في مراكش وكذلك السلاوي في الاستقصا ص ١٢٠ بينما يشير ابن الخطيب في الحلل أن الإقامة كانت في أغمات ص ٥١ بينما ابن =

وهكذا ضم الأمير يوسف غرناطة ومالقة وأحوازهما في رجب ٤٨٣ هـ/ أيلول ١٠٩٠ م وأصبحت المنطقة ضمن السيادة المرابطية فالغيت الضرائب الجائرة واجتزىء ما نص عليه القرآن الكريم[١].

ضم مملكة المعتمد إلى الدولة المرابطية

بعد دخول الأمير يوسف إلى غرناطة قدم المعتمد بن عباد والمتوكل بن الأفطس لتهنئته بالنصر، وأرسل المعتصم بن صمادح ابنه كذلك[٢]. وكان المعتمد يمني نفسه بامتلاك غرناطة، إذ يشير الأمير عبد الله في مذكراته إلى أن الأمير يوسف وعده بإعطائه المدينة[٣] قائلاً له: «أنا رجل مغربي وليس قدمي أخذ مال ولا بلاد، وقد ترى ما رفع على صاحب غرناطة وتتوقع عليها من الرومي، وليس غرضي أكثر من تخليصها، فإذا صارت في يدي ولا يمكنني إمساكها لبين بلاد الأندلس من العدوة وضعتها عند ذلك في يدك فتكون أعلم بما تصنع بها وأقعد لما يصلح للمسلمين»[٤]. كان الأمير يوسف يهدف من عمله هذا أن يبقي المعتمد خارج نطاق معركة غرناطة فلا يتدخل إلى جانب الأمير عبد الله خاصة وقد بعث بكتب إلى ملوك الأندلس يطلب منهم المساعدة ضد المرابطين ويحذرهم من أن دورهم آت «فاليوم بي وغدا بكم»[٥]. والهدف الآخر الذي قصده يوسف من وعد المعتمد بغرناطة إظهار ملوك الأندلس أمام المسلمين وقد أعماهم الحقد والتآمر على بعضهم.

استقبل الأمير يوسف الوفد بفتور مظهراً تغيره عليهم كما اعتقل ابن

= خلدون يذكر في الجزء السادس أن الأمير يوسف بعث بهما إلى المغرب. العبر ج ٦ ص ١٨٧ - بغية الملتمس ص ٣٢.

(١) Dozy: Histoire des Mus D'esp. t 3 p. 144

(٢) الحلل ص ٥١ Histoire des Mus p. 145

(٣) الاستقصا ج ١ ص ١٢٠.

(٤) مذكرات الأمير عبد الأمير عبد الله ص ١٦٤.

(٥) مذكرات الأمير عبد الله بن زيري ص ١٦٦.

المعتصم بن صمادح[1]. وهنا أخذ الندم المعتمد وأدرك فداحة الخطأ الذي ارتكبه ـ ولكن بعد فوات الأوان ـ باستدعاء المرابطين إلى الأندلس[2]، وقال للمتوكل: «والله لا بدّ له من أن يسقينا من الكأس التي أسقى بها عبد الله بن بلكين»[3]. وانصرفا إلى بلادهما ولسان حالهما يقول انج سعد فقد هلك سعيد[4]. ووجها دعوة إلى أمراء الأندلس لعقد حلف لمقاومة الاحتلال المرابطي»[5]، وأجريا كذلك اتصالات مع الفونس وتحالفا معه ضد الأمير يوسف[6]، وشرعا في تحصين البلاد فقد وصل المعتمد إلى إشبيلة وبدأ بالاستعداد للمقاومة، فباشر في ترميم الأسوار والقنطرة[7]، فقال له ابنه الرشيد: «ألم أقل لك يا أبت يخرجنا هذا الصحراوي من بلادنا إن أنت أوردته علينا؟ فأجاب المعتمد: يا بني لا ينجي حذر من قدر»[8]. «ولم يكن المعتمد يدري أن تدميره في تدبيره وسل سيفاً له لم يدر أنه عليه»[9]. ولعب الوشاة دوراً بارزاً في توتير الأجواء بين الأمير يوسف والمعتمد، فدعا الأمير يوسف المعتمد للقاء معه للتشاور فامتنع المعتمد عن اللقاء قائلاً: «إن ذلك كان وقت كنت ضيفاً وتريد الغزو، فلزمتني معونتك بنفسي وجميع أموالي. والآن وأنت جار لي مثل باديس وحفيده وأنت أقدر مني على الشر بجنودك فلا يمكنني التغرير بنفسي، عسى أن تريد أخذ بلدي، إذ لا تصح لك غرناطة إلا بما يضاف إليها من الأندلس»[10]. وهذا الرفض من قبل المعتمد اتخذه

---

(1) Dozy: Histoire des Mus. D'Esp. t. 3 p.145

(2) الحلل ص ٥١

Dozy: Histoire des Mus. D'Esp. t 3. p 145

(3) الحلل ص ٥٢ Hist. des Mus. P. 145.

(4) مثل عربي قديم

(5) Histoire des Mus. D'Esp. t. 3. P. 145

(6) يبدو أنهما لم يوفقا في عقد الحلف بين أمراء الأندلس فاتجها نحو الفونس.

(7) الحلل ص ٥٢.

(8) الحلل ص ٥٢.

(9) هذا القول للمراكشي ورد في المعجب ص ١٣١.

(10) مذكرات الأمير عبد الله بن زيري ص ١٦٩.

الأمير يوسف ذريعة لقتاله[1]. ومع ذلك لم يقدم الأمير يوسف على إرسال جيشه لمحاربة المعتمد بل أراد أن يمنحه فرصة أخيرة علها تجنب الفريقين معركة تهرق فيها دماء المسلمين، فطلب إليه أن يطبق أحكام الشرع وألّا يفرض الضرائب المخالفة لتعاليم الإسلام وأن يرابط في الثغور للذود عن حياض المسلمين[2]. وامتنع المعتمد عن الإجابة، فكان ذلك بمثابة إعلان الحرب على الأمير يوسف، فعاد إلى المغرب واستقر بسبتة في رمضان ٤٨٣ هـ/ تشرين الثاني ١٠٩٠ م[3] وبدأ بالاستعداد لضم الأندلس كلها إلى مملكته وقال: «إنما غرضنا في ملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدي الروم لما رأينا استيلاءهم على أكثرها... ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التي ملكها الروم في طول هذه الفتنة إلى المسلمين ولأملأنها عليهم خيلاً ورجالاً لا عهد لهم بالدعة ولا علم عندهم برخاء العيش، إنما هم أحدهم فرس يروضه ويستفرهه أو سلاح يستجديه أو صراخ يلبي دعوته»[4]. وفوض جميع الأمور من سياسية وعسكرية إلى القائد سير بن أبي بكر[5] وطلب إليه فتح إشبيلية ومتى تم له ذلك فليتقدم إلى بلاد ابن الأفطس لفتح حاضرته بطليوس[6]، وقدّم أبا عبد الله بن محمد بن الحاج على جيش آخر وأمره بالتقدم نحو قرطبة حيث الفتح بن المعتمد الملقب بالمأمون، وقدم زكريا بن واسنوا على جيش ثالث وأمره بمهاجمة المعتصم محمد بن معز بن صمادح صاحب المرية، وجرورا الحشمي على جيش رابع وأمره بمنازلة الراضي يزيد بن المعتمد في رندة[7]، وأمرهم بالتقدم لتحقيق أهدافهم حسب الخطة التي

---

(١) مذكرات الأمير عبد الله ص ١٦٩.

(٢) مذكرات الأمير عد الله ص ١٦٩.

(٣) روض القرطاس ص ١٠٠ ـ الحلل ص ٥٢ ويذكر صاحبها أن السنة كانت ٤٨٤ هـ/١٠٨٩ م.

(٤) المعجب ص ١٦٢ و ١٦٣.

(٥) الحلل ص ٥٢ بغية الملتمس ص ٣٢.

(٦) الحلل ص ٥٢ ـ أعمال الأعلام: تحقيق د. عبادي ص ٢٥٠ روض القرطاس ص ١٠٠.

(٧) الحلل ص ٥٢ ـ أعمال الأعلام ص ٢٥١ وقد ورد اسم غروز بدل جرور وقد أمره يوسف بالسير نحو بني الأفطس.

رسمها لهم وانتظر النتائج، وكأن المعارك لم تستحوذ على كل جهوده وتفكيره، فقد اهتم ببناء المسجد الجامع في سبتة وزاد فيه حتى أشرف على البحر، وبنى البلاط الأعظم منه، وأمر ببناء السور السفلي للميناء[1].

بدأت العلمليات العسكرية فسقطت طريف بيد القائد سير في ذي القعدة ٤٨٣ هـ/ كانون الثاني ١٠٩١ ونادى المرابطون فيها بدعوة أمير المسلمين يوسف فتردد صداها في الأندلس من أقصاها إلى أقصاها[2]. وتابع سيره شمالاً نحو إشبيلية[3]، وهو يعتقد أن المعتمد سيخرج للقائه بالضيافات، لكنه لم يفعل بل تحصن داخل حاضرته[4]. كانت غاية سير من الهجوم على إشبيلية توجيه ضربة قاصمة للمعتمد إذ أنه أقوى ملوك الطوائف وأكثرهم غنى وجاهاً وأوسعهم مملكة، وإنه متى تمكن من إسقاطه تكون معركة ضم الأندلس للسيادة المرابطية قد انتهت لصالح المرابطين، ولم يبق على القائد سير سوى القيام بمظاهرة عسكرية على بقية الدويلات أكثر منها معركة حربية. وإذا حُمَّ القضاء على أمرىء فإنه يلجأ إلى أهون الأمور بنظره، فلجأ المعتمد إلى الإسبان وطلب المساعدة من الفونس للدفاع عن مملكته ضد المرابطين ولو يوماً واحداً: «كنت ألام، أما بعد إن رأيت طلبي في الرومي اضطرتني الضرورة إلى ذلك للمدافعة ولو يوماً واحداً»[5]. وجرت الحرب بين الفريقين المرابطي والإشبيلي، كانت حرب حصار لا قتال، كان المعتمد يريد من ذلك إنهاك قوى المرابطين بحرب الحصار حتى تأتيه نجدة الإسبان، فيتمكن من القضاء عليهم إذ لا طاقة له على مواجهة عسكرية معهم لوحده.

---

(١) الحلل ص ٥٢.

(٢) المعجب ص ١٠٣٩.

(٣) روض القرطاس ص ١٠٠.

(٤) روض القرطاس ص ١٠٠.

(٥) مذكرات الأمير عبد الله بن زيري ص ١٦٩.

وصل القائد سير إلى إشبيلية وضرب عليها الحصار، وكذلك وصلت بقية الجيوش إلى أهدافها فوصل جرور الحشمي إلى رندة وحاصرها وكذلك محمد بن الحاج إلى قرطبة، وأرسل سير فرقة من جيشه الذي يحاصر إشبيلية إلى مدينة جيان بقيادة بطي بن إسماعيل فدخلها صلحاً[1]، وكانت المدينة الثانية التي تسقط بيد المرابطين بعد طريف، وبعث سير إلى الأمير يوسف يخبره بسقوطها. وبعد أن أتم بطي فتح جيان أمره سير بالتقدم نحو قرطبة لمساعدة ابن الحاج الذي كان يحاصرها، وكان حاكمها الفتح بن المعتمد قد تحصن بداخلها وأرسل زوجته وأولاده إلى حصن المدور بعد أن شحنه بالعدة والعدد[2]، وبذلك تكون عائلته بمأمن من الخطر وتلوذ بحمى ملك الإسبان إذا ساءت الأحوال وسقطت قرطبة، وأقام بعد ذلك في القصر مضطرباً خائفاً من المصير المجهول المرتقب. كان المعتمد حذراً على قرطبة من السقوط بأيدي المرابطين، فهي حاضرة الخلافة الأموية وقوة معنوية دافعة له ولمملكته ويرجو بقاء حاله بثبوتها فأوصى ابنه بالصبر قائلاً: «لا تجزع فالموت أهون من الذل وليس السلطان إلا من القصر إلى القبر»[3]. وأبلى الفتح البلاء الحسن في الدفاع عن نفسه والمدينة وأظهر جلداً وصبراً، ولكن رغم كل ذلك لم يتمكن من الصمود طويلاً أمام المرابطين، فقد اضطربت الأحوال داخل المدينة، إذ تآمرت جماعة من العامة مع المرابطين على فتح أبوابها وفق خطة محكمة[4] وهذه الجماعة ناقمة على سياسة المعتمد وقد أتاها الغوث بقدوم المرابطين، وانثلمت بعض الأسوار وأحدث المرابطون فيها فتحات. ودخل المرابطون حاضرة الخلافة الأموية نهار الأربعاء ٣ صفر ٤٨٤ هـ/٢٦ أذار ١٠٩١ م[5].

---

(١) روض القرطاس ص ١٠٠ ـ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ص ٩٥.

(٢) الفتح بن خاقان: قلائد العقيان ص ٢٢.

(٣) مذكرات الأمير عبد الله بن زيري ص ١٧٠.

(٤) ابن خاقان: قلائد العقيان ص ٢٢ ـ مذكرات الأمير عبد الله بن زيري ص ١٠٧.

(٥) روض القرطاس ص ١٠٠ ـ المعجب ص ١٤٠ ـ الاستقصا ج ١ ص ١٢٠ ـ دائرة المعارف ج ٥ ص ٢٣٩.

بعد حصار دام ثلاثة أشهر. وحاول الفتح أن يشق طريقه بالسيف إلى خارج المدينة ولكنه قتل[1]، واحتز المرابطون رأسه مع الوزيرين ابن زيدون وابن بكر[2].

أقام القائد بطي فيها وأحكم السيطرة على حصونها، وبعد أن اطمأن إلى أحوالها بعث إلى قلعة رباح قاصية بلاد المسلمين قائداً مرابطياً من لمتونة بألف فارس فاستولى عليها[3]. وتابع المرابطون تقدمهم فاستولوا على بياسة وابدة وحصن البلاط والمدور والصخيرة وشقورة، وتناثرت حصون ابن عباد ودخلها المرابطون ظافرين في أقل من شهر[4]، وهاجم القائد سير قرمونة واستولى عليها عنوة وذلك نهار السبت ١٧ ربيع الأول ٤٨٤ هـ/١٢ أيار ١٠٩١ م[5] وبذلك اقترب المرابطون من طليطلة وهددوها من جديد بعد أن أضحت على مرمى حجر منهم. وتفرغ سير إلى إشبيلية بعد أن خضعت له أكثر حصون ابن عباد، فأطبق عليها بأكثر قواته وسيّر نحوها جيشين الأول من الشرق والثاني من الغرب حيث الوادي الكبير وفيه الأسطول الذي يوفر للمدينة الحماية والمؤونة. وأصبح وضع المعتمد حرجاً للغاية فانقطع الرجاء أمامه وضاقت به السبل، إذ أنه لا يقوى على مقاومة المرابطين المؤيّدين من الشعب الأندلسي وأيقن أن ثباته مزعزع وأن النهاية باتت محتومة، فجدد استغاثته بالفونس ووعده بأن يعطيه الطارف والتليد[6]، إذ أضحى الأمل

= Hamet: Hist. du Mag. P. 88 - Dozy: Hits. des Mus. D'Espagne T. 3. p. 148.
- بغية الملتمس ص ٣٢.

(١) مذكرات الأمير عبد الله ص ١٧٠ ـ المعجب ص ١٣٩ ـ الاستقصا ص ١٢٠ ـ العبر ج ٦ ص ١٨٧ ـ الأندلس في عهد المرابطين ص ٩٥

Histoire des Mus. P. 148.

(٢) مذكرات الأمير عبد الله ص ١٧٠.

(٣) روض القرطاس ص ١٠٠ ـ تاريخ الأندلس في عهد المرابطين ص ٨٥.

(٤) روض القرطاس ص ١٠٠ ـ الاستقصا ج ١ ص ١٢٠.

(٥) روض القرطاس ص ١٠٠ ـ الاستقصا ص ١٢٠.

(٦) روض القرطاس ص ١٠٠ ـ العبر ج ٦ ص ١٨٧ ـ الكامل ج ١٠ ص ١٨٩ ـ الاستقصا =

الوحيد بالنسبة له، ووجد الفونس الفرصة سانحة للثأر من العدو المرابطي المغربي الذي أذاقه الهزائم المتعددة، وشعر كذلك بأن رباطاً وثيقاً يشده إلى حكام الأندلس المسلمين ألا وهو الشعور[1] بالخطر المشترك الخارجي الذي يهدد شبه الجزيرة الأيبرية. فخطر المرابطين وحد بين أعداء الأمس من أمراء الأندلس ونصارى الشمال الذين فضلوا بقاء حكام الأندلس الضعفاء على وجود حاكم مسلم قوي من طراز الأمير يوسف يهدد حكم الجميع.

وبادر الفونس إلى إرسال جيش بقيادة البرهانس[2] مؤلف من أربعين ألف راجل وعشرين ألف فارس ولكن هذه النجدة لم تجدِ نفعاً، إذ سرعان ما اختار القائد سير عشرة آلاف فارس من خيرة المرابطين بقيادة ابراهيم بن إسحاق اللمتوني[3]، والتقى الجيشان على مقربة من حصن المدور حيث دارت معركة رهيبة استشهد فيها كثير من المرابطين وقد منحهم الله النصر فهزموا النصارى[4]. وانهارت أمال المعتمد بنجدة الفونس فقرر الاعتماد على قائم سيفه، واستمر في الدفاع مع يقينه بأن معركته خاسرة، وعهد بالدفاع عن المدينة إلى ابنه الرشيد[5]. وكأن الخطر الخارجي لم يكفِ المعتمد وآله، إذ فجرت العامة الثورة داخل المدينة وحاول الثوار فتح الأبواب للمرابطين[6]

= ج ١ ص ١٢٠ ـ الأندلس في عهد المرابطين ص ٩٦.

Dozy: Hist. des Mus. P. 149. Hamet. P. 88.

(١) هذا الشعور تبلور في العصر الحديث والمعاصر بالشعور القومي.

Histoire des. Mag. P 88

(٢) Dozy· Histoire des Mus. D'Esp. t. 3 p. 149

(٣) روض القرطاس ص ١٠٠ ـ الاستقصا ج ١ ص ١٢٠ ـ الأندلس ص ٩٦.

(٤) روض القرطاس ص ١٠١ ـ الكامل ج ١٠ ص ١٩٠ ـ الاستقصا ج ١ ص ١٢٠ ـ الأندلس في عهد المرابطين ص ٩٦.

Dozy: Hist. des Mus. D'Esp. t. 3 p. 150. Hamet: Hist. Mag. p. 88

(٥) Dozy: Hist des Mus. D'Esp t 3. p. 148

(٦) المعجب ص ١٤٠ ـ قلائد العقيان ص ٢٣.

Dozy: Hist. Mus. p. 149

وذلك نهار الثلاثاء منتصف رجب ٤٨٤ هـ/ تشرين الأول ١٠٩١ م[١].
ولكن المحاولة فشلت وألقى المعتمد القبض على المتآمرين، وبدل أن يحاكمهم فضل أن ينهي حياته السياسية دون إراقة دماء فعفا عنهم وأطلق سراحهم[٢].
وفي هذه الأثناء تسلل المرابطون من فتحه السور عند باب الفرج واقتحموا المدينة فأسرع المعتمد من مقره بلا درع ولا درق لردع الداخلين، واستطاع أن يهزمهم فنزل المتسنمون عن الأسوار ولاذوا بالفرار وسد المعتمد الثلمة[٣] واعتقد سكان إشبيلية أن الخطر قد زال فتنفسوا الصعداء، لكن الأمل لم يطل كثيراً إذ تمكن المرابطون من إحراق الأسطول الراسي في الوادي الكبير[٤] وكان الحامية القوية للمدينة، وهذا العمل أشاع الذعر بين الإشبيليين إذ أن خط الدفاع الأول عن المدينة قد انهار وباتت المدينة تنتظر سقوطها بين لحظة وأخرى. ورغم ذلك فقد استمات المعتمد مع جيشه في القتال مما أدهش القائد سير إذ قال: «لو أني أقصد مدينة الشرك لم تمتنع هذا الامتناع»[٥].
فشدد هجماته العنيفة عليها، وظهر عليها من البر رجل مرابطي من أصحاب الأمير يوسف يدعى حدير بن واسنوا ومن الوادي الكبير القائد أبو حمامة مولى بني سجوت[٦]، وفتحت إشبيلية أبوابها مستسلمة للمرابطين ودخلها سير نهار الأحد ٢٢ رجب ٤٨٤ هـ/١٣ أيلول ١٠٩١[٧] وفر السكان مذعورين يرتمون من فوق الأسوار ويلقون بأنفسهم بالنهر وجرت عملية نهب واسعة للمدينة،

---

(١) المعجب ص ١٤٠.
(٢) Dozy: Hist. des Mus p. 149
(٣) المعجب ص ١٤٠ Dozy: Hist des Mus. p. 149
(٤) المعجب ص ١٤٠ ـ قلائد العقيان ص ٢٤ Dozy: Hist p. 149
(٥) مذكرات الأمير عبد الله بن زيري ص ١٧٠
(٦) المعجب ص ١٤١.
(٧) مذكرات الأمير عبد الله ص ١٧٠ ـ المعجب ص ١٤١ ـ روض القرطاس ص ١٠١ ـ وفيات الأعيان ج ٥ ص ٣٠ ـ الأندلس في عهد المرابطين ص ٩٦ ـ دائرة المعارف ح ٥ ص ٢٣٩ ـ بغية الملتمس ص ٣٢.

فخرج السكان شبه عراة يسترون عوراتهم بأيديهم[1]. وكان المعتمد في قصره محاطاً بنسائه وهن ينـدبن حظهن البـائس ـ يفتش عن حل يحفظ كـرامته كملك، فجمع ما تبقى من أنصاره وهجم على المرابطين الذين وصلوا إلى فناء القصر واستطاع ردهم حتى النهر وقتل ابنه مالك أثناء تلك العملية[2] ولم يصب هو بأذى. وعاد إلى القصر يفكر بمصيره وحاول أن يضع حداً لحياته بيده فامتنع لأن الإسلام يحرم قتل النفس[3]. وعند حلول الظلام أرسل ابنه الرشيد إلى الأمير سير عارضاً استسلامه بلا شروط، ثم استسلم للمرابطين الذين ألقوا القبض عليه وأهله[4]، ونهب مقره مثلما حدث في المدينة[5].

لكن المعارك لم تنته بسقوط العاصمة إشبيلية، واستمرت المقاومة بقيادة ولدي المعتمد المعتد في مارتلة والراضي في رندة[6]، فقد أنفا الذل وأبيا وضع أيديهما بغير يد أبيهما[7]. كان وضع الراضي جيداً فرندة محصنة ولم يجـرؤ المرابطون على التقدم نحوها[8]. أمام هذا الوضع عمد القائد سير إلى مضايقة المعتمد لاجباره عـلى مخاطبـة ولديـه بالاستسـلام وإلا كان المـوت نصيب الأسرة[9]، حتى أن أمهما كتبت إليهما مستعطفة راجية «وإن دم الكل مسترهن باستسلامهما»[10] ولهما العهود والمواثيق بعدم التعرض لهما بأذى. وقد حرك هذا النداء عواطف الرحمة وحقوق الأبوة في نفسيهما فاستسلما[11]. ولكن القواد

---

(١) وفيات الأعيان ج ٥ ص ٣٠

Dozy: Hist des Mus. D'Esp t 3 tp. 150.

(٢) Hist. des Mus. p. 150

(٣) Hist. des Mus. p. 150

(٤) قلائد العقيان ص ٣٠.

(٥) Dozy: Hist. des Mus. D'Espagne t 3. p. 151

(٦) قلائد العقيان ص ٣٠ ـ المعجب ص ١٤١.

(٧) المعجب ص ١٤٣ Hist des Mus. p. 151

(٨) Hist. des Mus. p. 151

(٩) المعجب ص ١٤٣ Hist. des Mus. p. 151

(١٠) المعجب ص ١٤٣

(١١) المعجب ص ١٤٣ Hist. des Mus. p. 151

المرابطين تنكروا للعهود التي أعطوها للمعتمد بشأن ولديه فقد قبض القائد جرور على الراضي وقتله غيلة وأحضر جسده [1]. أما المعتد فقد استجاب للنداء مباشرة فكان قدره أقل قساوة، فأبقى عليه حياً بعد مصادرة جميع أملاكه [2].

وقد حرك هذا العمل مشاعر المعتمد فرثى أولاده القتلى بقصائد رقيقة حزينة [3].

وهكذا سقطت دولة بني عباد واسطة عقود دويلات الطوائف وانضوت تحت سيادة المرابطين.

مأساة المعتمد بن عباد

وكأن قتل أبنائه لم يكفِ، فكبله المرابطون بالحديد وحشروه مع أهل بيته على ظهر سفينة، وخرج الناس إلى ضفتي النهر لوداع ملكهم الأسير وهم يبكون [4]، ونقلتهم السفينة إلى المغرب، فأقاموا في مراكش [5]، ثم أمر يوسف بنقلهم إلى أغمات [6] حيث ألقى بهم في السجن. وسيم المعتمد بأشد

---

(1) المعجب ص ١٤٣ ـ مذكرات الأمير عبد الله بن زيري ص ١٧١.

(2) المعجب ص ١٤٣. Hist des Mus. p. 151

(3) رثى المعتمد أبناءه بقصيدة رقيقة جاء فيها:

أبا خالد أورثتني البث خالداً ... أبا النصر مذ وُدعت ودعني نصري
وقبلكما ما أودع القلب حسرة ... تجدد طول الدهر ثكل أبي عمرو

المعجب ص ٤٣

(4) يصور الفتح بن خاقان في كتابه قلائد العقيان إخراج المعتمد من إشبيلية «... وخرج الناس إلى ضفتي الوادي لوداع ملكهم يبكون بدموع الغوادي وسارت بهم السفن والنوح يحدوهم والبوح باللوعة لا يعدوهم». قلائد العقيان ص ٢٤.

(5) العبر ج ٦ ص ١٨٧ ـ الاستقصا ج ١ ص ١٢٠.

(6) مذكرات الأمير عبد الله بن زيري ص ١٧١ ـ المعجب ص ١٤٥ ـ روض القرطاس ص ١٠١ ـ الكامل ج ١٠ ص ١٩٠ ـ وفيات الأعيان ج ٧ ص ١٢٣ ـ «ج ١ ص ١٢٠» ـ دائرة المعارف ج ٥ ص ٢٣٩ مادة أبو يعقوب ـ بغية الملتمس ص ٣٢.

أنواع التعذيب النفسي والجسدي وهو يرقد في غياهب سجنه، وقد أمر يوسف بذلك بسبب ثورة أحد أبنائه في الأندلس[1].

لقد كانت معاملة الأمير يوسف للمعتمد وعائلته قاسية جداً لم يسلكها أحد من قبله ولا بعده[2]، فلم يجر عليهم من الطعام إلا ما يقوم أودهم، مما دفع ببنات المعتمد الأميرات إلى خدمة الناس فكن يغزلن الصوف لكسب بعض دريهمات ينفقنها على الأهل. وحز ذلك في نفس المعتمد وتألم من حالته الحاضرة فكان عزاؤه الوحيد الشعر[3]. وبقي المعتمد سجيناً في أغمات إلى أن وافته المنية فيها[4] في ١١ شوال ٤٨٨ هـ/ آخر تشرين الأول ١٠٩٥ م[5] ودفن بظاهر المدينة. ولعل معاملة يوسف القاسية للمعتمد تعود إلى تحالف هذه الأخير مع الفونس واستدعائه له بعد أن مناه بالبلاد، وقد أدت حملة الفونس ضد المرابطين في حصن المدور إلى استشهاد جماعة منهم، بالإضافة إلى ما فقده المرابطون من عناصر بشرية في فتح إشبيلية وسائر أنحاء المملكة العبادية، هذه الضحايا التي ذهبت في صراع داخلي كان بإمكانها

---

(١) قلائد العقيان ص ٣٠ ولكن صاحبها لم يذكر اسم ابن المعتمد هذا.

(٢) الكامل ج ١٠ ص ١٩٠.

(٣) قال في قصيدة يعزي بها نفسه:

تبدلت في ظل عز البنود ... بذل الحديد وثقل القيود
وكان حديدي سناناً ذليقاً ... وغضباً رقيقاً صقيل الحديد

وقد شاهد بناته يغزلن الصوف للناس فتألم وقال:

فيما مضى كنت بالأعياد مسروراً ... فجاءك العيد في أغمات مأسورا
ترى بناتك في الأطمار جائعة ... يغزلن للناس لا يملكن قطميرا
يطأن في الطين والأقدام حافية ... كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا

وفيات الأعيان ج ٥ ص ٣٢.

(٤) روض القرطاس ص ١٠١ ـ المعجب ص ١٤٥ ـ العبر ج ٦ ص ١٨٧ ـ وفيات الأعيان ج ٧ ص ١٢٣ وج ٥ ص ٣٥ ـ الاستقصا ج ١ ص ١٢٠.

(٥) المعجب ص ١٤٥ ـ وفيات الأعيان ج ٥ ص ٣٥ ـ الاستقصا ج ١ ص ١٢٠ ـ دائرة معارف القرن العشرين مادة لثم ص ٣٢٥. بينما يذكر ابن خلدون أن الوفاة كانت ٤٩٠هـ/١٠٩٧م العبر ج ٦ ص ١٨٧ ـ بغية الملتمس ص ٣٢.

إحراز انتصارات على الإسبان بدل استنزافها داخلياً مما أوغر صدر الأمير يوسف ضد المعتمد، وعامله هذه المعاملة القاسية التي أضحت نقطة سوداء في تاريخ الأمير يوسف الأبيض.

ضم المرية

بعد بسط السيادة المرابطية على دولة بني عباد، قرر القائد سير بن أبي بكر ضم المرية إلى دولة المرابطين، وكان أميرها المعتصم بن صمادح قد اختص بمؤانسة الأمير يوسف عند عبوره الأول إلى الجزيرة[1]. ولكن حالة الصفاء لم تدم طويلاً، فقد تغير الأمير يوسف عليه بعد تخلفه كسائر ملوك وأمراء الطوائف أثناء حصار طليطلة وبدا نفاقه واضحاً[2]. فأرسل إليه سير جيشاً بقيادة أبي زكريا بن واسنوا[3] فتناثرت معاقله، وحاصر أبو زكريا المدينة فلم تصمد طويلاً بالرغم من حصانتها، فقد كان ينقصها الرجال المحاربون[5]، ودار القتال تحت شرفة القصر[4]، فأصاب المعتصم - وكان مريضاً - هلع شديد فأحضر ابنه معز الدولة وأوصاه بأن يلجأ إلى بني حماد في بجاية إذا دهمته الخطوب[6]. واشتد به المرض وهو يسمع قرقعة السلاح وصهيل الخيل فقال: «لا إله إلا الله نغص علينا كل شيء حتى الموت»[7]. ومات بعد ذلك عند طلوع الشمس نهار الخميس ٢٢ ربيع الأول

---

(١) وفيات الأعيان ج ٥ ص ٤٤.

(٢) مذكرات الأمير عبد اللهبن زيري ص ١٦٧.

(٣) الحلل ص ٥٢ - بينما يذكر أشباخ أن القائد كان داود بن عائشة الأندلس في عهد المرابطين ص ٩٩.

(٤) وفيات الأعيان ج ٧ ص ١٢٢ و ١٢٣ - نفح الطيب ج ٦ ص ١٠٥ الروض المعطار ص ٩٦.

(٥) المعجب ص ١٣٧.

(٦) مذكرات الأمير عبد الله ص ١٦٧ روض القرطاس ص ١٠١ - الكامل ج ١٠ ص ١٩٢ Dozy· Hist. des Mus. D'esp. t. 3 p. 151

(٧) قلائد العقيان ص ٥٤ وفيات الأعيان ج ٥ ص ٤٤ - المعجب ص ١٣٧.

٤٨٤ هـ/١٥ أيار ١٠٩١ م[١] وانشغل به أهله فسلموا المدينة للمرابطين. ولاذ ابنه معز الدولة بالفرار بماله وعياله إلى أفريقة[٢] ـ حسب وصية والده ـ ولجأ إلى المنصور بن الناصر الحمادي الذي قربه وأحسن إليه[٣]. وكانت المرية ثالث دويلة أندلسية تسقط بيد المرابطين.

ضم بطليوس

كان الغرب الأندلسي ـ وعاصمته بطليوس ـ موطن الثورات ضد الحكومة المركزية في قرطبة طيلة العهد الأموي، ويعود ذلك ألى طبيعته الجغرافية، فكان شبه مستقل عنها. ولما اشتدت حرب الاسترداد اكتوى الغرب بنارها مثل غيره من إمارات الأندلس، وقد استنجد صاحب بطليوس المتوكل عمر بن الأفطس بالمرابطين[٤] لصد عدوان النصارى، وبعد معركة الزلاقة أبقى الأمير يوسف في غرب الأندلس ثلاثة آلاف مرابط للدفاع عنه فعمر، وخفت تعديات النصارى عليه. وعندما فوض الأمير يوسف شؤون الأندلس إلى القائد سير بن أبي بكر أقام المتوكل معه علاقات ودية حتى إنه ساعده ضد المعتمد[٥]، ولكن بعد القضاء على بني عباد استوحش وخاف على نفسه[٦]، فكان يظهر الطاعة للأمير القائد سير ويلبي جميع طلباته، وبالسر يتصل بالفونس للاستعانة به إذا دهمه خطر المرابطين[٧]. أخذ سير يتدخل في

---

(١) مذكرات الأمير عبد الله بن زيري ص ١٦٧ ـ المعجب ص١٣٧ ـ روض القرطاس ص ١٠١ ـ ابن الكردبوس ص ١٠٥ ـ وفيات الأعيان ج ٥ ص ٤٤ وج ٧ ص ١٢٣.

(٢) روض القرطاس ص ١٠١ ـ ابن الكردبوس ص ١٠٥.

(٣) ابن الكردبوس ص ١٠٥.

(٤) راجع ص ٦٩.

(٥) الكامل ج ١٠ ص ١٩٣

Dozy: Hist. des Mus. D'Esp. t. 3 p. 152

(٦) مذكراب الأمبر عبد الله ص ١٧٢.

(٧) مذكرات الأمير عبد الله بن زيري ص ١٧٢.

شؤون بطليوس تمهيداً لبسط سيادة المرابطين عليها، عند ذلك جاهر المتوكل في مخالفة الفونس[1] وتنازل له عن ثلاث مدن مهمة هي أشبونة وشنترين وشنتمرية الغرب[2]. هذا العمل المخزي كان له اسوأ الوقع لدى القائد سير، فأرسل جيشاً استولى على شلب ويابرة وتـابع سيـره إلى العاصمـة بطليوس[3]، واجتاز هذا الجيش أثناء زحفه مروج بطليوس حيث بطحاء الزلاقة كانت لا تزال غاصمة بعظام النصارى الذين سقطوا قتلى فيها ولم يدفنوا، مما أثار الحماس في الجيش المرابطي الذاهب لإنقاذ المسلمين من خيانة ملكهم وغطرسة أعدائهم[4]، وضرب هذا الجيش الحصار على المدينة، ولم يستطع الفونس تقديم المساعدة الفعّالة لحليفه الجديد ابن الأفطس[5] الذي أصبح وجهاً لوجه أمام المرابطين الذين استولوا على مملكته بسهولة[6]. واتفق الأمير سير مع المواطنين الناقمين على ملكهم على فتح أبواب بطليوس له ليلاً[7]، ودخلها المرابطون في صفر ٤٨٧ هـ/ أذار ١٠٩٤ م وتمركـزوا في القلعة، وألقى القبض على المتوكل وولديه الفضل والعباس[8] وطلب سير منه أن يدله على الأموال التي خبأها[9]، ثم أمر بإخراجهم من المدينة حيث

---

(١) مذكرات الأمير عبد الله ص ١٧٢ ـ العبر ج ٦ ص ١٨٧ ـ

Dozy: Hist. des Mus. D'Esp. t 3. p. 152.

(٢) Dozy: Hist. des Mus. p. 152

(٣) الأندلس في عهد المرابطين ص ١٠١ .

(٤) الأندلس في عهد المرابطين ص ١٠١ .

(٥) Dozy: Hist. des Mus. D'Esp. t. 3. p. 152

(٦) وفيات الأعيان ج ٧ ص ١٢٣ Dozy: His. p. 152

(٧) مذكرات الأمير عبد الله ص ١٧٤ .

(٨) مذكرات الأمير عبد الله ص ١٧٤ ـ العبر ج ٦ ص ١٨٧ ـ وفيات الأعيان ج ٧ ص ١٢٣ الأندلس في عهد المرابطين ص ١٠١ ـ دائرة معارف القرن العشرين مادة لثم ص ٣٢٦ .

Dozy: Hist. des Mus. p. 152.

(٩) الكامل ج ١٠ ص ١٩٣ .

Dozy: Hist. des. Mus. D'Esp. t. 3. p. 152.

أعدموا جميعاً[1] في عيد الأضحى ٤٨٧ هـ/١٠٩٤ م[2]. وحمل أبناؤه الصغار إلى مراكش[3]، ولم ينج من الأسر إلا ابنه المنصور الذي استطاع الهرب والتحق بالنصارى وصار في تعداد جيوشهم يهاجم بلاد الأندلس المسلمة انتقاماً لوالده وأخوته[4]. وتابع سير تقدمه نحو ثغر أشبونة الذي سلمه المتوكل للنصارى وكانت به حامية نصرانية بقيادة ريمون البرجوني صهر الفونس واستطاع بعد قتال عنيف أن يسترد الثغر ويعيده إلى سيادة الإسلام وذلك عام ٤٨٧ هـ/١٠٩٤ م[5] وفتح كذلك شنترين[6].

ضم مرسية ووبرة ودانية

اضطربت أحوال شرق الأندلس، إذ عادت الرغبة لدى النصارى في الاستيلاء على هذا الجزء المسلم من الجزيرة فهاجم غرسية المرية والفونت لورقة وحاصر البرهانس مرسية والكمبيادور شاطبة وبنى أسقف أفرنجي حصن ششنة[7].

لم يسكت الأمير يوسف على هذه الأعمال العدوانية التي استهدفت المسلمين في أعراضهم وأملاكهم وأنفسهم فعين أبنه محمداً والياً على شرق الأندلس[8]. سار الأمير محمد نحو مرسية والتقى بالنصارى وهزمهم وخلع

(١) الكامل ج ١٠ ص ١٩٣ ـ مذكرات الأمير عبد الله بن زيري ص ١٧٤ ـ وفيات الأعيان ج ٧ ص ١٢٣ ـ دائرة معارف القرن العشرين مادة لثم ص ٣٢٦

His. des Mus. p. 152 — Hamet: Hist. des Mag. p. 88.

(٢) العبر ج ٦ ص ١٨٧ يذكر أن السنة ٤٨٩ هـ/١٠٩٦ م.

(٣) وفيات الأعيان ج ٧ ص ١٢٣.

(٤) مذكرات الأمير عبد الله ص ١٧٤: «ويقال إنه تنصر فيها بعد وأعماله تدل على ارتداده عن الإسلام.

(٥) المعجب ص ١٦٤.

(٦) المعجب ص ١٦٤.

(٧) ابن الكردبوس ص ٩٩ و ١٠٠.

(٨) ابن الكردبوس ص ١٠١ هو محمد بن عائشة وقد نسب إلى أمه، كان من كبار قواد أبيه يوسف.

صاحبها ابن رشيق في شوال ٤٨٤ هـ/ت ٢ ١٠٩١ م[١] وأخذ مدينة وبرة في شعبان ٤٨٥ هـ/ أيلول ١٠٩٢[٢]. وتابع سيره إلى دانية وفيها ابن مجاهد العامري الذي فر منها في البحر والتجأ إلى بجاية لدى الناصر بن حماد[٣]، ودخلها محمد، ثم استولى على شاطبة وفر منها صاحبها ابن منقذ وكذلك سقطت بيده أفراغ في شرق الأندلس[٤].

ضم بلنسية

بعد حملة الأمير يوسف على لييط، احتدم الخلاف بين الفونس والكمبيادور لتخلف الأخير عن مساعدة الفونس فانعكس هذا الخلاف على مدينة بلنسية التي كانت مسرحاً لعملاء الاثنين، واستغل الوضع الجديد قاضي المدينة جعفر بن عبد الله بن جحاف المعافري[٥] وصاحب الأحكام ابن أوجب[٦]. واستجاب القاضي لرغبة البلنسيين بالتخلص من السيطرة الأجنبية، ودعما لمركزه اتصل بالمرابطين، فقد ذهب إلى دانية لمقابلة ابن عائشة وطلب منه النهوض إلى بلنسية لإنقاذها ووعده بإعطائه إياها[٧]. أوفد ابن عائشة معه القائد المرابطي أبا ناصر[٨] على رأس فرقة من الفرسان عام

---

(١) كان ابن رشيق قد فر من سجنه لدى المعتمد وعاد إلى مدينته مرسية. روض القرطاس ص ١٠١.

(٢) روض القرطاس ص ١٠١.

(٣) روض القرطاس ص ١٠١ ـ ابن الكردبوس ص ١٠٢.

(٤) روض القرطاس ص ١٠١.

(٥) البيان المغرب ج ٤ ص ٣١ ـ الاكتفاء ص.

Dozy: Recherches p 142.

(٦) البيان المغرب ج ٤ ص ٣١.

(٧) روض القرطاس ص ١٠١ ـ ابن الكردبوس ص ١٠٣ ـ الاكتفاء ص X.

Dozy. Recherches p. 142.

(٨) ابن الكردبوس ص ١٠٣ ـ البيان المغرب ج ٤ ص ٣١ ويسميه ابن نصر

Recherches p. 143.

٤٨٥ هـ/١٠٩٢ م بلغ عدد أفرادها أربعين فارساً[١]. وحاول صنيعة الكمبيادور ابن الفرج[٢] اعتقال القاضي وأرسل جماعة لتنفيذ ذلك ولكنهم فشلوا وقام أنصار القاضي بطرد أنصار ابن الفرج وفتحوا الأبواب للمرابطين الذين دخلوا المدينة بشكل يلفت النظر حتى اعتقد السكان أن العدد هو عشرة أضعاف العدد الحقيقي. أمام هذه الحالة أخرج أنصار القادر بن ذي النون عائلاتهم وذخائرهم وأموالهم إلى القلاع والحصون، حتى أن القادر نفسه أرسل عائلته إلى حصن شبرب والعقّاب وحاول الفرار[٣]. أسرع القاضي واعتقله مع ابن الفرج، وأراد أن يأخذ منه الأموال والجواهر سراً، فأوعز إلى أنصاره بأن يقتلوا القادر، ونفذ هذه المهمة ابن الحديدي[٤] الذي اغتاله وفصل أرسه عن جسده وذلك في ١٣ رمضان ٤٨٥ هـ/٨ تشرين الأول ١٠٩٢[٥]. وغدت بلنسية في ظل القاضي جمهورية[٦] تولى رئاستها[٧]. وانشغل بأمور جعلت المرابطين ينفضون عنه، فقد استثقلهم وشعر بأن وجودهم يحد من تصرفاته، ولكنه بحاجة ماسة إليهم لحماية نظامه الجديد فأصبحوا بنظره كمرتزقة وهم الذين قدموه على غيره آملين بأن يقف ضد العدو النصراني المجاور[٨]، وهكذا ساءت العلاقات بين القاضي والمرابطين.

---

(١) Recherces p 143.

(٢) ابن الفرج أحد عملاء الكمبيادور الذين سلطهم على بلنسية، كان يتصرف في المدينة باسم الكمبيادور سيده.

(٣) البيان المغرب ج ٤ ص ٣١.

(٤) البيان المغرب ج ٤ ص ٣٢.

(٥) ابن الكردبوس ص ١٣ ـ الأندلس في عهد المرابطين ص ١٠٠ ـ الاكتفاء ص XI.
Recheiches p 145.

(٦) Dozy. Recherches sur L'histoire de L'Andalus, 145.

(٧) يشير ابن الكردبوس في الاكتفا إلى جهل القاضي بأمور سياسية، ودُفع إلى النظر في أمور سلطانية لم يتقدم قبل في غوامضه حقائقها المأركوب أساليب سياسية لم يكن له عهد باقتحام مضايقها ولا بالدخول في ضنك مآرقها. ولم يعلم أن تدبير الأقاليم غير تلقين الخصوم وأن عقد ألوية البنود غير الترجيح بين العقود وانتحال الشهود الاكتفا ص XI.

(٨) الاكتفا ص XI ـ البيان المغرب ج ٤ ص ٣٢.

كان السيد أثناء ذلك يهاجم سرقسطة فاغتاظ كثيراً لضياع المدينة من يد أعوانه ودخول المرابطين إليها كحلفاء لابن جحاف، فقد كانت مورد رزقه فحصته السنوية منها ١٠ آلاف دينار، ووصلته أخبار خلاف القاضي مع حلفائه المرابطين فسار بكل قواته نحو المدينة عام ٤٨٦ هـ/١٠٩٣ م[١] وهو يتلف المزروعات ويقتل الرجال ويحرق القرى والطواحين والسفن وكل ما يخص القاضي، وهاجم المدينة، ولكن المرابطين ومن معهم من البلنسيين صدوا الهجوم وأكرهوه على التراجع عن الجسر، ولكنه عاود الهجوم وحاصر المدينة[٢] وضيق عليها حتى طلب السكان الصلح مع الكمبيادور الذي قبله بشروط أهمها أن يغادر المرابطون المدينة وهكذا كان، إلا أن الكمبيادور بعد خروج المرابطين ظهر على حقيقته وأنه لا يقيم للأخلاق وزناً، فطلب من القاضي أن يرابط جيشه في جبالة[٣] وأن يرسل ابنه كرهينة لضمان عدم تمرده وعدم طلب المساعدة من المرابطين وأن يتنازل له عن عائدات المدينة وبعبارة واحدة أن يكون جابياً له لا أكثر. رفض القاضي هذه الطلبات المجحفة وقرر القتال حتى الموت وندم على إخراج المرابطين من المدينة فطلب منهم النجدة من جديد وكذلك من المستعين بن هود وحتى من الفونس[٤]. ولكن أية مساعدة لم تصله، فقد عاد الجيش المرابطي الذي جاء لنجدته أدراجه قبل بلوغ أسوار المدينة بسبب رداءة الطقس وكثرة الوحول في الطرقات والمسالك من كثرة الأمطار فأصيب السكان بخيبة أمل كبيرة، فقد تقدم الكمبيادور بجيشه وضرب الحصار على المدينة وضيق عليها حتى ساءت حالتها الاقتصادية واشتدت الأزمة داخلها، فقد ارتفع سعر قفيز القمح من اثني عشر ديناراً إلى تسعين ديناراً وندرت الأقوات وهبط سعر المنازل، وسارع

---

(١) البيان المغرب ج ٤ ص ٣٣.

(٢) تاريخ ابن الكردبوس ص ١٠٣ ويشير كذلك في الاكتفا إلى ةحصار المدينة: فلزمها ملازمة الغريم وتلذذ بها تلذذ العشاق بالرسوم.

(٣) ضاحية من ضواحي بلنسية.

(٤) Recherches sur L'histoire de L'Andalus p. 172.

الناس إلى الهروب من المدينة فوقعوا أسرى بيد النصارى الذين قتلوا بعضهم وباعوا البعض الآخر، وقد انضم إلى الكمبيادور بعض أشرار المسلمين وفجارهم وفساقهم تسموا بالدواثر[١] ـ وكثير منهم ارتد عن الإسلام ـ وأخذوا يشنون الغارات على المسلمين يكشفون المحرمات ويقتلون الرجال ويسبون النساء والأطفال ووصل بهم الأمر إلى بيع المسلم الأسير بخبزة وقدح خمر ورطل حوت[٢]. ومن لم يستطع فداء نفسه تركوه للكلاب المسعورة تنهشه حتى الموت. وكذلك تعلقت طائفة بالبرهانس كانت بمثابة الخدم[٣]، وقد تصدى له الأمير سير وهزمه وبقي السيد يحاصر المدينة وشدد عليها الهجوم فسقطت أكثر أجزائها في يده. وبعد حصار دام عشرين شهراً[٤] سقطت المدينة بيد الكمبيادور نهار الخميس ١٥ حزيران ١٠٩٤ م/ جماد الأول ٤٨٧ هـ[٥] فأجلى المسلمين عنها وأحل محلهم النصارى واعتقل ابن جحاف وصادر منه ذخائر ومجوهرات القادر بن ذي النون ثم أمر بإعدامه حرقاً بالنار[٦] وذلك في ربيع الثاني ٤٨٩ هـ/ أيار ١٠٩٥ م.

أثار سقوط بلنسية بيد الإسبان وإحراق القاضي ابن جحاف موجة عارمة من السخط في صفوف مسلمي الأندلس وعم الحزن الجزيرة كما حدث يوم سقوط طليطلة.

جرد الأمير يوسف جيشاً بقيادة ابنه محمد بن عائشة لاسترجاع المدينة

---

(١) ابن الكردبوس: ص ١٠٣.
(٢) ابن الكردبوس ص ١٠٤.
(٣) ابن الكردبوس ص ١٠٤.
(٤) ابن الكردبوس ص ١٠٣.
(٥) البيان المغرب ج ٤ ص ٣٣. الاكتفا ص XI.
Dozy: Recherches / p. 179.
(٦) ابن عذاري يصف عملية إحراق القاضي بأسلوب مؤثر. البيان المغرب ج ٤ ص ٣٣ ـ الأندلس في عهد المرابطين ص ١٠٩ ـ الاكتفا ص ١٦.
Recherches p. 179.

من يد الإسبان وقد انضمت إليه قوات أندلسية من لاردة بقيادة صاحبها تأييد الدولة ومن طرطوشة بقيادة سيد الدولة ومن شنتمرية بقيادة حسام الدولة ومن البونت بقيادة نظام الدولة(١). وحاصر الجيش المرابطي المدينة مدة عشرة أيام قاوم الكمبيادور الحصار واستطاع أن يهزم المرابطين ويبعدهم عن الأسوار، ولجأ إلى المناورة فقد خرج من المدينة واستولى على بعض الحصون المجاورة لها ثم عاد إلى داخل المدينة وجمع المسلمين في القصر(٢) وعرّض بالمرابطين أمامهم وطلب منهم مبلغ سبعمائة ألف مثقال وإلا كان الموت نصيبهم وأخذ يردد على مسمعهم: «على يد رذريق ذهبت إسبانيا وعلى يد رذريق ستعود»(٣) ثم أغلق أبواب القصر عليهم فأضحوا وكأنهم في سجن، وسلط عليهم أحد زبانيته من اليهود يسومهم العذاب ويبتز منهم الأموال(٤). واستمرت حالة بلنسية هكذا حتى وفاة الكمبيادور عام ٤٩٢هـ/١٠٩٩م. وحاولت زوجته «شيمين» متابعة الصمود في المدينة، واستنجد النصارى بالملك الفونس الذي جاء لنجدتهم وأقام في المدينة شهراً وأنصاره يرغبونه فيها ويهونون عليه أمر المرابطين(٥). في هذه الأثناء جهز الأمير يوسف جيشاً مرابطياً بقيادة الأمير مزدلي ونزل على المدينة والتقى الجيشان حيث دارت معركة انسحب الفونس على أثرها من المدينة بعد أن أحرقها(٦) كي لا يستفيد منها المسلمون ودخل الأمير مزدلي بلنسية في رمضان ٤٩٥ هـ/ تشرين الأول ١١٠٢ م(٧). وكان

---

(١) البيان المغرب ج ٤ ص ٤٠.
(٢) البيان المغرب ج ٤ ص ٤١.
(٣) رذريق الذي ذهبت إسبانيا على يده هو الملك القوطي الذي هزمه طارق بن زياد عام ٩٢ هـ/٧١١ م، ورذريق الآخر اسم الكمبيادور.
(٤) البيان المغرب ج ٤ ص ٤١.
(٥) البيان المغرب ج ٤ ص ٤٢.
(٦) البيان المغرب جـ ٤ ص ٤٢.
(٧) أمبروسو هويسى ميراندا: مجلة تطوان السنة ١٩٥٨ - ١٩٥٩ - العددان ٣ و ٤ و١٦٥ و ١٦٦ ويذكر أن عام استعادة بلنسية على يد مزدلي ٤٩٤ هـ/١١٠٠ و ١١٠١ م - الاكتفا ص XI.
Dozy: Recherches p. 189 Hist des Mus. d'Esp. t. 3 p. 153

لاستردادها دوي هائل في العامل الإسلامي أثار قريحة القراء وأسال أقلام الكتاب[1].

بعد ضم المرابطين لبلنسية تابعوا تقدمهم نحو الحصون الواقعة في شرق الأندلس فاستولوا على مربيطر والمنارة والسهلة وقد سقطت البونت في أيديهم عام ٤٩٦ هـ/١١٠٣ م. وتقدموا شمالاً نحو شنتمرية وكان حاكمها عبد الملك بن رزين قد أعلن الطاعة للمرابطين ولكن هذا الاعتراف لم يمنعهم من تنفيذ مخططهم الهادف إلى ضم الأندلس ودخلوا المدينة في الثامن من رجب ٤٩٧ هـ/ نيسان ١١٠٤ م وخلعوا حاكمها ابن رزين. وأدى توسع المرابطين في شرق الأندلس إلى مهاجمة برشلونة، فغزاها الأمير مزدلي وبلغ مناطق لم يبلغها أحد قبله من المرابطين[2]، فهدم بيع برشلونة وأحرق مناطقها وهزم جنودها وقفل راجعاً بالغنائم والأسلاب منها نواقيس وصلبان وأواني مرصعة بالفضة والعقيان أمر بتركيبها كثريات في جامع بلنسية[3].

معارك شرق الأندلس
معركة كنشرة

هاجم إلفونس أطراف مملكة المرابطين واحتل قلعة أيوب وحاصر مدينة سالم[4]. فجرد الأمير يوسف جيشاً يضم مرابطين وعرباً[5] بقيادة ابن الحاج

---

(١) كتب أبو المفضل حعفر بن شرب يقول: وحياك بلسان الأقلام حين أشرق وجه الدين فأسفر وزهق حص الملحدين فنفر وأقبل الفتح في لبته التأييد يرفل في ثوب العصر الحديد. وجاء الوعد الناصر ببلنسية فالآن وقد نشر الميت من لحده وعاد الحسام إلى غمده فهبت ربح النصر وقد بحر بعد حسر الاكتفا ص XI.

Recherches P 189.

(٢) العبر ج ٦ ص ١٨٨ - ابن الكردبوس ص ١١٠.

(٣) ابن الكردبوس ص ١١١.

(٤) البيان المغرب ج ٤ ص ٤٤.

(٥) العرب المقصودون هنا هم عرب بني هلال كما يشير إلى ذلك الدكتور حسين مؤنس حاشية ص ١٧ من تاريخ ابن الكردبوس.

وانضم إليه محمد بن فاطمة[1] والتقى المرابطون بالفونس بكنشرة[2] حيث دارت معركة قاسية هُزم فيها النصارى ولاذوا بالفرار من سيوف المسلمين، ولجأ الفونس إلى مدينة طليطلة فحاصره المرابطون فيها سبعة أيام ثم انصرفوا، وسر الأمير يوسف بهذا النصر[3]. وحدثت هذه المعركة ٤٩٢ هـ/ السبت ١٥ آب ١٠٩٧. وقد فقد الكمبيادور فيها أحد أولاده يدعى دييغو Diego[4]. وأرسل الأمير يوسف جيشاً إلى كنكة بقيادة ابن عائشة فهزم البرهانس وحلفاءه الأراجونيين ثم سار إلى جزيرة شقر والتقى هناك بجماعة من جند السيد فأوقع بهم وهزمهم ولم يفلت منهم إلا القليل[5] وفتح الجزيرة بمساعدة الأسطول المرابطي.

وفي عام ٤٩٣ هـ/١٠٩٨ م عبر إلى الأندلس الأمير يحيى بن أبي بكر بن يوسف مجاهداً وصحبه الأمير سير ومحمد بن الحاج، وساروا جميعاً إلى طليطلة وحاصروها وشنوا الغارات على نواحيها، ثم عادوا بعد أن روعوا مواطنيها[6]. وفي عام ٤٩٧ هـ/١١٠٢ م أرسل المستعين بن هود كتاب استغاثة ضد الفونس، فأنفذ إليه الأمير يوسف ألف فارس بقيادة ابن فاطمة فارتد النصارى خائبين[7]. وفي السنة نفسها ولى الأمير يوسف ابن فاطمة على بلنسية فاشترك مع القائد علي بن الحاج في غزو طليطلة رداً على غارات النصارى على سرقسطة، وقد استشهد القائد ابن الحاج فخلفه في منصبه ابن

(١) البيان المغرب ص ٤٤.

(٢) بلدة من أعمال طليطلة «Consuegra» وابن الكردبوس أول من أورد الاسم العربي لها «كنشره» والمصادر المسيحية أشارت بوضوح إلى الانتصار الذي حققه ابن الحاج على الفونس عنده هذه المدينة وقد اعتبرت ثانية الزلاقة. ابن الكردبوس ص ١٠٨.

(٣) ابن الكردبوس ص ١٠٨ ـ أمبروسوهويسي ميراندا: مجلة تطوان ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩ ـ العددان ٣ ـ ٤ ص ١٣.

(٤) ابن الكردبوس ص ١٠٨.

(٥) ابن الكردبوس ص ١٠٨.

(٦) ابن الكردبوس ص ١٠٩.

(٧) ابن الكردبوس ص ١١٣.

فاطمة[1]. وتابع القائد الجديد هجومه وهاجم النصارى بفحص اللجج من بلاط العروس وانتصر عليهم[2]. وعندما شاع في الأندلس خبر مرض الأمير يوسف ٤٩٨ هـ/١١٠٣ م ظن الفونس أن الفرصة قد واتته للثأر من المسلمين فجرد حملة من ثلاثة آلاف وخمسمائة فارس عدا المشاة وتوغل في أراضي المسلمين حتى وصل إلى ناحية من نواحي إشبيلية تعرف بمقاطع، فكمن له الأمير سير هناك حتى وصلته الإمدادات بقيادة عبد الله بن الحاج وأوقع المسلمون الهزيمة بالفونس ففقد ألفاً وخمسمائة فارس[3] وعاد مهزوماً إلى بلاده. هكذا كانت معارك شرق الأندلس سجالاً بين الفريقين فلم يحرز أي فريق نصراً حاسماً، واستمرت الحالة إلى ما بعد وفاة الأمير يوسف.

المرابطون وسرقسطة

ضم الأمير يوسف الأندلس إلى مملكته وأخضعها لحكمه وعادت وحدة كما كانت زمن الخلافة الأموية، ولم يبق خارج سلطته إلا إمارة سرقسطة التي يحكمها المستعين أحمد بن هود. كانت سرقسطة كالشوكة في حلق النصارى فقد قاومتهم زمناً طويلاً وتراجعوا أمام صمودها[4]. وحاول الفونس الاستيلاء عليها بعد أخذه طليطلة، وأقسم ألا يبرحها حتى تستسلم، ولكن عبور المرابطين ٤٧٩ هـ/١٠٨٦ م جعله ينسحب خائباً وتنفس المستعين الصعداء فأخذ يقوي مركزه ويستعد للدفاع عن قاعدة الثغر الأعلى، وقد تقرب من الأمير يوسف وأبدى له عذره للتخلف عن المشاركة في معركة الزلاقة، وقبل الأمير هذا العذر، ونشأت علاقات ودية بين الأميرين. وعندما بسط المرابطون سيادتهم على شرق الأندلس اقتربوا من حدود سرقسطة، سارع المستعين إلى

---

(١) ابن الكردبوس ص ١١٢ ـ البيان المغرب ج ٤ ص ٤٤ ويشير فقط إلى استشهاد ابن الحاج.

(٢) ابن الكردبوس ص ١١٣.

(٣) البيان المغرب ج ٤ ص ٤٥ ـ مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة السنة ١٩٥٢ ـ المجلد الثاني ص ٥٧ و ٥٨.

(٤) فقد تراجع أمام أسوار سرقسطة وصمود سكانها شارلمان عام ١٦١ هـ/ تموز ٧٧٨ م.

الاتصال بالأمير يوسف وأرسل إليه سفارة من وزيريه أبي الأصبغ وأبي عامر وكانت برئاسة ابنه عماد الدولة أبي مروان عبد الملك[1]. وزود المستعين السفارة برسالة جاء فيها[2]: «نحن بينكم وبين العدو سد لا يصل إليكم ضرر، وقد قنعنا بمسالمتكم فأقنعوا منا بها إلى ما نعينكم به من نفيس الذخر».

استقبل الأمير يوسف السفارة بالترحاب وأجاب المستعين إلى ما طلب وبعث إليه برسالة طويلة[3]. ويرى الدكتور عفيف الترك في أمر هذه السفارة: «إن المستعين كان يهدف من وراء هذه السفارة اجتذاب المرابطين إلى مظاهرة الإسلام في الأندلس بعد أن ساء الوضع كثيراً عقب مقتل القادر بن ذي النون في بلنسية في ١٣ رمضان ٤٨٥/١٠٩٢م وما تلا ذلك من أحداث خطيرة حملت الكمبيادور على حصار بلنسية ودخولها في جمادي الأول ٤٨٧ هـ/١٠٩٤م، ولا يستبعد أن يكون المستعين والأمير يوسف قد اتفقا على تطهير منطقة بلنسية من القشتاليين وتحريرها من احتلالهم... وقد يكون بين بنود المعاهدة أن يساعد يوسف المستعين على استرجاع أراضي طرطوشة

---

(١) الحلل ص ٥٣ ـ المغرب الكبير ص ٧٣٢ ـ الأندلس في عهد المرابطين ص ١٠٥.
(٢) الحلل ص ٥٣ ـ المغرب الكبير ص ٧٣٢.
(٣) (١) نص رسالة الأمير يوسف إلى المستعين: من أمير المسلمين وناصر الدين يوسف بن تاشفين إلى المستعين بالله أحمد بن هود أدام الله تأييده. من حاضرة مراكش حيث تتلى آية شرفك ومآثر سلفك، ونحن نحمد الله بجميع المحامد ونستهديه أحسن الموارد ونسأله أتم الفوائد وأنجح المقاصد ونصلي على سيدنا محمد صفوة أوليائه وخاتم أنبيائه.

وأما الذي عندك أيدك الله لجنابك الكريم ومجدك الصحيح ومحلك المعلوم فود صريح وعقد في ذات الله تعالى صحيح. وردنا نشأة السيادة والنبل والنباهة والفضل أبو مروان عبد الملك ابنك ولادة ونسباً وإننا وداداً وتقرباً زاد الله به عينك قرة نفسك مرة ومعه خاصتك الوزيران أبو الأصبغ وأبو عامر أكرمهما الله بتقواه، وكلا وفيناه حق نصابه وأتيناه بره من بابه وأدينا إليك كتابك الجليل الخطير المقبول المبرور فوقفنا منه على وجه شخوصهما وأصغينا في تفصيل جملة إلى تخليصهما فألقينا لهما مراجعة ذلك ما لقنوه وسفرنا لهما عن وجه مقصدنا فيه حتى استبانوه وجملته الوفاق وجماعة الانتظام في سلك ما يرضي الله تعالى والسلام. الحلل ص ٥٣ و ٥٤.

ولاردة من المنذر التجيبي وضمها إلى سرقسطة لتكون جبهة قوية مع المرابطين للوقوف أمام نوايا قطالونيا وأراغون التوسعية. ومن المرجح أن هذه السفارة الهودية قد وصلت إلى مراكش عندما انتهى ابن عائشة من التغلب على مرسية ودانية في الوقت الذي كان فيه السيد يضيق الخناق على بلنسية ٤٨٦ هـ[١] ١٠٩٣ - ١٠٩٤ م».

وتوطدت العلاقات الودية بين الأميرين، وأهدى المستعين إلى الأمير يوسف سنة ٤٩٦ هـ/١٤ آنية من الفضة مما يدل على متانة تلك العلاقات[٢].

وهكذا أقام المستعين بن هود في سرقسطة مرتاح البال يهدد النصارى بالمرابطين فيما لو حدثتهم أنفسهم بمهاجمة حدوده[٣]. وبقيت سرقسطة الإمارة الوحيدة التي لم يضمها الأمير يوسف إلى دولته.

في عام ٤٩٦ هـ/١١٠٢ م عبر الأمير يوسف للمرة الرابعة والأخيرة إلى الأندلس، وكانت دويلات الطوائف قد سقطت بيد المرابطين وآلت الأندلس إلى سلطانهم وغدت ولاية تابعة للمغرب، وقد توارت العناصر والزعامات وأنهار سلطان العصبيات المحلية.

وقصد الأمير يوسف إلى قرطبة ينجز المهمة التي قدم من أجلها إلا وهي تنظيم شؤون الأندلس والنظر في أمور المملكة المرابطية، وكانت تحدوه نحو الأندلسيين عواطف ونيات سلمية[٤]، واصطحب معه ابنيه الأميرين أبا

---

(١) المغرب الكبير ص ٧٣٧ «حيث ورد رأي الدكتور عفيف الترك وهي مأخوذة من أطروحة الدكتور عفيف الترك لنيل الدكتوراة عام ١٩٥٦ تحت عنوان دولة بني هود في سرقسطة.

(٢) المغرب الكبير ص ٧٣٧ - الحلل ص ٥٤ - الكامل ج ١٠ ص ١٩٣.

(٣) الحلل ص ٥٤ - العبر ج ٦ ص ١٨٨ - أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر ص ٢٠٠ تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٣٢٢ - دائرة معارف القرن العشرين مادة لثم ص ٣٢٦.

Dozy· Hist. des Mus. D'Esp. t. 3. p. 153

(٤) الحلل ص ٥٥ - الأندلس في عهد المرابطين ص ١١٢.

الطاهر تميم وأبا الحسن عليا، وكان الأصغر سناً[1]. وبعد أن تفقد الإدارات واطمأن إلى حسن سير العمل فيها جمع القادة والولاة من لتونة وأشياخ البلاد وفقهائها في قرطبة[2] وأفضى إليهم بالذي ينويه ألا وهو ولاية العهد لولده علي[3]، فسارعوا إلى تنفيذ رغبته، وبايعوا علياً بولاية العهد في ذي الحجة ٤٩٦ هـ/ ١١٠٣ م[4].

والدافع الذي حدا بالأمير يوسف إلى إدخال نظام ولاية العهد في حكمه يعود إلى أنه عمر قرنا استطاع خلاله أن يؤسس دولة شملت المغرب والأندلس وضمت شعوباً وقبائل وممالك متفرقة وحدها بعبقريته وأشركها في معارك الجهاد، ولكي يضمن لهذه الدولة الناشئة الوحدة ويعصمها من الفرقة بعد وفاته، كان لا بدّ له من أن يضع لها نظاماً يكفل لها ذلك فطبق نظام ولاية العهد ليبقى لها حاكم واحد. وقد استمر هذا النظام حتى سقوط دولة المرابطين. واتبع الأمير يوسف النظام الوراثي السائد في العالم الإسلامي آنذاك، ولو أنه ترك الأمر شورى بين المرابطين لآل أمرهم إلى الفرقة لصعوبة اجتماعهم على شخص معين ولأدى ذلك إلى الفوضى، مما يهدد المغرب وبالتالي ينعكس الأمر على الأندلس التي كانت بحاجة ماسة للاستقرار ولمساعدة المرابطين.

وقد علل ترشيحه لابنه علي لهذا المنصب لمتابعة العمل برسالة المرابطين وللمحافظة على وحدة الأمة، ولا يستبعد أن يكون الأمير يوسف قد لجأ إلى تولية علي دون سائر أبنائه قد حدث تحت تأثير زوجته أم علي[5] وكانت على

---

(١) روض القرطاس ص ١٠١ ـ الأندلس في عهد المرابطين ص ١١٢.

(٢) روض القرطاس ص ١٠١ ـ الأندلس في عهد المرابطين ص ١١٢.

(٣) روض القرطاس ص ١٠١ ـ الأندلس في عهد المرابطين ص ١١٢ ـ الحلل ص ٥٦ ـ
Hamet: Hist. du Mag. p. 90

(٤) روض القرطاس ص ١٠١ ـ الحلل ص ٥٦ ويذكر أن عام أخذ البيعة هو ٤٩٥ هـ/ ١١٠١ م الأندلس في عهد المرابطين ص ١١٢ ويذكر تاريخ أخذ البيعة ١١٠٣ م ٤٩٦ هـ. مرآة الجنان جـ ٣ ص ١٦٧، لم يحدد التاريخ.

(٥) إبراهيم حركات: النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين ص ٧٦.

جانب عظيم من الجمال، ولا يستغرب أن تعمل على تولية ابنها. وقد عبر صاحب المعجب عن قوة نفوذ المرأة في عهد المرابطين: «استولى النساء على الأحوال وأسندت إليهن الأمور»[1].

واختيار الأمير لمدينة قرطبة لأخذ البيعة يدل على مكانة المدينة، فهي حاضرة الخلافة في الغرب الإسلامي ولها قدسية واحترام في نفوس المسلمين، لذلك فضلها على غيرها من مدن الأندلس، ولعل يوسف كان يهدف إلى جذب مسلمي الأندلس والى القضاء مسبقاً على كل تمرد يؤدي إلى الانفصال بين العدوتين، فأراد أن يثبت لمسلمي الأندلس أن احترام آرائهم ومكانة بلادهم تستحوذ على اهتمامه.

وعهد الأمير يوسف إلى كاتبه الفقيه أبي محمد بن عبد الغفور[2] أن يكتب نص ولاية العهد وكان مشهوراً ببلاغته. وهذا هو النص[3]:

(الحمد لله الذي رحم عباده بالاستخلاف، وجعل الإمامة سبب الائتلاف، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه الكريم الذي ألف القلوب المتنافرة، وأذل لتواضعه عزة الملوك الجبابرة.

أما بعد فإن أمير المسلمين وناصر الدين أبا يعقوب يوسف بن تاشفين لما استرعاه الله على كثير من عباده المؤمنين، خاف أن يسأله الله غداً عما استرعاه كيف تركه هملاً لم يستنب فيه سواه. وقد أمر الله بالوصية فيما دون هذه العظمة وجعلها من أكد الأشياء الكريمة كيف في هذه الأمور العائدة بمصلحة الخاصة والجمهور. وإن أمير المسلمين بما لزمه من هذه الوظيفة وحضه الله بها من النظر في هذه الأمور الدينية الشريفة قد أعز الله رماحه واحد سلاحه فوجد ابنه الأمير الأجل أبا الحسن أكثرها ارتياحاً إلى المعالي

---

(1) المعجب ص ١٧٧.
(2) الحلل ص ٥٦.
(3) الحلل ص ٥٦ و٥٧.

واهتـزازاً وأكـرمها سجية وأنفسها اعتزازاً، فاستنابه فيها استرعى ودعاه لما كان إليه، دعـا بعد استشارة أهل الرأي على القرب والنأي فرضوه لما رضيه واصطفوه لما اصطفاه ورأوه أهلاً أن يُسترعى في ما استرعاه، فأحضره مشترطاً عليه الشروط الجامعة بينها وبين المشروط، قبـل ورضي وأجاب حين دُعي بعد استخارة الله الذي بيده الخيرة والاستعانة بحول الله الذي من آمن به شكره. وبعد ذلك مواعظ ووصية بلغت من النصيحة مرامي قصية يقول في خاتمة شروطها وتوثيق ربوطها. كتب شهادتـه على النـائب والمستنيب من رضي أمامتها على البعيد والقريب وعلم علماً يقيناً بما وصاه في هذا الترتيب وذلك في عام ٤٩٥ هـ[١]/١١٠١ م.

وقد اشترط الأمير يوسف على ابنه علي أن يُبقي في الأندلس جيشـاً مرابطياً مؤلفاً من ١٧ ألف فارس موزعة على الحواضر والثغور منها سبعة آلاف بإشبيلية وألف بقرطبة وألف بغرناطة وأربعة آلاف بالشرق وباقي العدد أي خمسة آلاف بالثغور المتاخمة للنصارى للدفاع والمرابطة وقمع كل تمرد قد ينشب في المستقبل[٢].

وهكذا صار الأمير يوسف وابنه علي من كبار الملوك[٣] وسارع القراء إلى مدحه[٤] وانقطع إليه من أهل كل علم فحوله حتى اشبهت حضرته حضرة خلفاء بني العباس في صدر دولتهم[٥].

---

(١) قد يكون نص ولاية العهد قد كتب، قبل عبور يوسف الأخير إلى الأندلس بعام أي في عام ٤٩٥ هـ/١١٠١ م.

(٢) الحلل ص ٥٧ و٥٨ ـ مجلة كلية الآداب ـ جامعة القاهرة المجلد ١١ ج ٢ ص ٩٧ الثغر الأعلى في عهد المرابطين د. مؤنس.

(٣) المعجب ص ١٦٣.

(٤) قال أحد الشعراء يمدح الأمير علياً:

وإن كـان في الإنسـان يحسب ثـانيـاً ... عـلي وفي الـعـليـاء يحـسـب أولاً

كـذلـك الأيـدي سـواء بـنـانها ... وتختص في هن الخنـاصـر بـالحـلا

الحلل ص ٥٥ و ٥٦ ولم يذكر اسم الشاعر

(٥) الحلل ص ٦٠.

وقال محمد بن الخلف في البيان الواضح: ومما سلى النفوس كل التسلية وأطفأ نار الرزية ما كان من نظره الجميل ورأيه الأصيل من توليج الأمر في حياته لابنه الأمير أبي الحسن.

ولم تسجل تولية علي أية معارضة من أي جانب على الرغم من أنه أصغر أخوته سناً، وقد رشحه الأمير يوسف وقبله المرابطون، ذلك لأن الملثمين قد أذعنوا لاحترام لمتونة منذ أربعة قرون بينما أذعنت لمتونة بدورها لبني ورتنطق منذ ذلك التاريخ، بالإضافة إلى شخصية يوسف القوية التي كانت تضفي الهالة على دولته الناشئة.

وأصدر الأمير يوسف أوامره بأن ينقش اسم ولي عهده إلى جانب اسمه على السكة. فصدرت النقود تحمل في إحدى وجهيها «لا إله إلا الله ـ الأمير علي بن الأمير يوسف بن تاشفين»[1]. وكذلك أمر بالدعوة له في خطب الجمعة.

وفاة الأمير يوسف بن تاشفين

بعد أن أتم الأمير يوسف أخذ البيعة لخليفته الأمير علي، واطمأن لى حسن سير الإدارة في الأندلس قفل عائداً إلى المغرب واستقر بعاصمته مراكش.

وفي أواخر عام ٤٩٨ هـ/١١٠٤ م مرض أمير المسلمين وأصابه الضعف واشتدت به العلة وأدرك قرب أجله استدعى ولده علياً وأفضى إليه بوصيته الأخيرة وهي تحتوي على ثلاث خصال، الأولى ألا يهيج أهل جبل درن ومن وراءه من المصامدة وأهل القبلة، والثانية أن يهادن بني هود وأن يتركهم حائلاً بينه وبين الروم والأخيرة أن يقبل من أحسن من أهل قرطبة ويتجاوز عن مسيئهم[2].

---

(١) إبراهيم بركات: التاريخ السياسي والحربي للمرابطين ص ٨١.

(٢) الحلل ص ٦٠.

وبعد مرض دام عاماً وشهرين فاضت روحه إلى باريها نهار الإثنين الثالث من المحرم ٥٠٠ هـ/ الرابع من أيولل ١١٠٦ م[١] بعد أن بلغ من العمر قرناً بكامله ٤٠٠ ـ ٥٠٠ هـ/١٠٠٩ ـ ١١٠٦ م، وحضر الوفاة ولداه أبو الطاهر تميم وولي عهده أبو الحسن علي[٢]، ودفن بحاضرة قصره في مراكش[٣].

وهكذا غاب الأمير يوسف بن تاشفين الذي تربى في أحضان الإسلام واستلهم أيام الرسالة الأولى، وأيقن أن الصحراء الممزقة قطعاً تتنازعها قبائل بدوية لا تعرف إلا الغزو ولا تحب إلا التناحر فيما بينها، أيقن أن الإسلام وحده قادر على لمّ الشمل وجمع الكلمة وتوحيد القوة لتغيير وجهة التاريخ، لقد سار على خطى نبي الإسلام محمد (ص) الذي وحد قبائل العرب وجعل منهم قوة وصل مدها إلى أواسط أوروبا وقلب بلاد الصين، وبعد أربعة قرون ظهر يوسف بن تاشفين في صحراء المغرب وأثبت للتاريخ أن قوة العرب ووحدتهم لا يمكن أن تنفصم عن الإسلام دين الوحدة والمحبة والقوة والعدالة.

وضع يوسف نصب عينيه هذه المبادىء وآمن بها وأخذ يسعى إلى تحقيقها في رقعة شاسعة من البلاد العربية، فعمل على وحدة القبائل المغربية وجاهد

(١) الحلل: ص ٦٠ يذكر أن الوفاة في شهر ربيع الأول ٥٠٠ هـ/ روض القرطاس يذكر التاريخ مستهل محرم عام ٥٠٠ هـ ص ١٠١ ـ الكامل ج ١٠ ص ٤١٦ يذكر التاريخ عام ٥٠٠ هـ نفح الطيب ج ٦ ص ١١١، الوفاة عام ٥٠٠ هـ ـ وفيات الأعيان ج ٧ ص ١٢٥، الوفاة الاثنين ٣ محرم ٥٠٠ هـ وهذا هو التاريخ المعتمد ـ الحلة السيراء ص ٣٠٥ الوفاة ٥٠١ هـ/١١٠٧ م دائرة معارف القرن العشرين: مادة لثم ص ٣٢٦، للوفاة ٣ محرم ٥٠٠ هـ/ أيلول ١١٠٦ م ـ أعمال الأعلام: تحقيق د. عبادي ص ٢٥٢ الوفاة مستهل محرم ـ تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ص ١١٤ الوفاة محرم ٥٠٠ هـ/ أيلول ١١٠٦ ـ ابن الكردبوس ص ١١٣. شذرات الذهب جـ ٣ ص ٤١٣.

Hamet: Hist. du Mag. p. 90

(٢) الحلل ص ٦٠.

(٣) الحلل ص ٦٠.

المعارضين حتى أخضعهم وفرض عليهم إظهار المحبة واعتناق مبادئها لأنها من نظم الحكم. أما القوة فأعلن الأمير يوسف مبدأ الجهاد وحول المغرب إلى معسكرات فاعلة في رد الأعداء وقهر المتمردين تتساند في أثناء الأخطار الداهمة، وجند جيشاً[1] من قبائل متصارعة وحدها بعبقريته واستطاع يوسف أن ينال ثقة أفراد جيشه فتعلقوا به رغم اختلاف مشاربهم وقادهم أنّى شاء ومتى شاء لمحاربة أعدائه الداخليين والخارجيين، ولما أنس لقوته رمى بنظره بعيداً فعبر البحر على جسر من الإيمان يجدد وراءه الإسلام الذي بات غريباً بوصاية ملوك الطوائف الأندلسيين وتداعى أمام هجمات القوى الصليبية المتحالفة. إن ابن الصحراء الجافة استطاع بفضل إيمانه واستلهام مبادىء الإسلام أن يتفوق على تنظيمات وخطط جيوش أوروبا النصرانية، وصنع يوسف «نصر الزلاقة» بحنكته وخبرته ورباطة جأشه فكانت «يرموكا» جديدة زعزعت جيوش الفرنجة، وغدا اسمها مقترناً باسم صانعها وكأن الزلاقة هي يوسف بن تاشفين لا تتعداه إلى آلاف الجنود المجاهدين تحت رايته. وأثبت مرة أخرى أن الصحراء لا تصدر الأجلاف من البدو بل تنبت على حبات رمالها اللاهبة ومضات من الأفكار والنظم تنهل من منابع الفقه الإسلامي الذي نفخ فيه يوسف روح الحياة وأخرجه إلى حقول التطبيق العملي بعد أن غاب عن مسرح الحكم أثر انتهاء خلافة الراشدين، فيوسف كان ينفذ تعاليم الفقيه الأول الإمام ابن ياسين ولا يخالفها ويستلهمها في كل صغيرة وكبيرة، وكان يرجع في قرارته الحربية والسياسية والاجتماعية إلى فتاوى خلفاء الإمام ابن ياسين ومن الفقهاء في العالم الإسلامي وليس في المغرب والأندلس، ألم يعبر يوسف إلى الأندلس بفتوى من الفقهاء؟ ألم يحاسب ملوك الطوائف في الأندلس بصدور فتاوى الفقهاء ضدهم لأنهم ضيعوا الإسلام وأهله؟ لقد ألّف الفقه عاملاً حاسماً في انتصارات يوسف وتصلبه في تنفيذ القرارات وإضفاء صفة الشرعية على تحركاته بعد أن وسم دولته بالعدالة القوية. هذه

---

(١) راجع موضوع الجيش في الفصل السادس.

الصفات وأمثالها دفعت المؤرخ الألماني أشباخ إلى القول عن الأمير يوسف بن تاشفين: «إنه أحد أولئك الرجال الأفذاذ الذي يلوح أن القدر اصطفاهم لتغيير وجهة سير الحوادث في التاريخ، فهو الذي جعل من أفريقية الممزقة شر تمزق مملكة عظيمة موحدة، وهو الذي بث روحاً قوية في القبائل والشعوب التي يحكمها وقد أفضت هذه الروح إلى تحقيق العجائب»[1]. إنه ولي القرن الخامس الهجري.

(١) الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ص ١١٤.

الفصل السادس

الدّولة المرابطية في عهد الأمير يوسف بن تاشفين

١ ـ علاقات الأمير يوسف الخارجية: مع الخلافتين الفاطمية والعباسية مع بني حماد وبني هود وأمراء الأندلس.

٢ ـ لقب الأمير يوسف.

٣ ـ نائب الأمير

٤ ـ الولاة.

٥ ـ القضاة

٦ ـ الوزارة ـ والحجابة.

٧ ـ الكتابة.

٨ ـ الجيش.

٩ ـ الأسطول.

١ ـ بناء مراكش

١١ ـ مع أهل الذمة / النصارى ـ اليهود.

١٢ ـ أموال الدولة: الدرهم والدينار والضرائب.

١ ـ علاقات الأمير يوسف الخارجية:

أ ـ مع الخلافتين العباسية والفاطمية:

شهد العالم الإسلامي في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي ثلاث خلافات متنافسة فيما بينها الخلافة العباسية السنّية في بغداد والخلافة الفاطمية الشيعية في المغرب ثم انتقلت إلى مصر والخلافة الأموية السنّية في الأندلس. وانقسم العالم الإسلامي بين هذه الخلافات الثلاث وسادته الحروب الداخلية من جراء ذلك ولم تعمر الخلافة الأموية كثيراً فقد سقطت بعد قرن من الزمن ٤٢٢ هـ/١٠٣١ م قبل ظهور المرابطين، ولما قامت دولتهم وهم مالكيون كان لا بدّ لهم من الانضواء تحت راية خلافة للمحافظة على وحدة العالم الإسلامي الروحية على الأقل وانسجاماً مع مبدأ الإمام مالك ومذهبه. كانت هناك خلافتان شيعية فاطمية وسنّية عباسية. لم يفكروا بالاعتراف بالخلافة الفاطمية الشيعية بسبب العداء المستحكم بين الفرق الإسلامية فهم مالكيون سنّيون متعصبون اعتبروا محاربة الشيعة في مدينة تارودانت جهاداً في سبيل الله[1] فليس من المعقول أن تقوم علاقات طيبة بينهم وبين الفاطميين، وبالإضافة إلى العامل المذهبي هناك العامل السياسي الذي كان يباعد بينهم لقد كانت الخلافة الفاطمية وهي في مصر قريبة منهم وجذورها في المغرب قوية، فقد

(١) راجع صفحة ٣٩.

كانت تتدخل في شؤونهم الداخلية مما زاد من العلاقات السيئة حتى أنهم عدلوا عن طريق مصر في الذهاب إلى الحجاز لإداء فريضة الحج[1] بالرغم من المحاولات التي بذلها الوزير الفاطمي بدر الجمالي لاستمالتهم وسلكوا طريقاً آخر يمتد عبر الصحراء إلى أعالي السودان حيث لا سيادة للفاطميين هناك، فعامل الخوف بالإضافة إلى العامل المذهبي باعد بين الفريقين مما دفع بالمرابطين إلى الاتجاه نحو الخلافة العباسية السنّية، كانوا ينظرون إليها نظرة أسمى من الخلافة الفاطمية لأنها أقرب إلى مذهبهم وبالتالي لبعدها عنهم فكانوا لا يخشونها خاصة بعد أن تطرق إليها الفساد ودب الضعف فيها وهي لا تشكل أي خطر عليهم. لذلك اعترفوا بها واتخذوا السواد شعاراً لهم[2] ونقشوا اسم الخليفة العباسي على نقودهم منذ منتصف القرن الخامس الهجري[3]. وبعد أن بسط الأمير يوسف سيادته على الأندلس طلب منه الفقهاء أن تكون ولايته من الخليفة لتجب طاعته على الكافة. ونزولاً عند رغبتهم اتصل بالخليفة العباسي أحمد المستظهر بالله[4] ٤٨٧ ـ ٥١٢ هـ/١٠٧٤ ـ ١١١٨ م وأرسل إليه بعثة من عبد الله بن محمد بن العربي المعافري الإشبيلي المشهور وولده القاضي أبو بكر بن العربي الإمام المعروف[5] وزودهما بهدية ثمينة وبكتاب يذكر فيه ما فتح الله على يده من البلاد في المغرب والأندلس وما أحرزه من نصر للمسلمين وعز للإسلام ويطلب في النهاية تقليداً بولاية البلاد التي بسط نفوذه عليها[6]. وأدت البعثة

---

(١) حسن محمود: قيام دولة المرابطين ص ٣٣٢.

(٢) السواد شعار العباسيين ـ والبياض شعار الأمويين ـ والأخضر شعار الفاطميين.

(٣) نُقش اسم الخليفة العباسي على الدينار المرابطي منذ العام ٤٥١ هـ/١٠٥٩ م أيام الأمير أبي بكر بن عمر والخليفة العباسي هو القائم ٤٢٢ ـ ٤٦٧ هـ/١٠٣٢ ـ ١٠٧٤ م: سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين. مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد. المجلد الثاني ١٩٥٤ ص ٦٥ وهذا يدل على الولاء المبكر من قبل المرابطين للعباسيين.

(٤) العبر ج ٦ ص ١٨٨ ـ الكامل ج ١٠ ص ٤١٧ ـ الاستقصا ج ١ ص ١٢٢. مرآة الجنان ـ جـ ٣ ص ١٦٤.

(٥) العبر ج ٦ ص ١٨٨ ـ الاستقصا ج ١ ص ١٢٢.

(٦) الكامل ج ١٠ ص ٤١٧.

مهمتها بنجاح فتلطفت في القول وأحسنت الإبلاغ. وعادت إلى المغرب بتقليد الخليفة وعهده[1] للأمير يوسف بن تاشفين الذي سر بذلك سروراً عظيماً.

من الناحية العملية لم يكن الأمير يوسف بحاجة إلى تقليد من الخليفة العباسي الضعيف الذي لا يملك من السلطة إلاَّ سمة الخلافة فهو أكثر قوة منه يملك ويحكم، ولكن بما أن المرابطين في ذروة حماسهم الديني كانوا يعملون بالحديث الشريف: من مات ولم يكن في عنقه بيعة لخليفة زمانه مات ميتة جاهلية. وهذا دليل التقوى التي تحلى بها الأمير يوسف. وهكذا بسطت الخلافة العباسية سيادتها الإسمية على المغرب والأندلس وهي في حالة من الانحلال والضعف لا تُحسد عليها، وقد عجز عن ذلك خلفاؤها العظام أمثال المنصور والرشيد. والخليفة العباسي يعطيه ارتباط الغرب الإسلامي به ـ ولو روحياً ـ قوة قد تمكنه من الوقوف بوجه الطامعين في الخلافة العباسية سواء المتسلطين عليها من السلاجقة أو المحاولين إسقاطها كالفاطميين، وهو بالإضافة إلى ذلك لن يخسر شيئاً من منح التقليد ليوسف بن تاشفين.

٢ ـ علاقات الأمير يوسف مع بني حماد وبني هود

توقفت فتوحات الأمير يوسف في المغرب لجهة الشرق عند حدود بجاية حيث بنو حماد الصنهاجيين ورغم القرابة التي تربطهم به فلم ترقهم فتوحاته وأخذوا يتحينون الفرص للوثوب على أطراف مملكة المرابطين. وقد واتتهم عندما عبر الأمير يوسف إلى الأندلس عام ٤٧٩ هـ/١٠٨٦ م فتحالفوا مع عرب بني هلال وغزوا المغرب الأوسط وعادوا إلى بلادهم محملين بالغنائم[2]، وسكت يوسف عن الانتقام منهم وصالحهم فهم

---

(١) العبر ج ٦ ص ١٨٨ ـ الاستقصا ح ١ ص ١٢٢ـ شذرات الذهب جـ٣ ص٤١٣ مرآة الجنان جـ٣ ص ١٦٤.

(٢) غزو بني حماد والهلاليين للمغرب الأوسط من أسباب عودة الأمير يوسف من الأندلس بعد الزلاقة مباشرة راجع ص ٩٨.

أقاربه ويشكلون حداً مانعاً وفاصلاً بينه وبين عرب بني هلال ولا يشكلون خطراً عليه كالهلاليين. وفي عام ٤٨١ هـ/١٠٨٨ م توفي الناصر بن علناس الحمادي فبعث الأمير يوسف بكتاب تعزية إلى ولده وخليفته المنصور[١] مما يدل على نيات يوسف السلمية تجاه بني حماد. واستمرت حالة السلم بين الفريقين أكثر من عشر سنوات حتى نشب الخلاف عندما هاجم القائد المرابطي والي تلمسان تاشفين بن تنيغمر بدون إذن من الأمير يوسف مملكة بني حماد ولكنه فشل وتراجع أمام المنصور الذي هاجم تلمسان ولم يتوقف إلا بعد أن طلب منه الأمير يوسف السلم[٢] الذي عزل حاكم تلمسان تاشفين وعين مكانه الأمير مزدلي[٣]. وبعد أن ضمّ الأمير يوسف الأندلس أضحت مملكة بجاية ملاذاً للفارين من الأندلس[٤]. ومع ذلك لم يحرك الأمير يوسف ساكناً تجاه عمل بني حماد وبقي الأمر كذلك حتى وفاته.

٣ ـ علاقات الأمير يوسف مع ملوك الطوائف:

مرّت علاقات الأمير يوسف بن تاشفين مع ملوك وأمراء الطوائف بمراحل مختلفة من الحذر المشوب بالخوف إلى التحالف فالعداوة التي أدت إلى ضم الأندلس إلى الدولة المرابطية وذلك تبعاً للظروف السياسية والعسكرية التي كانت تتحكم بالأندلس. فمنذ أن أطلت دولة المرابطين على البحر المتوسط خشي حكام الأندلس من عبوره إليهم وكرهوا أن يكونوا بين عدوين: الإسبان من الشمال والمرابطون من الجنوب[٥] ومع أن وطأة الإسبان كانت شديدة عليهم.

---

(١) الكامل ج ١٠ ص ١٦٦.
(٢) العبر ج ٦ ص ١٨٨

Hamet: hist. du maghreb p 90

(٣) أمبروسو هويسي ميراندا: مجلة تطوان ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩ ـ العددان ٣ و ٤ ص ١٦٥.
(٤) منهم معز الدولة بن صمادح ابن صاحب المرية.

Hist. du maghreb p. 59

(٥) نفح الطيب ج ٦ ص ٨٦ ـ الروض المعطار ص ٨٣ ـ الاستقصا ج ١ ص ١١٢ ـ وفيات الأعيان ج ٧ ص ١١٣

فقد كان بالإمكان مداراتهم بالأموال وبالتنازل عن بعض الحصون. أما المرابطون فهم مجاهدون في سبيل الله ومدافعون عن الإسلام والمسلمين ولا يسكتون على تصرفات حكام الأندلس، بالإضافة إلى ذلك كان للمرابطين صيت عظيم في المعارك وبأس شديد في القتال مما أدخل الرعب في نفوس أولئك الحكام فسارعوا إلى عقد مؤتمر[1] للتشاور في الأمر لتجنب الخطر القادم من الجنوب، واستقر رأى المؤتمرين على أن يكتبوا للأمير يوسف يسألونه الأعراض عنهم وأنهم تحت طاعته[2]. وهذا نص الكتاب (أما بعد فإنك إن أعرضت عنا نسبت إلى كرم ولم تنسب إلى عجز وإن أجبنا داعيك نسبنا إلى عقل ولم ننسب إلى وهن[3] وقد اخترنا لأنفسنا أجمل نسبتينا فأختر لنفسك أكرم نسبتيك فإنك بالمحل الذي لا يجب أن تسبق فيه إلى مكرمة وإن في استبقائك ذوي البيوت ما شئت من دوام لأمرك وثبوت والسلام). وقد زود المؤتمرون حامل الكتاب بهدايا وتحف نفيسة[4]. وبعد إطلاع الأمير يوسف على مضمون الكتاب استدعى كاتبه[5] للتشاور في الأمر فكان رأي الكاتب أن يسالم الأمير الأندلسيين ويرضى عنهم بما أبدوه من طاعة فطلب منه الأمير أن يكتب إليهم بذلك. وهذا نص الكتاب[6] «بسم الله الرحمن الرحيم. من يوسف بن تاشفين سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته. تحية من سالمكم وسلم عليكم وحكمه التأييد والنصر فيما حكم عليكم[7] وإنكم مما في أيديكم من الملك في أوسع إباحة مخصوصين منا بأكرم إيثار وسماحة فاستديموا وفاءنا

---

(١) نفح الطيب ج ٦ ص ٨٦ ـ الروض المعطار ص ٨٣ الاستقصا ج ١ ص ١١٢ وفيات الأعيان ج ٧ ص ١١٣.

(٢) نفح الطيب ج ٦ ص ٨٧ـ وفيات الأعيان ج ٧ ص ١١٤ـ الروض المعطار ص ٨٣ الاستقصا ج ١ ص ١١٢.

(٣) في الروض المعطار كلمة وهن بينما في نفح الطيب والاستقصا كلمة كرم.

(٤) نفح الطيب ج ٦ ص ٨٧ الاستقصا ج ١ ص ١١٢ الروض المعطار ص ٨٣.

(٥) الكاتب هو الوزير عبد الرحمن بن أسبط المتوفي عام ٤٨٧ هـ ١٠٩٣ م.

(٦) نفح الطيب ص ٨٨ الاستقصا ج ١ ص ١١٢ الروض المعطار ص ٨٧٣.

(٧) عبارة (وحكمه التأييد والنصر فيما حكم عليكم) في الروض المعطار فقط ص ٨٣.

بوفائكم واستصلحوا أخاءنا بإصلاح أخائكم والله ولي التوفيق لنا ولكن والسلام) وقد قرن الأمير يوسف الكتاب بالتحف ويدرق اللمط التي لا توجد إلّا في بلاد الملثمين. ولما وصل الكتاب إليهم قرأوه وقروا به وتقوت نفوسهم على الإسبان. وهكذا حصل يوسف بن تاشفين بفضل رأي وزيره على ما أراد من محبة أهل الأندلس[1].

وبعد استيلاء الفونس السادس على طليطلة في صفر ٤٥٧٨ هـ ـ أيار ١٠٨٥ م وتهديده للأندلس الإسلامية سارع حكامها إلى الاتصال بـالأمير يوسف وكان اتصالهم هذه المرة لطلب النجدة وليس للمسالمة فقد فوض مؤتمر قرطبة الشعبي[2] قاضي المدينة ابن أدهم استدعاء الأمير يوسف لإنقاذهم.

وعندما اشتد الضغط علـى صاحب بطليوس المتوكل بن الأفطس اتصل بالأمير يوسف وبعث إليه برسالة يصور له فيها محنة الأندلس ويطلب منه الإسراع لنجدتها وإلا ضاعت إلى الأبد[3]. وكذلك المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية فبعد غزوة الفونس التخريبية تشاور مع ابنه الرشيد في أمر استدعاء المرابطين لصد غارات الإسبان وعلى أثر ذلك اتصل بحكام الأندلس وشكل معهم بعثة من القضاة وبعض الوزراء مهمتها الذهاب إلى المغرب لمقابلة الأمير يوسف وقد زودوها برسالة مهمة[5]. استقبل الأمير يوسف السفارة الأندلسية في مراكش ,وجرت بينه وبين أعضائها محادثات انتهت باستجابة الأمير لطلب ملوك الأندلس[6] وبعد معركة حصن لييط عام ٤٨١ هـ ـ ١٠٨٨ م تغيرت الحالة بين يوسف وملوك الطوائف وانتقلت من التحالف إلى العداوة بعدما

---

(١) الاستقصا ج ١ ص ١١٢ وفيات الأعيان ج ٧ ص ١١٥.

(٢) راجع الصفحه ٦٧.

(٣) نص كتاب ابن الأفطس إلى الأمير يوسف بن تاشمين على الصفحتين ٦٢ ـ ٦٣.

(٤) كان بعض أمراء الأندلس يرى أن المرابطين أشد خطراً من النصارى الإسبان خاصة بعد الله بن سكوت والي مالقة.

(٥) نص الرسالة على الصفحتين ٧٠ ـ ٧١.

(٦) نص رسالة الأمير يوسف إلى ملوك الطوائف ص٧٣.

رأى من تخاذلهم وخيانتهم واتصالهم بالعدو ضد المرابطين. وهكذا انقلب حلفاء الأمس القريب إلى اعداء متحاربين يقاتل بعضهم بعضاً بضراوة غريبة[1]. وقد أدت المعارك بين الفريقين إلى إسقاط مملكة المعتمد وضمها إلى الدولة المرابطية وإلى أسره وسجنه في المغرب وكذلك حكام غرناطة ومالقة. أما المتوكل بن الأفطس فقد أُعدم مع ابنيه وابن صمادح مات لساعته عندما اقتحم المرابطون حاضرته[2].

علاقة الأمير مع الإسبان

كانت علاقة الأمير يوسف مع الفونس السادس عدائية بصورة دائمة إذ لم يتخللها أي اتصال ودي والاتصال الوحيد الذي جرى عن طريق الرسائل بين الأمير يوسف والفونس أثناء قيام هذا الأخير بحملته العدائية[3] على مملكة المعتمد ووصوله إلى مضيق جبل طارق إذ أرسل إلى الأمير يوسف رسالة تفيض تهديداً ووعيداً ويذكر فيها حالة ملوك الطوائف وكان جواب الأمير يوسف مختصراً ساحة المعركة خير دليل على الحقيقة[4].

لقب يوسف

كان يوسف بن تاشفين يلقب بالأمير ويشترك معه في هذا اللقب عدة شخصيات لمتونية لم تتقلد الرئاسة. وبعد أن استولى على المغرب وتضخمت مملكته. اجتمع إليه أشياخ قبيلته وعرضوا عليه أن يتلقب بأمير المؤمنين لأن حقه أكبر من أن يلقب بالأمير فرفض ذلك قائلاً (حاشى أن أسمى بهذا

(١) عبارة الأمير سير عن ضراوة القتال مع الإشبيليين (لو أني أقصد مدينة الشرك لم تمتنع هدا الامتناع راجع الصفحة ١٢٨.

(٢) الفصل الخامس يتضمن ضم الأندلس إلى الدولة المرابطية

(٣) يتردد كثيراً ذكر حملة الفوس على مملكة المعتمد بعد أخذه طليطلة وذلك لأهميتها إذ عندما شعر المعتمد بالخطر المحدق به وبعقم سياسته السابقة التي كانت قائمة على مداراة الإسبان.

(٤) نص الرسالتين المتبادلتين بين الفونس والأمير يوسف على الصفحتين ٦٥ و ٦٦.

الاسم إنما يتسمى به خلفاء بني العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة وأنا راجلهم والقائم بدعوتهم)[1] ولكنهم قالوا له أن لا بدّ له من اسم يمتاز به على سائر الأمراء واقترحوا عليه لقب أمير المسلمين وناصر الدين وأصبح العمل جارياً به من لدن سائر المرابطين. وقد صدرت الكتب تحمل هذا اللقب الجديد ابتداء من منتصف محرم ٤٦٦ هـ/١٠٧٤ م[2] وهذا نصها[3]: «بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً من أمير المسلمين[4] وناصر الدين يوسف بن تاشفين إلى الأشياخ والأعيان والكافة أهل فلانة أدام الله كرامتهم بتقواه ووفقهم لما يرضاه. سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته. أما بعد حمد الله أهل الحمد والشكر ميسر اليسر وواهب النصر والصلاة وعلى محمد المبعوث بنور الفرقان والذكر. وأنا كتبناه إليكم من حضرتنا العلية بمراكش حرسها الله في منتصف محرم ٤٦٦ هـ/١٠٧٢ م وإنه لما من الله علينا بالفتح الجسيم وأسبغ علينا من أنعمه الظاهرة والباطنة وهدانا وهداكم إلى شريعة محمد المصطفى نبينا الكريم صلى الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم أرينا أن نخصص أنفسنا بهذا الاسم لنمتاز به على سائر أمراء القبائل وهو أمير المسلمين وناصر الدين. فمن خطب الخطبة العلية السامية فليخطبها بهذا الاسم إن شاء الله تعالى والله ولي العدل بمنه وكرمه والسلام».

يشير ابن أبي زرع في روض القرطاس[5] إلى أن الأمير يوسف تلقب بأمير المسلمين في يوم الزلاقة ولم يكن يُدعى به من قبل وإن ملوك وأمراء الأندلس وكانوا ثلاثة عشر ملكاً بايعوه وسلموا عليه باسم أمير المسلمين وهو

---

(١) الحلل ص ١٦

(٢) الحلل ص ١٧ - شذرات الذهب جـ٣ ص ٤١٢ ولم يذكر السنة البيان المغرب ج ٤ ص ٢٧ و ٢٨٧ بغية الملتمس ص ٣١.

(٣) الحلل ص ١٧.

(٤) وردت العبارة من أمير المؤمنين ولعلها سهواً.

(٥) روض القرطاس ص ٩٦

أول من تسمى به من ملوك المغرب[1]. ولعل أهل الأندلس لم يعلموا بأنه تلقب بهذا اللقب قبل معركة الزلاقة ومما يدل على جهلهم بلقب يوسف الجديد وإنه تسمى به قبل الزلاقة مخاطبة الفونس له أثناء حملته التخريبية على إشبيلية فقد خاطبه (أما بعد فإنك أمير المسلمين ببلاد المغرب وسلطانهم. . .) وكان جواب يوسف (من أمير المسلمين إلى أذفونش)[2]. ويشير ابن خلدون في العبــر إن المعتمد بن عباد خاطب يوسف بلقب أمير المسلمين عندما «تكالب الطاغية على بلاد الأندلس بعد استيلائه على طليطلة»[3].

وقامت حول اللقب مشكلة شرعية وهي: هل يجوز لخطباء المساجد أن يدعو للأمير يوسف باعتباره أمير المسلمين؟ «فمن خطب الخطبة العلية السامية فليخطبها بهذا الاسم» ولهذا أرسل الأمير يوسف إلى الخليفة العباسي بعثة من علماء الدين تستفتيه في جواز حمل اللقب والدعاء له في مساجـد وعرض الخليفة العباسي الأمر على الفقهاء الذين اجتمعوا برئاسة الإمام الغزالي عام ٤٨٤ هـ/١٠٩١ م فأفتوا باستحقاق يوسف لهذا اللقب بعد النصر المبين الذي أحرزه على النصارى في معركة الزلاقة[4] وقد تأثر شعب النيجر بشكل خاص بالمرابطين وأطلق على حكامه لقب أمير المسلمين وكـانوا مـالكيي المذهب ويرجع ذلك إلى أن المرابـطين هم الذين نشروا الإسـلام في تلك الربـوع النائية[5].

نائب الأمير

اتخذ الأمير يوسف نواباً له في المغرب والأندلس إذ كان دائم التنقل بين العدوتين ووظيفة النائب سياسية. فقد كان منصبه كممثل أول لأمير المسلمين

---

(١) روض القرطاس ص ٨٨.
(٢) أعمال الأعلام. تحقيق د. عبادي ص ٢٣٩ و ٢٤٠.
(٣) العبر ج ٦ ص ١٨٦ - الكامل ج ١٠ ص ١٥٢.
(٤) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ج ٤ ص ٣١٦.
(٥) تاريخ الإسلام السياسي ج ٤ ص ٣١٦.

يتصل بالنظام السياسي أكثر مما يتصل بالنظام الإداري. وكان الأمير يوسف يشترط في اختيار نوابه الشروط التي تتوفر في الأمير نفسه[1] ما عدا مشورة الفقهاء ورجال القبائل إذ أن نائب الأمير يستمد سلطته من الأمير شخصياً، وولي العهد يكون نائباً للأمير ويتولى نيابة الأندلس ويقيم في قرطبة أو إشبيلية أو غرناطة وإن كانت قرطبة هي المفضلة لمكانتها السامية في نفوس الأندلسيين. وأول نائب له عينه الأمير يوسف القائد سير بن أبي بكر الملتوني ثم ابتدل به أبنه أبا الطاهر تميم بن يوسف. وتلي نيابة الأندلس من حيث الأهمية نيابة فاس بالمغرب وكان النائب يتسقر فيها عندما كان الأمير يوسف يعود إلى مراكش كي لا تحدث ازدواجية في السلطة[2].

كانت مهمة النائب بالدرجة الأولى عسكرية إذ كان عليه أن يخوض الحروب ويقمع الفتن وحركات التمرد يعاونه قادة كبار من لمتونة[3].

الولاة والقضاة

سيطر الطابع القبلي على دولة المرابطين من الناحية الإدارية فقد كان الأمير يوسف يعين الولاة على الأقاليم من لمتونة بشكل خاص وصنهاجة بشكل عام[4]. فبعد أن أتم فتح المغرب قسمه على بنيه وأمراء قومه[5] فولى سير بن أبي بكر[6] على مدائن مكناسة وبلاد مكلالة وبلاد فازاز وولى عمر بن

---

(١) من الشروط الرئيسية أن يكون من لمتونة.

(٢) إبراهيم حركات النظام السياسي والحربي عند المرابطين ص ٦٥.

(٣) مجلة كلية الآداب جامعه القاهرة المجلد ١١ ج ٢ ص ٩٧ تحت عنوان. الثغر الأعلى في عهد المرابطين للدكتور حسين مؤنس،

(٤) تعيين الولاة من لمتونة يدل على ضمان الاحتفاظ بوظائف الدولة بيد قبيلته.

(٥) العبر ج ٦ ص ١٨٥.

(٦) سير بن أبي بكر اللمتوني أحد المساعدين الرئيسيين للأمير يوسف تزوج من حواء بنت تاشفين الذي كان أخاً ليوسف من أمه وعماً له فيكون سير صهراً ليوسف: أمبروسو هويسي ميراند مجلة تطوان ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩ العددان ٣ و ٤ ص ١٦٣ وتوفي سير في جماد الأول ٥٠٧ هـ/ تشرين الأول ١١١٣ م

سليمان المسوفي مدينة فاس وأحوازها وداود بن عائشة سجلماسة ودرعة وتميماً مدينة أغمات ومراكش وبلاد السوس وسائر بلاد المصامدة وتدلا وتامسنا[1].

وعندما عزم على ضم الأندلس إلى مملكته أسند إلى القائد سير بن أبي بكر تلك المهمة وعينه حاكماً على الأندلس وأوصاه بأن يعين على كل بلد يفتحه حاكماً من لمتونة ثم عينه بعد ذلك على بطليوس ونواحيها وبقي إلى أن توفي عام ٥٠٧ هـ/١١١٣ م في عهد الأمير علي بن يوسف. وعين كذلك مزدلي - وهو ابن عم يوسف - على مدينة بلنسية بعد استردادها من النصارى عام ٤٩٥ هـ/١١٠٢ م ثم نقله وعينه على تلمسان بعد عزل تاشفين بن تنيغمر[2] وعين على بلنسية ابن فاطمة وعلى سبتة الأمير يحيى بن أبي بكر[3] وعين علي بن الحاج على غرناطة عام ٤٩٦ هـ/١١٠٢ م ثم خلفه محمد بن الحاج ٤٩٩ هـ/١١٠٤ م وكان الولاة يخضعون مباشرة لنائب الأمير. منح الأمير يوسف الولاة سلطات واسعة منها حق التصرف في عزل وتعيين من دونهم من الولاة المحليين ومن يليهم من رجال السلطة وكذلك القيام بتحركات عسكرية داخل مناطق نفودهم. كان الأمير يوسف يراقب ولاته مراقبة شديدة ويجزي تبديلهم ويعزلهم إذا أساؤوا[4] وكان يضع مصلحة الرعية في المقام الأول عند تعيين الولاة ويوصيهم بها خيراً وقد جاء في كتابه إلى عبد الله بن فاطمة[5] (فاتخذ الحق إيمانك... وارفع لدعوة المظلوم حجابك ولا تسد في وجه المضطهد بابك ووطن للرعية أحاطها الله اكنافك وأبذل لها إنصافك... والحرج كل ما يحيف عليها ويؤذيها. ومن سدد عليها من عمالك زيادة أوخرق في أمرها عادة أو غير رسماً أو بدل حكماً أو أخذ لنفسه منها درهماً

(١) روض القرطاس ص ٩١ - الاستقصا ج - ١ ص ١٠٩.
(٢) ابن الكردبوس ص ١١٣.
(٣) قلائد العقيان ص ١٢٧ ويحيى هذا حفيد الأمير يوسف.
(٤) النظام السياسي والحربي عند المرابطين ص ١٢٤.
(٥) عينه الأمير يوسف على بلنسية عام ٤٩٧ هـ/١١٠٢م.

ظلماً فأعزله من عمله[1] وعاقبه في بدنه وألزمه رد ما أخذ متعدياً إلى أهله واجعله نكالاً لغيره حتى لا يقدم منهم أحد على مثل فعله)[2].

وكان الأمير يوسف يخطر أهل الولايه بتعيين الوالي الجديد فكتب إلى أهل سبتة بشأن تولي الأمير يحيى بن أبي بكر أعمالها (ونحن من وراء اختباره والفحص عن أخباره فإذا وصل إليكم كتابنا ـ خطابنا ـ فالتزموا له السمع والطاعة والنصح والمشايعة جهد الاستطاعة)[3] بالإضافة إلى ذلك كان الأمير يوسف كثير الطواف في مملكته للإشراف على تنفيذ أوامره وتعليماته من قبل الولاة وللإطلاع على أحوال الرعية والنظر في أمورها[4].

القضاة

كان لمنصب القاضي أهمية كبيرة في عهد يوسف وخلفائه كان يعينهم من كبار العلماء دون الاستناد على العصبية القبلية ـ كما في تعيين الولاة ـ حتى إن أكثر القضاة كانوا من غير قبيلة صنهاجة وهي سياسة حكيمة اتبعها الأمير يوسف رغبة منه في تحقيق العدالة وتطبيق تعاليم الإسلام. وقد منحهم رتبة عالية في الدولة حتى كثرت أموالهم واتسعت مكاسبهم[5] وكانوا يستمدون نفوذهم من سلطة الدولة نفسها يحكمون وفق المذهب المالكي ويقوم بتنفيذ أحكامهم الولاة والحكام المحليين[6] وقد شارك القضاة في معارك الجهاد في الأندلس واستشهد بعضهم في معركة الزلاقة منهم القاضي عبد الملك المصمودي قاضي مراكش.

---

(١) وهي السلطة التي منحها لولاته في عزل من هم دونهم.

(٢) قلائد العقيان ص ١١٧.

(٣) قلائد العقيان ص ١٢٧.

(٤) الأندلس في عهد المرابطين ص ١١٦.

(٥) النظام السياسي والحربي عند المرابطين ص ١٢٦.

(٦) تاريخ الإسلام السياسي ج ٤ ص ٣٨٢ وما بعدها (اختصاصات القضاة).

الوزارة والحجابة

لم يتخذ الأمير يوسف وزراء بالمعنى المتعارف عليه ولم يمنح لقب وزير لأي شخص كان لأنه كان أبعد الناس عن استعمال الألقاب الفخمة فلم يفكر في أن يتحلى بها هو نفسه فضلاً عن أن يحلي بها غيره وكان قبوله بلقب أمير المسلمين كافياً للدلالة على تواضعه وفهمه لحقيقة الإسلام. لكن الأمير يوسف اتخذ موظفين يرجع إلى مشوتهم وكتاباً يشرفون على ديوان الرسائل أو الإنشاء مما جعل المؤرخين لا يفرقون بين هؤلاء وأولئك فسموا المستشارين وزراء والآخرين كتاباً[1] وأحياناً كثيرة أطلقوا كلمة وزراء على الجميع ولم يتخذ الأمير مجلس وزراء بل كان عنده هيئة استشارية تشترك فيها طائفة من الفقهاء والأعيان والكتاب يلازمونه في قصره وتنقلاته يبدون آراءهم في المشاكل المطروحة للبحث وتبقى الكلمة الفصل للأمير. أما في الأمور المهمة كان يجمع زعماء المرابطين وأبناء عمومته من لمتونة للتداول واتخاذ الآراء[2] ولم يتخذ حجاباً لأن دولته اتسمت بالبساطة فلم يكن هناك تعقيد بل من اليسير على أي شخص الاتصال بالأمير عن طريق الأعوان وقد ساعد على ذلك ما امتاز به الأمير من زهد في الدنيا.

الكتابة

أنشأ الأمير يوسف ديوان الإنشاء لتحرير الرسائل تولاه رجال من أشهر الأدباء في تلك الحقبة جميعهم أندلسيون[3] وأكثرهم من الذين برزوا في ظل ملوك الطوائف إذ أن الحياة الأدبية بلغت أوجهاً في عهدهم ـ عكس الحالة السياسية المنهارة ـ حتى أن أكثر الملوك كانوا يتنافسون على التقرب من الشعراء

(١) تاريخ الإسلام السياسي ج ٤ ص ٣٣٠.
(٢) الحلل ص ٣١.
(٣) مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد السنة ١٩٥٩ ـ ١٩٦٠ ـ المجلدان ٧ و٨ ص ١١٥.

والأدباء فكل ملك اتخذ بطانة منهم وهؤلاء كانوا يقضون معظم أوقاتهم مع الملوك يسامرونهم وينادمونهم. والذي دفع بالأمير يوسف إلى اتخاذهم من الأندلس إن المغرب لم ينجب أدباء في تلك المرحلة بحيث يمكن الاستغناء عن الأندلسيين، وللاستعانة والأسترشاد بخبرتهم في سياسة الأندلس خاصة وإن أكثرهم عمل إلى جانب ملوك الطوائف وعرف خفايا الأمور وهذا ما كان يجهله الأمير يوسف بالطبع[1]. وكان يرأس هؤلاء الأدباء موظف كبير يسمى الكاتب.

وكانت استعانة الأمير يوسف بهؤلاء الأدباء من أجلى مظاهر توثيق العلاقات بين الأندلس والمغرب والتقريب بين ثقافتي البلدين وهذه العلاقات لم تنقطع منذ أن أصبح الأندلس جزءاً من العالم الإسلامي. إلا أن جواز المرابطين للأندلس وحكمهم لتلك البلاد معناه الوحدة الكاملة بين العدوتين لأول مرة وهي وحدة استفاد منها الجانبان فقد عرف المغرب كيف ينتفع من الحضارة الأندلسية ومقوماتها ويصطنعها بسرعة وإن عناية المرابطين بالثقافة والأدب نثره وشعره كانت كبيرة فقد أقبلوا على الثقافة الأندلسية ينهلون منها في تواضع المستفيدين وقد حدث التنافس بين الكتاب الأندلسيين العاملين ببلاط الأمير يوسف وبين المغاربة الذين حاولوا أن يثبتوا جدارتهم في هذا المضمار[2].

وبعد وفاة الكاتب الشهير ابن أسبط عام ٤٨٧ هـ/١٠٩٣ م حفل بلاط الأمير يوسف بطائفة من هؤلاء الكتاب رفعت من شأن الدولة المرابطية وقد شجعهم الأمير على ذلك خاصة وإن سياسته الثقافية كانت بعيدة عن العنصرية فأراد أن يشعر شخصيات الأندلس الأدبية بأنهم أهل البلاد ولهم

(١) من هؤلاء الكتاب عبد الرحمن بن أسبط وقد ظهرت حكمته عندما استشاره الأمير في مسألة استعانة ابن عباد به فأشار عليه بأخذ الجزيرة الخضراء كمقدمة للعبور (فتجعل فيها أثقالك وأجنادك ويكون الجواز بيدك متى شئت) الحلل ص ٣٢.

(٢) التاريخ السايسي والحربي عند المرابطين ص ٩٥.

الحق في وظائف الدولة ومن أشهر الكتاب الأندلسيين الكاتب أبو بكر محمد بن سليمان القلاعي الإشبيلي المعروف بابن القصيرة المتوفي في مراكش عن ٥٠٨ هـ/١١١٤ م وكان له دور بارز في الأحداث التي أحاطت بالزلاقة وما بعدها وكان ببلاط إشبيلية. وبعد وفاة ابن أسبط استدعاه الأمير يوسف للرد على رسالة وردته من مصر[١]. (وكان ابن القصيرة غرة في جبين الملك ودرة لا تصلح إلا لذلك السلك)[٢].

ومنهم الوزير الفقيه أبو القاسم بن الجد الذي جمع طبع العراق وصفة الحجاز[٣] وكذلك الكاتب أبو عبد الله اللوشي وغيرهم[٤]. . .

وهكذا تبدل بلاط الأمير يوسف دفعة واحدة من بلاط يتسم بالخشونة إلى بلاط متألق بالحضارة.

الجيش

بدأ الأمير يوسف بتنظيم الجيش المرابطي أيام نيابته على المغرب، وعندما تنازل له الأمير أبو بكر عنه ازداد اهتمامه به فقد أدرك أن الخطوة الأولى في طريق النصر هي تنظيم قوى المرابطين الذين حملوا وحدهم عبء فتح المغرب، وقد بلغ تعداد الجيش المرابطي عند فتح فاس مئة ألف مقاتل[٥] وهذا يدل على نمو الدولة المتزايد وعلى الأهمية التي يعلقها يوسف على الجيش. وقد قسمه إلى فرقتين كبيرتين من الفرسان والمشاة ثم أنشأ فرقاً من الرماة والأغزاز والسهام والنشاب. ثم ازدادت الأعباء الملقاة على عاتق

---

(١) مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد السنة ١٩٥٩ ـ ١٩٦٠ المجلدان ٧ و٨ ص ١١٥.
ولابن القصيرة انشاءات سلطانية تتعلق بالزلاقة: الذخيرة جـ ١ ص ٢٤١.

(٢) قلائد العقيان ص ١١٧.

(٣) قلائد العقيان ص ١٢٣.

(٤) قلائد العقيان ص ٢٥٤.

(٥) روض القرطاس ص ١٠١.

يوسف بعد فتح المغرب فلكي يحتفظ بثمار النصر فلا بدّ له من عدد كبير من الجنود للقضاء على أي تمرد أو انفصال ولما كان عدد الصنهاجيين محدوداً وبلاد المغرب واسعة كان لا بدّ له من البحث عن روافد لملء ذلك الفراغ الهائل. وهنا حقق الأمير يوسف المعجزة فقد وسع دائرة التجنيد بإشراك القبائل المغربية المهزومة من زناتة ومصمودة وغمارة[1] في الجيش وأطلق عليهم اسم الحشم[2] واستطاع أن يؤلف بين هذه القبائل المتنافرة ويحببها بالنظام الجديد وأصبح الجيش المرابطي لأول مرة يتألف من طوائف متعددة يوحدها التعلق بشخص يوسف واحترامه وكثرة بذله[3]. وبعد فتح الأندلس أشرك إلى جانب المغاربة الأفارقة عرب بني هلال[4] بالإضافة إلى الأندلسيين الذين شكلوا فرقة خاصة بهم غداة الزلاقة. وبعد ضم الأندلس جندهم الأمير يوسف وأمرهم بالإقامة في الثغور لمعرفة طبيعة بلادهم ولأذكاء هممهم فهم أكثر دربة وخبرة على مقاتلة النصارى[5].

وشكل الأمير يوسف حرسه الخاص من عبيد غانا فقد اشترى منهم حوالي ألفين أطلق عليهم اسم العلوج[6] »بالإضافة إلى الصقالبة فقد كان عنده منهم حوالي مئتين وخمسين سماهم الداخليين[7] وهؤلاء من النصارى المعاهدين الذين اعتنقوا الإسلام وكان يوسف يحبوهم بعطفه وصلاته ويبذل لمن امتاز منهم بالإخلاص والشجاعة مختلف الهبات[8].

وكانت قوى الحرس الخاص تشكل من أشجع الجنود وقد وضع الأمير

---

(١) روض القرطاس ص ٨٩ ـ أعمال الأعلام تحقيق د. عبادي ص ٢٣٥.
(٢) الحلل ص ٢٠.
(٣) قيام دولة المرابطين ص ٣٦٧.
(٤) قلائد العقيان ص ٦٥ ـ ابن الكردبوس ص ١٠٧.
(٥) الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ص ١١٤.
(٦) الحلل ص ١٣.
(٧) الحلل ص ٢٠.
(٨) الأندلس في عهد المرابطين ص ١١٤.

يوسف شروطاً لقبولهم منها أن يكونوا من ذوي القوام الحسن والشجاعة والقوة[١] وقد درب الأمير يوسف كذلك فرقاً من الفدائيين الزنوج يكلفون بالمهمات الصعبة خاصة في نهاية المعارك لانتزاع النصر وضرب قوى العدو. وعمد الأمير يوسف إلى إصلاح نظام تسليح الجيش وطريقة إعداده للقتال ففي البدء كانت أسلحتهم يدوية ويعتمدون على الإبل[٢] وهذه الأسلحة تصلح لحرب الصحراء. أما حرب المدن والحصون فإنها تتطلب وسائل وأسلحة تتلاءم مع الوضع الجديد الناشىء عن حرب الحصار ولهذا ابتكر الأمير يوسف الخطة العسكرية المعروفة بالتقري[٣].

وسلح الجيش بكل أنواع الأسلحة المعروفة من مغربية وأندلسية ونصرانية وكان سلاح كل فرقة من الجيش يتناسب مع تركيبها ووضعها القتالي فمشاة الصف الأول يتسلحون بالقنا الطوال وبدروق اللمط[٤].

وكان للأمير يوسف الفضل في تنظيم قيادة جيشه واكتشاف الرجال والمواهب فقد وهب جيشه قادة عظاماً أعادوا إلى الأذهان سيرة قادة الفتح الأوائل وذكروا بأن الإسلام قادر في كل زمان ومكان على إنجاب القادة الأفذاذ أمثال سير بن أبي بكر وداوود بن عائشة ومزدلي وابن فاطمة وابن ميمون وغيرهم[٥]. . . . . وعلى رأس الجميع القائد الصحراوي منقذ الإسلام في وقت عز فيه الناصر في المشرق والمغرب ألا وهو يوسف بن تاشفين. وأثناء المعارك كان الأمير يوسف يرتب الجيش وفق نظام خماسي: المقدمة ويحتلها الجنود المشاة ووحدة الفرسان الخفيفة، والجناحان ـ الميمنة والميسرة ـ حملة القسي والنبال وأكثرهم من أهل الثغور والقلب يتمركز فيه الفرسان المرابطون

(١) الأندلس في عهد المرابطين ص ٤٧٩.
(٢) المغرب ص ١٦٦.
(٣) راجع الصفحة ٤٤ هامش ٢.
(٤) الحلل ص ١١.
(٥) هؤلاء وغيرهم هم قادة الفتح المرابطي في المغرب والأندلس.

المزودون بالأسلحة الثقيلة والخفيفة والمؤخرة ويقودها الأمير بنفسه وتتألف من صفوة الجنود والحرس. وكان لكل قسم من هذه الأقسام قائده الخاص. ويجتمع قادة الوحدات قبيل المعركة على شكل مجلس حربي لتلقي الأوامر والتعليمات من القائد الأعلى يوسف[1].

وكان لكل فرقة رايتها الخاصة تسير تحتها عند أول إشارة لمقاتلة العدو في أكمل نظام[2] وكان الجيش المرابطي منضبطاً ومنظماً وكأنه على استعداد لخوض المعارك. كان المرابطون يقاتلون تحت قيادة يوسف بشدة وجلد ليس لغيرهم ويختارون الموت على الانهزام ولا يحفظ لهم فرار[3]. كانوا أثبت من الهضاب. وكان الشغف بالكفاح والجهاد يبدو بصورة خاصة ضد النصارى[4]. وكانت الأقوات والخيام وراء الجيش تحملها حيوانات النقل وخاصة الجمال وبصورة دائمة كان الرعاة يتبعون الجيش يقودون قطعان الماشية لتوفير اللحوم له[5].

وتحولت الأندلس إلى معسكر في عهد الأمير يوسف نظراً لأستمرار الصراع ضد النصارى وخشية من ثورة الأندلسيين فقد أبقى في القلاع والحصون سبعة عشر ألف فارس مرابطي[6] وكان قادة هذه الوحدات من اللمتونيين المرابطين بلغ راتب الفارس منهم خمسة دنانير بالإضافة إلى الطعام المجاني.

الأسطول

المرابطون بدو صحراويون يجهلون ركوب البحر، ولكن الحاجة فرضت

(١) الأندلس في عهد المرابطين ص ٤٧٩.
(٢) الأندلس في عهد المرابطين ص ٦٦.
(٣) المعرب ص ١٦٦ - الحلل ص ١١.
(٤) المغرب ص ١٦٦.
(٥) ظاهرة حديدة في عملية تموين الجيش.
(٦) مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة المجلد ١١ ج ٢ السنة ١٩٤٩ ص ٩٧ وقد أوصى الأمير =

عليهم الاهتمام بشؤونه لدى بلوغهم سواحل البحر المتوسط لحمايتها من الغزو الفرنجي، وبدا اهتمام الأمير يوسف بالأسطول منذ ذلك الوقت، وكان يتألف من سفن النقل أكثر من سفن الحرب، وخاض الأسطول الناشىء أولى معاركه في سبتة ٤٧٦ هـ/١٠٨٣م ضد صاحبها معز الدولة بن سكوت البرغواطي وقد دفعت هذه المعركة الأمير يوسف إلى زيادة الاهتمام به، وقد استخدمه لنقل الجنود إلى الأندلس عام ٤٧٩ هـ/١٠٨٦م. وبعد أن ضم الأمير يوسف الأندلس إلى مملكته استعان بخبرة الأندلسيين في هذا المضمار وكذلك بدور صناعتها واستفاد من تلك الطاقات المادية والبشرية في الشؤون البحرية، وقد أدى ذلك إلى بناء قوة بحرية منظمة ساهمت مساهمة فعّالة في تحرير شرق الأندلس من النصارى، فاشترك الأسطول المرابطي في معارك بلنسية وجزيرة شقر وخاض معركة استرجاع جزر البليار[1]. وعين الأمير يوسف لقيادة الأسطول ابن ميمون. ولم يخض الأسطول المرابطي معركة فاصلة في عهد الأمير يوسف وقد أثمرت جهوده في عهد خليفته الأمير علي.

وثمة ظاهرة حربية هي ظاهرة الحصون والقلاع التي أنشأها الأمير يوسف في المغرب لإقرار الهدوء وقد شحنها بالجنود والمؤن، وتحولت هذه القواعد العسكرية مع الزمن إلى مدن مثل تاكرارت، وقد بنى في مراكش قلعة حصينة يعتصم بها الجنود إذا دهمهم الخطر وقصبة لخزن سلاحه والأموال - واهتم ببناء سبتة.

أعمال الأمير يوسف العمرانية

بناء مراكش

بعد أن ثبت الأمير يوسف أقدامه في المغرب وعظم صيته وأطاعته سائر

= يوسف ابنه علياً بالاحتفاظ بهذا العدد في حواضر الأندلس وثغوره.

(١) الأندلس في عهد المرابطين ص ٤٨١.

القبائل وازداد نفوذه وهب مملكته عاصمة جديدة[1] وذلك عام ٤٥٤ هـ/١٠٦٢ م اشترى مكانها من عجوز مصمودية[2] يقع على بعد ستة كلم إلى الشمال من وادي تنسفت، وإلى شرقه يجري فرع من فروع الوادي المذكور يحمل اسم أسيل. يحده شمالاً مملكة سلا وجنوباً جبل درن وغرباً المحيط الأطلسي وشرقاً مناطق سجلماسة وفاس ويبعد عن أغمات خمسة عشر ميلاً إلى شمالها الغربي وهو سهل يحيط به مرتفعان هما أجليز وكدية. وكان المكان مكمناً للصوص يغيرون على القوافل العابرة تلك المنطقة، فكان المارة العابرون إذا انتهوا إلى ذلك المكان قالوا لبعضهم: مركش أي أمش مسرعاً بلهجة البربر ومن هنا كان اسم مراكش[3].

تضافرت على بنائها عوامل سياسية ونفسية تتعلق بالمرابطين وبأهل الأرض المفتوحة وقد اختار الأمير يوسف المكان بين قبيلتي مصمودة وزناتة

---

(١) روض القرطاس ص ٨٩ ـ المختصر ص ١٧٥ ـ معجم البلدان ج ٥ ص ٩٥ الأعلام جص ٩ ص ٢٩٥ ـ صبح الأعشى ج ٥ ص ١٨٩ ـ الاستقصا ج ١ ص ١٠٧ ـ العبر ج ٦ ص ١٨٤ ـ نفح الطيب ج ٦ ص ١٠٣ وفيات الأعيان ج ٧ ص ١١٣ ـ الإحاطة ص ٢٣٤ ـ الحلة السيراء ص ٣٠٥ ـ ياقوت: تقويم البلدان ص ١٣٥ ـ الأندلس في عهد المرابطين ص ٦٥ ـ دائرة المعارف ج ٥ ص ٢٣٧ مادة أبو يعقوب ـ دائرة معارف القرن العشرين مادة لثم ص ٣٢٢ ـ تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٣١٩ ـ حتى وجبور: تاريخ العرب ص ٦٤٤ ـ غير أن ابن الخطيب في الحلل وابن عذاري في البيان يذكران أن الذي أسس المدينة هو أبو بكر بن عمر، فصاحب الحلل يذكر أن أبا بكر شرع في بنائها عام ٤٠٢ هـ/١٠١٢ م ووصف المكان بأنه خالٍ من البشر لا أنيس فيه موطن للغزلان والنعام ص ١٢، وابن عذاري يتفق معه في الرأي بأن المؤسس هو أبو بكر بن عمر ولكنه يختلف معه في التاريخ فيذكر أن عام تأسيسها هو ٤٦١ هـ/١٠٦٩ م بالنسبة لصاحب الحلل فإن التاريخ ٤٠٢ سابق لوجود المرابطين السياسي إذ بدأوا بتأسيس دولتهم عام ٤٤٠ هـ/١٠٤٨ م تقريباً أما بالنسبة لابن عذاري فإن أبا بكر حكم من ٤٤٧ ـ ٤٥ هـ/١٠٥٥ ـ ١٠٦٠ م وقد تنازل عن الحكم لابن عمه يوسف بن تاشفين وانصرف إلى الصحراء حتى استشهد فيها عام ٤٨٠ هـ/١٠٨٧ م فأثناء العام ٤٦١ هـ كان أبو بكر في الصحراء وليس في المغرب. شذرات الذهب جـ ٣ ص ٤١٣ ـ مرآة الجنان جـ ١٦٦ ص

(٢) وفيات الأعيان ج ٧ ص ١١٣.

(٣) روض القرطاس ص ٨٩.

لإخضاعهما ولمراقبة تحركاتها المعادية، وفي وسط طريق القوافل بين الشمال والجنوب. والمكان يعبر عن تعلق المرابطين بالحصراء موطنهم الأصلي لذلك جاءت على شكل مدينة صحراوية، فقد نقلوا إلى الحواضر القريبة منهم صورة عن صحرائهم تختلف عما ألفه سكان المغرب.

نزل الأمير يوسف المكان بخيام الشعر وشرع ببناء المسجد، وهي الطريقة المتبعة عند تأسيس المدن الإسلامية، وكان الأمير يعمل ببناء المسجد كبقية العمال تواضعاً وورعاً[1]، وبعد ذلك بنى قصبة صغيرة لحفظ أمواله وسلاحه»[2]، والمكان الذي بناه هو الموضع المعروف الآن بسور الحجر قرب جامع الكتبيين ويعرف اليوم بالسجينة[3]. وبناء مدينة في منطقة الأعداء تحمل طابع المحافظة على الأصالة الصحراوية ويمنع إلى حد ما اختلاط الفاتحين بالسكان المحليين لعوامل نفسية، فهم جنود غزاة قادمون من الصحراء، نيتهم صالحة لم تفسدها الحضارة ولا مخالطة الأسافل، وطبيعتهم البدوية لا تؤهلهم للإقامة بمدن ذات طابع حضاري تعتمد أساليب في الحياة مغايرة لطبيعة الصحراء تتناول المياه من شبكات الري والقنوات كأغمات مثلاً فهم أهل بر وخيام لا أهل مدن وقصور، ذلك يجدون الحرية والراحة في الفضاء الواسع. وهكذا كانت مراكش كالمعسكر وسط أرض الأعداء وهي شبيهة بالمعسكرات التي أنشأها العرب في البلاد المفتوحة وتحولت فيما بعد إلى حواضر كالبصرة والكوفة وواسط في العراق، والفسطاط في مصر والقيراوان في تونس، ولم يشيد الأمير يوسف لها سوراً، ذلك لأن قوة الدولة كانت ترهب أعداءها، وبقيت كذلك بلا سور حتى أقامه الأمير علي خليفة يوسف عام ٥٢٧ هـ/١١٣٣ م وكانت مراكش خالية من المياه إذ لا ينابيع فيها لذلك جلب الأمير يوسف لها الماء من أغمات كما أمر بحفر الآبار، وقد لعب الجبل

---

(١) العبر ج ٦ ص ١٨٤.

(٢) روض القرطاس ص ٨٩.

(٣) رحلة ابن بطوطة ص ٦٥٨.

المجاور لها دوراً كبيراً في تلطيف مناخها وفي تخزين المياه الجوفية فيها، إذ أن الثلوج تغطيه مدة ستة أشهر من السنة. وقد قام «المهندس» عبد الله بن يونس باستخراج المياه للري عن طريق حفر الآبار، فقد حفر بئراً في بستان يملكه أبو الفضل مولى أمير المسلمين، فكافأه الأمير على عمله.

وفي أوائل القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلاد زار الرحالة ابن بطوطة مدينة مراكش وذكر[1]: «هي من أجمل المدن، فسيحة الأرجاء متسعة الأقطار كثيرة الخيرات، بها المساجد الضخمة كمسجدها الأعظم المعروف بمسجد الكتبيين وبها الصومعة العجيبة. قال ابن جزي في مراكش: يقول قاضيها الإمام التاريخي أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الأوسي:

لله مــراكش الـغــراء من بـلـد ... وحبذا أهلها السادات من سكن

إن حلها نازح الأوطـان مغترب ... أسلوه بالأنس عن أهل وعن وطن

بين الحديث بهـا أو بالعيـان لها ... ينشأ التحاسد بين العين والأذن

وجاء في تقويم البلدان لأبي الفداء عن موضع مراكش[2]:

	اسم المنقول عنهم	الطول		العرض	الإقليم الحقيقي	الإقليم العرفي
مراكش	ابن سعيد	درج يا	دقائق 7	ك 7	من الثالث	من المغرب الأقصى

بالإضافة إلى بناء مـراكش فقد اهتم الأمـير يوسف بتنـظيم مدينـة فاس[3]، وبنى مدينة تاكرارت في المغرب الأوسط قرب تلمسان، وقد اهتم

(١) رحلة ابن بطوطة ص ١٨٤.

(٢) تقويم البلدان ص ١٣٥.

(٣) مراجعة تنظيم فاس ص ٤٧.

ببناء المساجد فقد أعاد بناء جامع مدينة الجزائر وزاد من حجم جامع مدينة سبتة.

معاملة الأمير يوسف لأهل الذمة

أ المستعربون:

عندما استولى الأمير يوسف على الأندلس، أجبر النصارى الذين كانوا في المناطق الإسلامية على اعتناق الإسلام، ونفى قسماً منهم إلى المغرب ليكونوا تحت المراقبة ـ وقد أمر عام ٤٩٢ هـ/١٠٩٩ م وتحقيقاً لفتوى الفقهاء بهدم كنيسة غرناطة، وكان قد شيدها غوديلا القوطي عام ٦٠٠ م[١]. ومن غريب المصادفة أن تدمير الكنيسة المذكورة تم وقت سقوط القدس بين الصليبيين في الشرق.

ب اليهود:

لعب اليهود دوراً مزدوجاً بين المسلمين والنصارى في الأندلس، نالوا الحظوة والغنائم، فكان من الطبيعي أن ينالهم تعصب الأمير يوسف ما أصاب غيرهم من الطوائف غير المسلمة، وقد فرض عليهم ضرائب باهظة بلغت مئة ألف دينار[٢]. وقد أعلن فقيه قرطبي أنه وجد بين أوراق ابن مسارة وثيقة تقول أنه إذا انتهى القرن الخامس ولم يظهر المسيح فسيعتنقون الإسلام، واتخذ يوسف من هذه الوثيقة ذريعة لإجبارهم على دخول الإسلام، وإلا فالضرائب الباهظة محتومة عليهم وقد ساهمت هذه الجزية بقسط كبير في سد نفقات الأمير يوسف الكثيرة، وكان نصيب يهود ليسانا كبيراً[٣]، إذ كانوا أغنى سكان العالم الإسلامي.

(١) حتى جبور: تاريخ العرب ص ٦٤٧.
Dozy: hist. des mus. D'Esp. t. 3 p. 159

(٢) البيان المغرب ج ٤ ص ٢٣.

(٣) Hist. des mus. D'Espagne t. 3 p. 158

أموال الدولة

أ الدراهم والدنانير:

الدرهم : أنشأ الأمير يوسف داراً للسكة في مراكش عام ٦٤ هـ/١٠٧٢ م وضرب فيها دراهم زنة الواحد درهم وربع من عشرين درهماً للأوقية، وهو الدرهم الجوهري المعروف في وقتنا هذا[١].

الدينار : وضرب الدينار الذهبي باسم الأمير أبي بكر بن عمر في العام ذاته[٢] وفي عام ٤٧٣ هـ/١٠٨١ م بدل السكة وضرب الدينار باسمه[٣] وكان من التبر[٤] وجاء على الشكل التالي[٥]:

الوجه	الظهر
لا إله إلا الله محمد رسول	الإمـــام عبد الله
الله ومن يبتغ غير الإسلام	ضرب هذا الدينار
دينا فلن يقبل منه وهو	بمراكش سنة
أمير في الآخرة من الخاسرين	ثلاثة وسبعين وأربعماية
المسلمين يوسف بن تاشفين	أميـــر المؤمنين

وكانت الدنانير المرابطية تأتي في المرتبة الرابعة بين مثيلاتها بالنسبة للدنانير الفاطمية[٦]. وكانت تنقص في الصب ١٥٪ بالإضافة إلى رسم الصكة وأجرة الضرابين ٥٪ فيكون الباقي ٨٠٪ «من كل مئة مثقال» وقيمة كل مثقال ٣٢ درهماً بالعرف المذكور

---

(١) قبل هذا التاريخ كانت دار السكة في سجلماسة: مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد السنة ١٩٥٤ المجلد ٢ ص ٦٥.

(٢) البيان المغرب ج ٤ ص ٢٢.

(٣) البيان المغرب ص ٢٢.

(٤) البيان المغرب ج ٤ ص ٤٦ ـ روض القرطاس ص ٩٢ ـ الاستقصا ج ١ ص ١١٠ ـ الأعلام ج ٩ ص ٢٩٥.

(٥) البيان المغرب ج ٤ ص ١٦.

(٦) الأعلام ج ٩ ص ٢٩٥ ـ مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد السنة ١٩٥٤ ص ٦٥.

ب ـ الضرائب:

ألغى الأمير يوسف في مملكته جميع الضرائب غير المشروعة التي كان قد فرضها الزناتيون في المغرب وملوك الطوائف في الأندلس، وكذلك المكوس والرسوم والضرائب في جبل طارق[2] ولم يفرض في دولته طيلة حياته رسم مكس أو معونة خراج لا في حاضرة ولا بادية[3]. واتبع نظاماً مالياً يقوم على قواعد الإسلام[4]، فلم يفرض إلا ما أمر الله به وأوجبه حكم الكتاب والسنّة من الزكاة والعشر والجزية وأخماس الغنائم، وجبى في ذلك من الأموال على الوجه الشرعي ما لم يجبه أحد[5]، وترك في خزائنه مبلغ ثلاثة عشر ألف ربع من الورق وخمس وأربعين ألف ربع من دنانير الذهب[6].

---

(١) مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد السنة ١٩٥٨ المجلد السادس ص ١١٩ المقال: ضوابط دار السكة لعلي بن يوسف الحكيم.

(٢) الأندلس في عهد المرابطين ص ١١٥.

(٣) روض القرطاس ص ٨٨.

(٤) تاريخ الإسلام السياسي ج ٤ ص ٣٤٦ وما بعدها.

(٥) روض القرطاس ص ٨٨ ـ الاستقصا ج ١ ص ١٢٣. الأندلس في عهد المرابطين ص ٦٥ ويضيف إليها أشباخ التبرعات ص ١١٥.

(٦) روض القرطاس ص ٨٨.

فهرس